الدكتور مختار حساني

تاريخ الدولة الزيّانية

الجزء الثاني

الأحوال الاقتصادية والثقافية

منشورات الحضارة

تاريخ الدولة الزيانية

الجزء الثاني

الأحوال الاقتصادية والثقافية

الدكتور: مختار حساني

منشورات الحضارة

طبـــعــة 2009

الإيداع القانونـــي: 760-2009
ردمك:2-67-767-9961-978

منشورات الحضارة
ص ب 04 بئر التوتة 16045 الجزائر
هاتف/فاكس: 41. 34. 44 (021)

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة
في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب

المقدمة

تعتبر الدولة الزيانية من أهم الدول التي نشأت على أرض الجزائر، حيث استمرت أكثر من ثلاثة قرون 1232- 1562. وقد مرّت بجميع المراحل التي ورد ذكرها في مقدمة ابن خلدون حيث كان شاهدا على مرحلة هامّة من حياة هذه الدولة، هو وأخوه يحي ابن خلدون صاحب كتاب بغية الرواد.

وتميّزت هذه المرحلة بحروب متواصلة مع القوى الخارجية التي كانت تعمل من أجل السيطرة على أراضيها لأهميتها من الناحية الاقتصادية اذ تعتبر الدولة الزيانية من بين الدول التي أعطت أهمية كبيرة للتجارة الداخلية والخارجية مع محيطها (البحر المتوسط، السودان الغربي والمشرق العربي) فالوثائق التي تحصّلنا عليها في دور الارشيف بالدول الغربية وكذلك ما بقي من التراث المخطوط الذي يعود لعصر هذه الدولة يؤكد عظمتها في هذا الميدان.

أما في الجانب الثقافي فكانت عاصمتها تلمسان من بين المراكز الهامة، حيث كان لعلمائها أثر كبير في الحواضر الاسلامية في بلاد المشرق وبلاد المغرب الاسلامي. فالتراجم المتوفرة لدينا تؤكد هذا الدور الهام الذي قام به علماء الدولة الزيانية ونذكر منهم على الخصوص: أبو زكريا ويحي المغيلي المزوني الذي ألّف الدرر

المكنون في نوازل مازونه وتعرض فيــه إلــى الاحــوال الــسياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال مجموعة مــن النــوازل لعلمــاء الجزائر، وكذلك محمد بن عبد الكريم المغيلــي التلمــساني، رجــل الاصلاح في عصره...

وهذا العمل الذي نقدّمه للمكتبة الجزائرية يعدّ مرآة صادقة لاحوال هذه الدولة انطلاقا من دراسة تاريخية اقتصادية، اجتماعية وسياسية.

د. مختار حساني

برج الكيفان في 8. 10. 2007

البـــاب الأول

الأحـــوال الاقتصاديـــة

الفصل الأول

الأوضــاع الاقتــصــاديــة

- المـدخـــل:

الاقتصاد هو عصب الحياة بالنسبة إلى أي نظام سياسي ذلك أنـه هـو الذي يحدّد مدى ثراء الدولة أو فقرها ولا شك أن الحياة الاقتـصادية تـستمد وجودها من امكانيات اقتصادية تتماشى بها المؤسسات المختلفة فـي الدولـة سواء فيما يتصل بالزراعة أو التجارة أو الصناعة.

وإذا كانت موارد الدولة تحدد من خلال هذه المجالات فإنها تتأثر إيجابيا بالوضعية السياسية وما يقوم بين الدولة وجيرانها من حـروب كمـا تتـأثر بالوضع الاجتماعي وخصوصا ما يتصل بالأمن، وكلما كانت الدولة مستقرة أصبح نظامها الاقتصادي أكثر تطورا ورقيا والحال بالنسبة للدولة الزيانيـة يبدو في وضع متواز بين التحكم في مقدرة الدولـة الاقتـصادية ومواجهـة الضغط العسكري والسياسي من خارجها واضطراب الأمن داخلها وتبدو هذه الوضعية نصف مستقرة لم تصل إلى حد الانهيار أوالاستقرار الكامل الـذي يؤدي إلى الرقي المنشود والتقدم في المجال الاقتصادي وأول ما نتعـرض له في هذا الباب الملكية.

- الملكية:

بالرغم من تزايد العناية خلال السنوات الأخيرة بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية فإن كثيرا من القضايا لا تزال مطروحة ولا يعرف منها الباحث إلا القليل، منها البنية الاقتصادية والاجتماعية فيما نعلمه عن الحياة الزراعية ما يزال قليلا لا يسمح

لنا بالتعمق في تحليل النصوص الدقيقة ولاسيما خلال القرون الخمسة الأولى[1] لتاريخ المغرب الإسلامي قبل بروز ظاهرة الفتاوى والرحالات.

ولكن من أكبر المشاكل التي تعترض سبيلنا في محاولة التعرف على الهياكل الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الزراعي الزياني هي نظام الملكية للأرض وهده الأخيرة لا يمكن فصلها عن بقية بلدان المغرب الإسلامي لأنها تشكل جزءا منها.

من ناحية أخرى فاذا كانت كتب الرحالة العرب تمدنا ببعض المعلومات عن المناخ والموارد المائية وعن زراعة البستنة في ضواحي المدن وعن أنواع الزراعة وتربية المواشي فإنها لا تفيدنا بشيء ذا شأن عن نوع الملكية وأوجه انتقالها وأساليب استغلالها.

فالمصادر الإسلامية أمدتنا بمعلومات دقيقة عن ملكية الأرض في العراق ولاسيما أراضي السواد وكذلك مصر وبلاد الشام.

أما بالنسبة للمغرب الإسلامي، فيرى الجنحاني أنّ المفاهيم المتصلة بالملكية الزراعية في البلاد المفتوحة مثل الفيء والغنيمة والجزية والخراج والضياع والإقطاع والحماية ونظام الجباية الموظفة على إنتاج الأرض لاتزال مطروحة بالرغم ما كتب عنها قديما وحديثا وأنها قد تطورت حسب الواقع الاقتصادي والاجتماعي واختلفت من منطقة جغرافية إلى أخرى لأسباب متنوعة، وما نعرفه عن التنظيم لشؤون الجزية والخراج في صدر الإسلام في مناطق مثل

1- عن ملكية الأرض في العراق ولاسيما في أراضي السودان وفي بلاد الشام ومصر انظر تطور الأراضي في منطقة السواد حتى نهاية العصر الأموي ،مخطوطة رسالة ماجستير قدمها محمد على نصر الدين إلى قسم التاريخ جامعة بغداد وانظر عن بلاد الشام صالح حسين الحياة الزراعية في الشام في العصر الأموي عمان1978 ص43 انظر جاسم صلبان علي الحياة الزراعية في القرن الأول.

العراق ومصر يبقى غامضا في بلاد المغرب الإسلامي وأنواع الإقطاع الذي عرفته الخلافة العباسية ابتداء من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي.

إلاّ أنه يبدو لي أن العرب المسلمين الفاتحين الأوائل قد انتهجوا نفس السياسة التي سلكوها في العراق وبلاد الشام وخاصة في مصر، حيث كان المغرب الإسلامي تابعا لها في المراحل الأولى للفتح، كما نجد صعوبات في معرفة كيفية فتح المغرب هل أراضيه فتحت عنوة أو صلح، وقد نقل عبد الله بن أبي زيد في كتابه النوادر والزيادات على المدونة عن سحنون قال: " كشفت عن أرض إفريقية فلم أقف عنها على حقيقة هل هي فتحت عنوة أوصلح؟، وسألت عن ذلك علي بن زياد فقال: " لم يصح عندي فيها شيء"[1].

أما الونشريسي[2] فقد تعرّض في كتابه المعيار لهذه النقطة، فقال: " أنها عنوية وقيل فتحت صلحا، وقيل بالتفصيل بين السهل والجبل وقيل بالوصف".

أما بلاد المصامدة وأراضي مراكش فقد أسلم عليها أربابها وليس فيها صلح ولاعنوة[3].

فالنصوص الثلاثة لم توضّح لنا وضعية الأراضي في بلاد المغرب الإسلامي، وهذا جعل بعض الباحثين كالجنحاني يرى أنه يمكن قياس ملكية الأرض وتنظيم شؤون الخراج بالقياس إلى مصر وهو قياس مع الفارق لأن الخراج وضع على أرض مصر من أول لحظة أما أراضي المغرب الإسلامي فقد أسلم عنها أهلها فيما عدا أراضي الفئة الحاكمة وفئة النبلاء

1- الجنحاني نفس المقالص 175.

2- الونشريسي المعيار ج 6 ص 133 ؛134.

3- المازوني المصدر السابق ج 2 ورقة 45.

البيزنطيين فقد أصبحت ملكا عاما يتصرف فيها الأمير باسم الخليفة ويقطع منها، وهذه يستوي فيها جميع الولايات الإسلامية في المشرق والمغرب[1].

وخلال القرن التاسع الهجري الخامس عاشر الميلادي نجد من بين الذين تعرضوا لنظام الملكية العقباني[2]، فإنه أثناء حديثه عن الحكم في أرض الصلح[3] والعنوة[4]، قال قلت: " وأما الأرض التي تخلّى عنها أهلها بغير قتال فهي للمسلمين يقطعها الامام اقطاع تمليك إن ظهر له وجه المصلحة في ذلك وأما الأرض التي أسلم عليها أهلها بغير قتال ولا أخذت عنوة فهم يبيعون ويتصرفون بما شاؤوا وليس لأئمة المسلمين نظر فيها"[5].

وأغلب الظن أن معظم الأراضي في المغرب الإسلامي ومن بينها أراضي الدولة الزيانية كانت قد تركت لأصحابها إبّان الفتح الإسلامي فيما عدا الخطط التي وضعها حسان بن النعمان لبعض بطون زناتة بغرض تحديد أماكن خاصة بكل بطن من بطونها وكان الهدف الأساسي العمل على استقرارها ولهذا نرى أن الملكية انتقلت عن طريق البيع والشراء والتوريث، لأن الفاتحين للمغرب

1– الماوردي الأحكام السلطانية القاهرة 1909 ص 256

2– بو يعلى الحنبلي الأحكام السلطانية القاهرة 1966

3– الصلح معنى الصلح من الصلاح ضد الفساد والصلح هنا معناه أن المسلمين إذا نزلوا على حصن أو مدينة خانهم أهلها فخرجوا إلى المسلمين وبدلوهم عن ناحيتهم مالا أو خراجا انظر ياقوت الحموي معجم البلدان ج 1 ص 39 دار صادر بيروت 195/1374.
أبوعبيد كتاب الأدوال القاهرة1352 ص136؛ أبو يوسف كتاب الخراج القاهرة1352 انظر أيضا عبد الواحد محم ملكية الارض في الاسلام القاهرة1319 ص171.

4– العنوة هو ضد الصلح العنوة أخذ الشيء بالغلبة

5– ياقوت الحموي نفس المصدر ج1 ص40؛ المازوني المصدر السابق ج2 ورقة43 العقباني تحفة الناضر ص189

لــم يتركوا عناصر عربية على الخصوص في الأرياف ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلى عاملين أساسين:

أولا أن الأراضي المغربية بعد الفتح الإسلامي بقيت لأصحابها ولم تنزع منهم مثل ما حدث في المشرق الإسلامي خلال العهد الأموي.

- ثانيا استمرار الاضطرابات وعلى الخصوص ثورات الخوارج:

*** أنــواع الملكيــة:**

تنقسم الملكية في المغرب الإسلامي إلى ملكية عامة وخاصة فالأولى تخص البادية حيث وجدنا بعض الأراضي امتلكت من طرف قبائل قام أفرادها بالعمل فيها بطريقة جماعية، وتسمىّ بأراضي العروش أي الملكية المشاعة وكذلك الحمي[1] وهو ما تحميه القبائل الرعوية من البدو الرحل واستغلالها جماعيا في تربية المواشي ويدخل في هذا الإطار ما يعرف بنظام الحبوس الذي يخص قطاعا من الأرض انتقل من الملكية الخاصة إلى الملكية العامة وذلك بزيادة التأثير الديني على المجتمع الزياني علما أن هذا النظام صار يمثل نسبة كبيرة من مجموع الأراضي الزراعية التي آلت بعد حبسها للانفاق من عائداتها علـــى المرافق العامة مثل المساجد والمدارس والزوايا وما إلى ذلك، وقد زادت أهمية هذا الاتجاه منذ القرن السابع الهجري الثالث عاشر الميلـــادي وأدى إلى انتشار الزوايا والمدارس في ربوع البلاد حتى أصبحت المؤسسة الواحدة من المساجد والمدارس والزوايا تملك مقاطعة بكاملها مثل زاوية سنا[2]

1- الحمي يعني في الأرض الكلأ والماء وذلك بتعدي مساحة الأرض لرعي الماشية. انظر الأحكام السلطانية الطبعة الأولى القاهرة 1884 ص 256 انظر أيضا عواد مجيد الأعظمي الزراعة والاصلاح الزراعي في صدر الاسلام ص35 .

2- المازوني الدرر المكنونة ج 2 ورقة 44.

في ولاية غليزان التي كانت تستغل تلك الأراضي بأكملها ويؤيد ما ذهبنا إليه أن الأراضي التي كانت تابعة للحبوس قد دخلت في الدورالاقتصادية العامة رغم الفتـــاوى الفقهية التي تمنع بيعها وانتقالها.[1] ويبدو ذلك من شكوى الفقهاء من اعتداءات الحكومة على أراضي الحبوس، حيث استثمروها وزرعوها اقطاعات بغير سبب وقد عالج فقهاء الدولة الزيانية فأجازوا اقتسامها بغرض المغارسة وصدرت في ذلك فتاوى من شيوخ تلمسان في الأراضي المحبوسة على المدرسة اليعقوبية.

ويدخل في هذا الإطار أراضي الدولة التي تخضع مباشرة للسلاطين حيث كانوا يتصرفون فيها كيفما شاؤوا وذلك بمنحها إقطاعيات لبعض الأشخاص المقربين من رؤساء القبائل ليستغلونها، وفي هذا الصدد يقول المازوني[2]: "سئل العقباني عن قوم بأيديهم أراضي بأوامر السلاطين المتقدمين ومن بعدهم يغتالونها بأنواع الغلل زمن الحرث وغيره والأرض التي للأئمة إنما يعطونها في العادة اقطاعا لا تمليكا وهي جماعية للمسلمين".

وأن الفرد الذي يمنح هذه الأراضي له الحرية الكاملة في استثمارها والحصول على انتاجها، لكنه لا يملك حق بيعها، ومن هنا ندرك أن هذه الأراضي المقتطعة إنما تقدم مقابل خدمات يؤدونها للدولة، وهنا جاز للسلاطين حق نزعها في أي وقت، من ذلك ما روي أن رجلا عمد إلى تلك الأرض فباعها وتصرف فيها وتداولها الملاك إلا أن السلطان انتزعها من يد مالكها.

من كل ما أوردناه يتبين لنا أن اعتداءات كانت تقع على مثل هذه الملكيات العامة المقتطعة لبعض الأشخاص بغرض الانتفاع بها وأن ملوك الدولة كانوا

1- نفسه ج 2 ورقة 44

2- الونشريسي المعيار ج 5 ص126

يتدخلون في بعض الأحيان لإزالة هذه الملكية وإعادة الأرض إلى الملكية العامة، وفي ذلك يقول الونشريسي: " سئل العقباني عمن كان مواليا لبعض الملوك وله تدخل لعمالة وجباية ثم قام قائم في ذلك الملك فقتله ثم سلبه جميع أملاكه قديما وحديثا".

هذا النص يبين لنا نوع جديدا مما يؤول إلى الملكية العامة بالاضافة إلى مصادرة أراضي عمال الدولة الذين يستغلون نفوذهم بالكسب غير المشروع، وهذه الظاهرة عرفت في التاريخ الإسلامي و خاصة في فترات الضعف والصراع الذي يقوم بين أفراد الأسرة الحاكمة، ما كان له تأثير كبير على وضعية ملكية الأراضي وانتقالها من الملكية الخاصة إلى الملكية العامة، والثانية الملكية الفردية وهي بدورها تنقسم إلى قسمين:

- الأراضي الواسعة التي بأيدي الملاك الكبار في الأرياف الذين يفلحونها بواسطة العبيد.
- الأراضي المجزأة إلى قطع صغيرة لكثرة التصرف فيها بالإرث والبيع أو الشراء.

*** الاقطـــــاع:**

تعرضنا لنوعين من الملكية هما الملكية العامة والخاصة، ونتعرف هنا على نوع من الملكية لا تدخل في هذا الإطار أو ذاك لاهي ملكية خاصة أوعامة وهو نظام الاقطاع[1]. حدد أبو يوسف هذا النظام فقال: " أن الأرض التي تكون لحاكم البلاد قبل فتحها أوتكون لرجل قتل في الحرب أو أن تكون من معيـــن

1- الإقطاع أو القطائع تعني عملية منح أو إعطاء السلطة قطعة من الأرض لرجل يتصرف فيها باحيائها وزرعها ومفردها قطيعة انظر الخوارزمي المفاتيح القاهرة1341 ص40 أبو يوسف المصدر السابق ص 25 ؛26 ؛28 ؛235

مـــاء أو نحو ذلك، فهذه الأصناف من الأرض كان الخلفاء الراشدون يجيزون اقطاعها لمن شاءوا على أن يؤدي عشر مالها لبيت المال أو كثر أوأقل[1].

ويظهر أن قطع الأرض في عهد الرسول(ص) وما تلاه من الخلفاء الراشدين قد تركزت على الأراضي التي يجوز إقطاعها من قبل الإمام في قوله: "وكل أرض من أرض العراق والحجاز واليمن والطائف وأرض العرب وهي غير عامرة وليست لأحد ولا ملك لأحد ولا ورثته ولا عليها عمارة، أن يقطعها الإمام رجلا يعمّرها من ذلك أنه بعد هزيمة السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني في معركة بجاية سنة767/ 1366/[2] ثم التفّ العرب حول عدوه أبي زيان[3] الذي قام ينافسه على عرش الدولة فاندفع العرب إلى أرض التل الواقعة شمال أراضيهم فاحتلوها وعند ذلك أدرك أبو حمو موسى أن حلفاء أبي زيان لم يجتمعوا حوله إلا طمعا في الإقطاعات والأموال، فبعث في طلبهم وبدل لهم وأقطعهم الأرض التي أخذت عنوة من أيدي أصحابها[4] مثل ذلك أن السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني أقطع قلعة بني سلامة لأولاد عريف[5] وكذلك منداس وما جاورها، وقد علّق ابن خلدون على هذه الوضعية بقولـــه: " أصبحت بطون توجين كلها خولا لسويد وعبيدا لجبايتهم إلاّ جبل الونشريس فلم يزل لبني تغرين، وفي نص آخر يقول عن كثيرها ولجأوا إلى سيف البحر وحصل كل منهم على مايلي: موطنه من بلاد القفر فاستولى بنـــو يزيـــد

1- ابن ادنم أبي عبيد القاسم الأموال تحقيق محمد ص39 القاهرة1384 البلادري المصدر السابق القسم الرابع ص171.
2- ابن خلدون العبر مجا 6 ص 101
3- نفسه ج 6 ص 19
4- العبر مجا 6 ص 102 بغية الرواد ج 2 ص 198
5- ابن خلدون العبر مجا 6 ص 101

عــلى حمزة وبني حسن[1] كما كانوا من قبل واستولى بنو حسين على نواحي روينة والسويد على بلاد توجين كلها ما عدا جبل الونشريس وبني عامر على تسالة ومليانة إلى كدرة ومازونة لمحمد بن عريف ونزلوا لهم على سائر النواحي فاستولوا عليها وأوشكوا على الأمصار[2].

إن سياسة التنازل على الأرض لفــائدة القبائل العربية بدأت مع قيام الدولة، حيث جلب يغمراسن السويد وبني عامر إلى تلمسان وأقطعهم الأراضي المحيطة بالبطحاء وسيرات، فتوزيع الأرض على هذه القبائل كان بعد أخذ العهد عليها والميثاق أن تكون حليفه في الحرب والسلم، فإن حدث أن نكثوا العهد نزعت منهم من جديد وسلمت لقبائل أخرى موالية للدولة[3].

ومن هنا يتبين لنا أن هذه الأراضي بهذه الصفة التي أعطيت عليها لم تكن سوى أسلوب أنتهجه الزيانيون تبعا لمن سبقهم أوعاصرهم من الدول الإسلامية.

أما الآثار التي ترتّبت على ذلك فلا شك أنها كانت ضارة بالمجتمع حيث شكل هذا الإجراء الإقطاعي طبقة مستغلة لعمال الأرض وبذلك انتقلت الدولة من الملكية الخاصة والعامة إلى ما يعرف في العصر الحديث بإقطاعية الدولة التي أصبحت تملك الأرض وتملك حتى التصرف فيها[4] ثم انتقلت هذه الوضعية

1- وعن منداس انظر ابن خلدون نفس المصدر مجا6ص245 الحسن الوزان ص63 ابن خلدون العبر ج7ص358 نفسه مجا 6 ص 101 ؛102

2- وعن منداس انظر ابن خلدون نفس المصدر مجــا6 ص245 الحســن الــوزان ص63 ابــن خلدون العبر ج7 ص358 .نفسه مجا 6 ص 101 ؛102

3- الونشريسي المعيار ج5 ص44 وفيما يتعلق بانتقال الأرض من قبيلة إلى أخرى انظر ابــن خلدون

4- العبر ج7 ص315 المازوني المصدر السابق ج 2 ورقة 44

السيئة إلى القبيلة، فأصبح شيخ القبيلة يعطي كل ما ينتمي إلى قبيلته أي يسندها نوعا من الإمتيازات.

ولعل من أدق الأمثلة على ذلك، موقف بعض القبائل التي استعملها الزيانيون في مواجهة المعارضين لهم مثل مغراوة وبني توجين والثعالبة وحصين وذوي عبيد الله[1] ومن المستفدين من هذا النظام، يوسف بن مهدي من مشائخ قبيلة سويد وعنتر بن طراد من نفس القبيلة وداود بن هلال بن عطاف من بني عامر والحارث بن مالك من العطاف أيضا وشيوخ من الديلم والمنبات ومن ذوي منصور.

وقد انتهج نفس الأسلوب بني مرين خلال عهد السلطان أبي عنان، فاقطع شيخهم ونزمار بن عريف، جزء كبيرا من الأراضي التابعة لبني توجين كالسرسو والنواحي المجاورة له.

وفي عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني أصبحت البلاد تقريبا كلها إقطاعات للقبائل والأشخاص سواء في ذلك من كانوا من الأسـرة الحاكمـة أو من أنصارها، فقد أدى الخوف من بني مرين بالإضافة إلى الصراعات الداخلية إلى تدهور الملكية الخاصة[2].

فإذا علمنا أن هؤلاء إنما كانوا يمنحون الأراضي الجيدة الإنتاج تبين لنا أن هذه السياسة إنما قامت على حساب الملاك الأصليين فيما يشبه المصادرة رغم أنهم كانوا يدفعون عنها الضرائب، وفي ذلك يقول المازوني: أن أرضا معروفة لأناس ومنسوبة إليهم قديما وحديثا ينتفعون بها بالحراثة وغيرها ويؤدون

1- المعيار ج4 ص 251

2- كان سلاطين الدولة يعيّنون أحد أبنائهم على بعض المقاطعات ويتركون لهم حرية التصرف فيها وكأنها اقطاع لهم انظر العبر ج7 ص29 العبر ج7 ص228 بغية الرواد ج1 ص167

خراجها للإمام الخليفة ثم أن الإمام ملكها لرجل من شيوخ العرب لما رأى فيه من المصلحة تمليكا مطلقا والأرض مشتملة على محروث ومعطول.

وقد ازدادت هذه الوضعية مع ضعف الدولة الزيانية التي فشلت في مواجهة أطماع شيوخ القبائل.

أما رؤساء الطوائف الصوفية فقد توصلوا بسبب نفوذهم الروحي إلى امتلاك الأرض الواسعة، فقد روي أن جماعة من المرابطين أنعم السلطان عليهم بأزواج من الحراثة وعليها عيون ماء فاقتسموا الأزواج والعيون، فصار كل منها يشغل ما منح له بالقسمة من الأرض والماء[1].

ومن الذين استفادوا من هذا الاقطاع، فقهاء تلمسان أمثال التنسي والعقبانيين فالتنسي، أقطعه يغمراسن أرضا للانتفاع بها بعد قدومه من تنس، ثم بعد وفاته انتقلت إلى أبناء الإمام وهم من مدينة برشك في عهد السلطان أبي حمو موسى الأول[2].

وخلاصة القول أنه إذا كان إقطاع شيوخ القبائل يستدعي المقاومة من طرف السكان فإن الطرق الصوفية كان لهم تأثيرهم على السكان نظرا لما تأديه الزوايا من خدمات، مثل التعليم والتربية الروحية وإطعام المسافرين.

وهناك نصوص أوردها بروسلار في المجلة الإفريقية[3] تتعلق بالوقف في تلمسان حيث كان السلاطين يعمدون إلى شراء الأراضي الزراعية والبساتين[4]

1- الدرر المكنونة ج2 ورقة56

2- المازوني الدرز المكنونة ج 2 ورقة 32

3- نفسه ج 2 ورقة36

4- ابن مريم البستان ص 28 29؛ 4 المازوني الدرر المكنونة ج 2 ورقة

يحرثوا في أرض اغتصبها ويكلف العمل فيها للخماسين وأرباب البقر فإن حان حصاده كلفهم أيضا بحصاده ونقله بعد درسه إلى مخازنه في أوعيتهم[1]".

- نوعية الأرض:

إن الأراضي التابعة للدولة الزيانية تختلف باختلاف الضروف المناخية[2] والتضاريسية، فهناك أراضي السهول الساحلية التي تسقط بها كمية وافرة من الأمطار، وهناك أراضي الهضاب العليا التي تتميز بقلة الأمطار، كما نجد أراضي تقع على ضفاف الأنهار تستغل مياهها في الأرض مثل سهل شلف الذي يسقى من هذا النهر وقد شاهدت منطقة عاصمة الدولة والأراضي المجاورة لها نشاطا مكثفا يتفق أغلب الجغرافيين على التنويه بأثاره مع زيادة الإنتاج[3].

فالإدريسي يقول عن هذه المنطقة بأراضيها مزارع وضياع جمة[4] وهو ما يتفق مع ما ذهب إليه العبدري[5] حيث قال: " إن الدائرة بالبلد كله مغروس بالكروم وأنواع الثمار" ويقول عنها الزهري: " كثيرة الفواكه والزرع[6]".

أما يحي بن خلدون فيقول عنها: "وبخارجها الخمائل الادفان والادواج والحدائق الغلب بما تشتهيه الأنفس وتلذ الاعين من فواكه الرمان والزيتون

1- المازوني المصدر السابق ج2 ورقة 38
2- ابن حوقل صورة الارض 87
3- الادريسي المصدر السابق ص 89
4- الادريسي نفس المصدر ص 87
5- العبدري الرحلة المغربية ص14
6- يحي ابن خلدون بغية الرواد ج1 ص90

والتين وتنصب إليها من أعلى جبالها أنهار من ماء غير أسن يسقى بساتينها خارجها ومغارس الشجر زمن نبت الحب".

وفي موضع آخر، يصف قطر تلمسان بقوله: " توسطت قطرا داكــور عديــدة يعمرها أمشاج البربر والعرب مربعة الجنابات منجبة الحيوان والنبــات كريمة الفلاحة، زاكية الإصابة، ربما انتهت في الزوج الواحد منـــها أربعمائة مد كبير"[1] وهو ستــون برشالــة[2] زنتــها ثلاثــة عشر رطلا حسبما تضمّــن ذلك رسم سنة758[3].

وإذا كانت هذه الأراضي الأنفة الذكر غنية من حيث الإنتاج فهناك أراضي تندرج ضمن هذه المنطقة فقيرة نتيجة لعدم صلاحياتها وهو ما يؤكده الحسن الوزان بقوله: "أما الأراضي القريبة من تبحريت فهي حصرية وهزيلة لا ينبت فيها إلاّ قليلا من الشعير والذرة والاشتغال بها"، مما دفع بالفلاحين إلى أحياء الموات فقد تطورت تلك الأراضي منذ عهد الرستميين حيث يتفق كــل الجغرافيين تقريبا على أهمية تلك المنطقة، فيذكر الاصطخري أن كــورة تيهرت خصبة، واسعة البرية والمزارع والمياه.

ويصفها الإدريسي فيقول: "إن تيهرت بلخ المغرب قد أحدقت بها الانهار وغابت في البساتين ونبعت حولها الأعين"[4]، وإلى الشرق منها سهل البطحاء الذي يتميز بجودة أراضيه، لكن كثرة الصراعات التي عاشتها المنطقة خاصة بين بني عبد الوادي والحفصيين وبينهم وبين القبائل البربرية مثل مغراوة

1- المد هو مكيال ومقداره رطلان أو رطل وثلث أوملء كف الانسان المعتدل انظر البخاري الجامع1 الصحيح ج 2 ص 23.

2-البرشالة تساوي اثناعشر أوقية انظر الوزان ص 104، 414.

3- مسالك الابصار إيدن 1967 ص39.

4- احسن التقاسيم ص228 ابن خلدون العبر ج7 ص186 1

وبني توجين لها تأثير سلبي على الإنتاج، حيث أن مدينة البطحاء تعرضت إلى انهيار، فهجرها السكان مما جعل أراضيها تبقى غير مستغلة لفترة من الزمن[1].

إن سهل البطحاء[2] يعتبر من المناطق الجيدة، حيث كانت تمول مدينة وهران بالمواد الغذائية عند احتلال الاسبان لها وأن الهجوم على قلعة بني راشد كان يندرج في إطار رفع الحصار على تمويل وهران لأن التواجد العثماني بالقلعة حال دون وصول المواد الغذائية لوهران والمرسى الكبير[3].

والأراضي التي تندرج ضمن سهل الشلف تعتبر في رأينا من أجود الأراضي[4] خلال عهد الدولة الزيانية لأن جزءا منها كان مستغلا وحتى في فصل الجفاف لوفرة المياه بنهر الشلف والمازوني يشير إلى الري من مياه الشلف خلال فصل الجفاف، وكذلك أراضي سهل متيجة كانت هي الأخرى مستغلة خلال عصر الدولة الزيانية. حسب ما يذكره العبدري.

أما الحسن الوزان، فقد تعرض هو الآخر إلى سهل تسالة[6] فذكر أنه كان يمدّ تلمسان بالحبوب خلال فترة الدّراسة، وحتى سفوح الجبال كانت تستغل هي الأخرى في إنتاج الحبوب إلا أنها تتميز بقلة الإنتاج

1- الحسن الوزان، المصدر السابق ص401.

2- توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة 1492-1772 ص236.

3- صورة الأرض ص78، الادريسي المصدر السابق ص105.

4- وصف افريقيا ص405، عن أراضي متيجة انظر المقديسي المصدر السابق ص20

5- العبدري الرحلة ص16.

6- كانت هناك قرية تعرف بتسالة توجد على بعد مائة وعشرين كلم على تلمسان وكانت خلال عهد الدولة الزيانية مهمة ثم انهارت.

ويذكر الوزان بالنسبة لجبل متغارة[1] أنه: "لا ينبت فيه من الحبوب سوى الشعير وكذلك جبل ولهاصة[2] الذي ينمو فيه الشعير بكمية قليلة، أما منطقة تيهرت فقد اشتهرت بزراعة الحبوب لكثرة مياهها وبرودة مناخها ووقوعها ضمن التلول الصالحة للزراعة ويسوق لنا أبوزكرياء عن أبي مرداس أحد شيوخ جبل نفوسة والذي كان قد تعوّد الذهاب إلى تيهرت في فصل الحصاد وكانت عادته فيها أنه إذا حصد الناس زرعهم، ولقّط اللقاطون السنابل الساقطة ورعوا مواشيهم فيها، لقط عولة السنة فيها".

وهذا النص بالرغم من أن صاحبه قد عاش قبل قيام الدولة الزيانية فإنه يمكن أن ينطبق على عصرها، كما يوضح لنا كثرة الاهتمام بزراعة الحبوب في منطقة تيهرت لدرجة أن الحصّادين واللقاطين والرّعاة بمواشيهم يتركون في الحقول ما يكفي عولة الناس لمن تبقى من اللقاطين فلا معنى لهذه الرواية غير كثرة الحقول المزروعة بالحبوب مثل القمح.

أما حوض شلف فيتميز بوجود مجموعة من المحاصيل منها القمح والشعير والحنطة فمليانة والأراضي المحيطة بها مثل سهول عين الدفلى وسوق الخميس، كانت تنتج هذه المحاصيل.

يضاف إلى هذا، سهول صغيرة غنيّة بالحبوب تتمثل تلك المناطق في أراضي مزغران ومستغانم وساحل برشك[3].

1- متغارة هي الكتلة الجبلية فيلاوست حاليا والتي ترتفع على مستوى سطح البحر بـ1156 وتقع مدينة ندرومة في سفوحها، انظر وصف افريقيا ص414.

2- جبل ولهاصة يقع جنوب ارشقول، انظر الوزان ص 415.

3- البكري صفة المغرب ص86،89.

وفي المناطق الجبلية مثل جبل بني بوسعيد[1] ومغراوة فقد ذكرهما الوزان بقوله وبيّن دورهما في إنتاج الحبوب وكذلك أراضي متيجة التي قال عنها الوزان[2]: " ينتج بها كمية هامة من الحبوب".

- الـــفـــواكـــه:

ازدهرت غراسة الأشجار بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني بفضـــل مـــا لقيته من عناية واهتمام فقد كان السكان يعتنون بالبساتين ويغرسون فيها أنواعا مختلفة من الفواكه[3].

فمنطقة تلمسان فيها الأعناب من كل الأنواع وكذلك بقية الثمار[4] وهي كثيرة الفواكه الزروع ومن فواكهها الرمّان والتين والزّيتون، وصفها الحسن الوزان بقوله [تنتج أعنابا من كل الأنواع ذات نـكهة رائعة وكرز من كل نوع،وتين شديد الحلاوة أسود اللون، كبير الحجم، طويل جدا يجفف ليؤكل، وأغلب أشجار التّين بالأرياف القريبة منها فقد كانت بها بساتين كثيرة، كان السكان يجففون التين ويصدرونها إلى مختلف المناطق وهو ما يؤكد القلقشندي[5] بقوله: "الذي ينقل من مسالك الأبصار للعمري فقد ذكر من بين فواكه الدولة الزيانية، التين والعنب والرمان والتفاح على أصنافه والكمثري والمشمش

1- جبل بني بوسعيد هو الجبل المطل على مدينة تنس ولا يزال لحد الآن مسكون من قبل المغراويين الوزان ص 400.

2- وصف افريقية ص 404 ؛405

3- الرحلة ص 16

4- الزهري كتاب الجغرافية ص 96

يحيى بن خلدون بغية الرواد ج 1 ص 198

الوزان وصف افريقيا ص 397

5- صبح الاعشى ج 5 ص 176

والبرقوق والخوخ والجوز واللوز والليمون والنارنج والبطيخ الأصفر والأخضر كما تعرض السلاوي إلى فواكه الدولة الزيانية خلال تناوله حصار تلمسان سنة698؛1298/707؛1307 فقال: "الواحدة من الفاء والفقوس بأربعين درهما والحبة من التين والإجاص بدرهمين[1]".

يتجلى من النصوص السابقة أن الفواكه الموجودة بالأراضي المحيطة بمدينة تلمسان لا تختلف عن ما هو موجود الآن.

أما الناحية الممتدة ما بين هنين وتلمسان فكانت هي الأخرى تنتج كمية هامة من الفواكه فقد ذكر الحسن الوزان من بينها الكروم والمشمش والتفاح والكمثري والدراق ومقادير لاتحصى من التين ولكن ليس هنالك من يقطفها[2].

وأما تيهرت فيشير ابن حوقل[3] إلى فواكهها فيقول: "تنتج ضروبا من الغلات ويصفها المقدسي فيقول: إن تيهرت بلخ المغرب، قد أحدقت بها الأنهار والتفت حولها الأشجار وغابات في البساتين ونبعت حولها الأعين ولكن البكري هو أدقّ من وصف فواكه تيهرت وأحوازها إذ يقول: "بها من الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الأفاق حسنا وطعما ومشما وهو يسمّى بالقارس.

من بين الأراضي المنتجة للفواكه تنس التي أشار إليها البكري فقال عنها: "بها السفرجل المعنق ما أزال أحكيه لحسنه ونعمته وحلاوته وطيب رائحته".

كما توجد الفواكه بالأراضي المحيطة بسوق ابراهيم وقلعة هوارة المعروفة اليوم بقلعة بني راشد التي تحتوي على الكثير من الأشجار المثمرة وكذلك العنب.

1- ابن خلدون العبر ج 7 ص 198 يحيى بن خلدون بغية الرواد ج1 ص 10
2- الاستقصاء ج 3 ص 216 نقلا عن ابن خلدون العبر ج 7 ص 198
3- المازوني المصدر السابق ج 2 ص 27 انظر حاجيات المرجع السابق ص 57

وأما تنس وشرشال وبرشك فكانت بها فواكه حسنة منها السفرجل المعنق كالقرع والأعناب وأشجار الزيتون كانت تغطي جزءا هاما من أراضي الدولة الزيانية والدليل على ذلك ازدهار تجارة الزيت مع البلدان الأوروبية حسب مــا أوردته وثائقها ومصادرها ومن بين الذين كتبوا عن هذه الأشجار بسلار[1] من خلال بحثه في وثائق أوقاف بني زيان حيث اورد بساتين الزيتون كانت أوقاف على المساجد والمدارس والأضرحة وقد تعرض القلقشندي[2] هو الآخر لأشجار الزيتون بالمناطق القريبة من تلمسان كما توجد أشجار اللوز والجوز بالجبل المطل على مدينة مليانة وهو جبل زكار فخلال عهد الوزان لم تجد تلك الأشجار من يقطف ثمارها ولعلّ السبب، هجرة السكان نتيجة لانعدام الأمن كما حدث خلال العشرية السوداء، والكروم المحيطة بأراضي مدينة الخضراء وبني وريفن وهو ما يعرف اليوم بولايه عين الدفلة، فالمنطقتان المذكورتان تقعان على نهر شلف الذي لا يزال لحد الآن يشتهر بهذا النوع من الزراعة وعلى الخصوص التطور الذي عرفه بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر وإقبال المعمرين على زراعة الكروم لكثرة طلب الأسواق.

ومن بين المناطق التي تزرع بالكروم، ناحية وجدة وهنين التي كان سكانها يزيّنون بها بيوتهم وهو ما يؤكده الوزان بقوله: "كان لكل بيت بئر من الماء وصحن مزين بحاملات الكروم كما كان يغرس الكروم بالعزيزة القريبة من المسيلة التي بلغ القنطار الواحد من العنب بدرهم400[3].

1- صبح الاعشى ج 5 ص 150.

2- وصف افريقيا ص الادريسي المصدر السابق ص 86.

3- وصف افريقيّة ص 400

وفي الواحات الجنوبية نجد إنتاج التمور التي تصدر نحو المناطق الشمالية وخاصة موانيء الدولة الزيانية ومن هناك يتم تصديره إلى أوروبا.

- الخضـــر :

تتوفر زراعة الخضر في أغلب المناطق التابعة للدولة الزيانية وخاصة على ضفاف الأودية فقد ذكر القلقشندي[1] من أنواع الخضر الجزر واللوبية والكرنب والخيار والقثاء واللفت والبادنجان والقرع وقصب السكر ويذكر المازوني[2] البصل الذي يغرس في أحواض.

- القـطــن :

يعتبر القطن من بين المحاصيل الزراعية الهامة التي أدخلها العرب لبلاد المغرب ومنها انتقلت زراعته لأغلب مناطق الدولة الزيانية لما له من أهمية خاصة في صناعة النسيج[3] وهو ما يؤكده الحسن الوزان بقوله فيما يتعلق بمدينة ندرومة فيقول عنها: " تبدو ندروسة الآن مزدهرة بانتاج القطن لأن الصناع كثيرون بها وتصنع بها على الخصوص أقمشة القطن الذي ينبت بالمنطقة وكذلك الأراضي المحيطة بمدينة مستغانم التي كان يبذر في أراضيها فيجود[4]".

1- صبح الاعشى ص 118 ج5

2- وصف افريقية ص 386

3- عن القطن وانتقاله إلى الاندلس انظر عثمان الكعاك الحضارة العربية في حوض البحر الابيض المتوسط ص74

المازوني المصدر السابق ص ورقة 46

4- وصف افريقية ص 386

ومن بين المحاصيل الصناعية الكتان الذي وجهت له العناية فكان يزرع بكثرة حول مدينة تيهرت،وعلى وادي شلف وناحية برشك بين الداموس وشرشال حاليا.

ومن المحاصيل الزراعية الحنة والكمون وقد انتشرت زراعتها في مناطق مختلفة من أراضي الدولة نذكر منها على الخصوص قرية بني وريفن التي تبعد عن مدينة تنس بمرحلة فسكانها يزرعون الحنة والكمون على نهر شلف.

- الثـــروة الحيـــوانـــية

كانت تربية المواشي في بلاد المغرب الاوسط تقوم جنبا إلى جنب مع الزراعة فلا داعي إلى القول ان المناطق الزراعية التي سبق لنا التعرض لها من قبل كانت مناطق رعوية إضافة إلى كونها زراعية فالمزارع غالبا مـــا يعتمد على المحصول الزراعي مقرون بالمنتوج الحيواني اذ يعتبر كله مـــن انشطته واهتمامته.

وتشير الدراسات الحديثة إلى أن أراضي الدولة الزيانية كانت في فترة مـــن فترات تاريخها مرتعا ومرعى لمختلف الحيوانات وخاصة الغنم والحمير والخيل وتزاول من طرف القبائل التي توجد مضاربها ضمن محيط الدولة مثـــل بني توجين الذين كانوا يتنقلون مع مواشيهم في المنطقة المحصورة مابين جبل السرسو ومنطقة الزاب[1].

وبنو راشد بجبل عمور يهتمون بتربية المواشي ومنه انتقلوا إلى المناطق الشمالية حيث يتوفر الماء والكلاء لمواشيهم[2] على الخصوص القلعة الآن ومـــا جاورها من أراضي ولاية غليزان ومغراوة. ذكرت المصادر التاريخية أنهـــم

1- ابن خلدون اعبر ج7 ص

2- نفسه مجا7 ص 321

كانوا يهتمون بتربية المواشي وأشار إلى ذلك ابن خلدون عند تعرضه لهجوم أبي ثابت الزياني على مضاربهم وقال عنهم: " انهم تركوا زعيمهم وفروا بمواشيهم إلى الجبال المجاورة لتنس وهي جبال الضهرة حاليا"[1].

وأمّا بنو النضير بن عروة فقد كانوا يتنقلون مع مواشيهم بين مناطق التل والواحات ونفس الشيء بالنسبة لبني عامر[2] الذين كانوا يتمركزون في قرى نهر واصل وفي فصل الخريف يتوجهون إلى وادي ميزاب واستمروا على هذه الرحلة حتى عهد الحسن الوزان الذي قال عنهم: " أنهم يتوجهون نحو المناطق الصحراوية".

وكذلك ذوي عبيد الله الذين يقومون بالرحلة مع مواشيهم بين قصور توات وغرب تلمسان وربما توغلوا حتى وصلوا إلى تيكرارين[3].

هذا فيما يتعلق بالقبائل التي تهتم بتربية المواشي وإذا حاول الباحث توزيع مناطق تربية المواشي نجد أن المنطقة المحصورة بين تيهرت والمسيلة كانت غنية بتربية المواشي خلال عهد الادريسي وأن الذين كانوا يقومون بهذا العمل هم قبائل زناتة مغراوة وبني راشد وبني عبد الوادي وبني مرين وهو ما يؤكده ابن خلدون بقوله هذه القبائل ضواعن ينتجعون من مكان إلى آخر وأكثرهم فرسان يركبون الخيل وهؤلاء الذين ذكرهم الادريسي هم الذين أسّسوا دول المغرب الإسلامي بعد سقوط دولة الموحدين ولم يتخلوا عن تربية المواشي وأن أشهر الأغنام هو ما يعرف بالمريني نسبة لهذه القبيلة.

1- نفس المصدر ص251

2- نفسه مجا6 ص 116

3- نفسه مجا6 ص 105

وعن جبل بني راشد يقول الاصطخري والادريسي يذكر تيهرت فيقول عنها: "تشتهر بإنتاج البرادين والخيل من كل حسن وأما البقر والغنم كثيرة جـدا والعسل والسمن فلا غرابة أن تتبوأ تيهرت هذا الدور في النشاط الرعوي إلـى جانب دورها الزراعي.

ولعل ازدهار تربية المواشي ترجع بالدرجة الأولى إلى أن موقعها كـان ملتقى القبائل الرحل في فصول معينة من السنة.

فابن الصغير يخبرنا على أن قبائل مزاتة[1] وسدراتة[2] وغيرهم كانوا يتجمعون في أشهر الربيع بتيهرت وأحوازها لما فيـها من الكـلأ وغيـره، ولا شك أن هذه هي الصفة الرعوية لتيهرت.

بلد أغلب منتوج أهله تربية المواشي كالخيول وقد حافظوا على ذلك بعد انتقالهم إلى قلعة بني راشد في القرن السابع الهجري الثالث عاشر الميلادي.

وما يقال على هذه المنطقة ينطبق على حوض شلف لأن بني توجين قـد انتقلوا إليه واستولوا على أغلب أراضيه وظلوا محافظين على تربية المواشي شأن أهل النجعة منهم شأن العرب.

أما اليعقوبي فيقول عن تيهرت: "هو بلد زرع وضرع"، وابن حوقل[3] يؤكد ذلك فيقول عن تيهرت وأحوازها:" هي معادن الدواب والماشية والغنم والبرادين الفارعة".

1- عن مزاتة ابن خلدون العبر مجا 6 ص 235

2- وعن سدراته نفس المصدر مجا 7 ص 296

3- نفسه مجا 6 ص 105

والادريسي يذكر تيهرت، فيقول عنها:" تشتهر بإنتاج البرادين والخيل من كل حسن"، وأمّا البقر والغنم كثيرة جدا والعسل والسمن فلا غرابة أن تتبوأ تيهرت هذا الدور في النشاط الرعوي إلى جانب دورها الزراعي.

ولعل إزدهار تربية المواشي ترجع بالدرجة الأولى إلى أن موقعها كان ملتقى القبائل الرحل في فصول معينة من السنة.

استمرت بعد ذلك فقد وصف صاحب كتاب الاستبصار بقوله: "تيهرت كثيرة الغنم طيبة المرعى ومنها تجلب الأغنام إلى بلاد المغرب وبلاد الاندلس لرخصها وطيب لحمها".

وأن انخفاض أسعار اللحوم راجع بالدرجة الأولى إلى تربية المواشي خلال العهد الموحدي والعهد الزياني فيما بعد، حيث أصبحت القبائل تقوم بتربية السلالات الممتازة من الخيول العربية الأصيلة والمغربية الرشيقة الخفيفة.

وما زاد في تربية المواشي بها أنها خلال عهد الدولة الزيانية أصبحت مواطن لبني هلال الذين أعطوا أهمية كبيرة لتربية المواشي لحد الآن وعلى الخصوص الأبقار والخيول وكذلك الحال بقلعة بني راشد التي لاتبعد كثيرا عن تيهرت ووهران التي يقول عنها الادريسي[1]: " ووهران السمن فيها موجود والزبد والبقر والغنم بها رخيصة بالثمن اليسير"، وقد كانت مركز تصدير المواشي ومشتقاتها كالجلود والصوف ونعتقد أنها بقيت محافظة على إنتاج المواشي وعلى الخصوص عندما استولت القبائل العربية على المناطق المجاورة لها مثل بني عامر وسويد.

1- الوزان المصدر السابق ص 400

وما يقال على هذه المنطقة التي تقطنها قبائل بني توجين أيضا مضارب مغراوة التي تمتد من ضواحي الجزائر ولا تزال إحدى المناطق بها تعرف ببني منديل نسبة إلى شيخ مغراوة إلى شرشال ومازونة فهناك إشارات كثيـــرة من قبل الرحالة تعرض لاهتمام السكان بتربية المواشي فالادريسي[1] يقول عـــن شرشال: "بادية لأهلها مواشي وأغنام كثيرة يصدر منها، وعـــن برشك المجاورة لها أشار ابن حوقل فقال: " برشك يهتم أهلها بتربية المـــواشي[2]".

وأما المنطقة المحصورة بين برشك ومازونة فكانت هي الأخرى من بين المناطق التي يعتمد سكانها على تربية المواشي ودليلنا على ذلك أنها كانت غنية بإنتاج الصوف وعلى الخصوص صوف مستغانم ومزغران وسكان جزائر بني مزغنة[3] والأراضي المجاورة لها فكانوا يهتمون بتربية الأغنام والأبقار لوفرة الكلأ والماء بسهل متيجة.

لما كانت القبائل الزناتية والعربية يتعشقون الفروسية فقد ربطت هذه العلاقة الحيوية بينهم وبين خيولهم برباط من التآلف والتعاطف حتى نجد عمر بن العاص في مصر يستعرض الخيل كما يستعرض الجيش وحتى سلاطين الدولة الزيانية كانوا يوجهون عناية كبرى لتربية الخيول حيث كان الفرسان

1- صفة المغرب ص 89
2- ابن حوقل صورة الارض ص 78
5- الادريسي نفس المصدر ص 83
3- الادريسي المصدر السابق ص 89

يستعرضون خيولهم أمامهم مثل ماحدث في عهد السلطان يغمراسن بن زيان وابي حموا موسى الثاني[1].

وقد تطورت تربية الخيول بالمغرب الأوسط على النحو التالي:وأول من أظهر الاهتمام بها عبد المؤمن بن علي مؤسس الدولة الموحدية الذي أمر باستجلاب الخيل له من جميع المناطق بالعدوتين الافريقية والاندلسية[2]، فقد أمدت افريقيا في سنة1170/566 ابنه يوسف بأربعة آلاف فرس.

أما تلمسان فأمدته بألف فرس، وصفها ابن صاحب الصلاة بقوله: «الخيل العراب العتاب الاحساب المدية عند الاعراب[3] وقد تعلم البربر من العرب الاهتمام بالخيل بذلك ما روي أن الموحدين طلبوا من المكلفين بنقل الخيول إلى الأندلس أن يأخذوا أنفسهم ومن معهم بالرفق والمشي واللحاق والمحافظة على الخيل العتاق»[4] ومما يدل على إهتمام الموحدين بالخيل في المغرب الإسلامي من برقة إلى تلمسان[5] عندما استقرت بها بقايا رياح والخلط وسفيان والاثبج وزحف اليها عرب المعقل وزغبة وانتشروا في بواديها وأوديتها ونقلوا معهم الخبرة العربية في تربية الخيول وتحسين أنسابها حتى اشتهرت بالخيول الفزارية نسبة إلى بلاد فزار، وهي بطن من زناتة تقع بتادلة[6] ومنهم قبائل جبل راشد عمور الذين كان لهم انتاج من الخيول[7].

1- ابن خلدون العبر مجا 7 ص 171 بغية الرواد ج 1 ص 114
2- علي بن عبد الرحمن المرجع السابق ص 152
3- المن بالامامة ص 215، 418
4- ابن عذاري البيان ج 4 ص 364 ابن ابي زرع روض القرطاس ص 87
5- السلاوي الاستقصاج 1 ص 201 ابو ضيف نفس المرجع ص 311
6- ابن عذاري نفس المصدر ج 4 ص 381
7- ابن الخطيب اعمال الاعلام ق 3 ص 168

وأصبحت تربية الخيول مزدهرة، لأنها من بين السلع التي زاد عليها الطلب من قبل تجار أوروبا فالحسن الوزان يذكر أنها كانت بإيطاليا وتعرف بالخيول البربرية وكذلك كما أصبحت تشكل الهدايا المفضلة إلى الملوك المسلمين في المشرق والمغرب ومنها هدية المرينيين إلى المماليك بمصر وخاصة بعد سيطرتهم على أراضي الدولة الزيانية خلال عهد السلطان يوسف أي يعقوب وأبي الحسن المريني، مما يجعلنا نؤكد من أن جزءا هاما من إنتاج القبائل التي كانت تابعة للدولة الزيانية وقد بلغت في عهد أبي الحسن أربعمائة فارس من الخيل العتاق المسومة المعلمة.

وقد كان حرص ملوك مصر الاستزادة من خيول بلاد المغرب شديد لما امتازت به من القوة والصبر على المتاعب والسرعة الفائقة من ذلك ما روي أن السلطان برقوق كلف ابن لدون بعد استقراره بمصر بالكتاب إلى سلطان تونس فأرسل له خمسة من الخيول.

لكن يبدو أن هذه الهدية لم ترق في عين برقوق لقلة عدد الخيل كذلك كلّف يوسف بن علي زعي اولاد حسين من عرب المعقل أثناء عودته من الحج أن يزوده بأكبر عدد من الخيل العربية الأصيلة فلما أبطأ عليه أرسل مملوكه المكلف بتربية الخيول أن يذهب إلى المغرب للشراء ما شاء[1].

وفي أثناء الطريق تقبّل مع هدية السلطان أحمد بن أبي سالم المريني كما أضاف له السلطان ابو زيان الثاني ثلاثين من الجياد وكذلك سلطان تونس فأصبحت جملتها خمس وتسعين فرسا اختارها للتهجين والتولي بالديار المصرية[2].

1– المقري نفح الطيب ج6 ص132 أبو ضيف نفس المرجع ص312

2– ابن خلدون العبر ص340 :345 القلقشندي المصدر السابق ص583 ج

وقد اعتمدت دولة بني عبد الوادي على عبد الله بن كندور[1] في إدارة مراعيها وانتجاع إبلها ورواحلها ورغم إنتمائه إلى زناتة إلاّ أنه عين الاشراف الأسند إليه لحسان بن أبي سعيد الراعي الأكبر وكبير صبيح من عرب سويد وأخيه موسى بن ابي سعيد[2].

ومما يدل على مهارة هؤلاء العرب في تربية الخيول والإبل، أنه بعد مـــا ساءت العلاقات بين عبد الله بن كندوز وبني عبد الوادي لجأ مع أخويه حسان وموسى إلى المرينيين فأسندوا اليه النجاع الابل والرواحل، مما يدل على أنهم لهم خبرة بذلك متوارثة من الخلف عن السلف[3].

وبفضل هؤلاء كانت المراعي الخصيبة في الدولة الزيانية تستغل أحسن استغلال من ذلك ما أورده مؤلف الاستبصار عن وجدة حيث يقول: "مراعيها أحسن المراعي وأصلحها للماشية".

الأبقار :

كثرت تربيتها بالمناطق الشمالية من بلاد المغرب الأوسط، حيث المراعي الدائمة الخضراء، لأنها تتطلب الأعشاب الكثيرة والأراضي المستوية الخالية من السفوح الشديدة الانحدار وتتميز أبقار الدولة الزيانية بالقامة المتوسطة مما جعل الحسن الوزان[4] يقارنها بالعجول في ايطاليا حين تعرض أبقار المغرب

1- يعتقد أبو ضيف أن هناك علاقة بين عبد الله بن كندور كمتولي لرعايا الابل واطلاق لفظ كندوز على أنواع من اللحم مع الملاحظة أنها تعني اللحم القوية الصلبة انظر أبو ضيف المرجع السابق ص 313

2- ابن خلدون العبر مجا 7 ص 345 السلاوي الاستقصا ج 2 ص 125 2

3- مؤلف مجهول الاستبصار ص 177

4- وصف افريقية ص462

وقد زاد الاهتمام بها خلال عهد الدولة الزيانية لأن ذكورها كانت تستخدم في الزراعة[1] وجلودها كانت تدبغ وتصدر إلى أوروبا حيث كان الإقبال عليها كثيرا.

من بين المناطق المنتجة للأبقار التي تعرضت لها كتب الرحالة جزائر بني مزغنة[2] وتيهرت[3] وكذلك أراضي مطماطة[4] التي كانت تقع على أراضي وادي ملوية إلا أنه يبدو لي أن أغلب أراضي الدولة الزيانية، خاصة حول المدن خاصة تلمسان ووهران وقلعة بني راشد ومستغانم كان سكانها يهتمون بتربية الأبقار لوفرة الكلأ بتلك المناطق.

- الأغنام

تشتهر أراضي السهوب بتربية الأغنام أو الضأن التي تعيش في شكل جماعات أو قطعانا ويعيش مع القطيع أفراد من المعز ليقوده إلى المرعى.

والأغنام تتألف من صنفين، ولعل ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى تأثير قبائل بني هلال التي استقرت في المناطق التي لازال لحد الآن سكانها يهتمون بتربية هذا النوع من المواشي ويتبعون نفس الطرق التي كانت سائدة خلال عهد الدولة الزيانية، أي الانتقال بالأغنام في رحلة من الشمال إلى الجنوب فيكونون في فصل الشتاء في الهوامش الشمالية للصحراء وفي فصل الصيف ينتقلون بقطعانهم إلى السفوح الجنوبية لسلسلة الأطلس التلي.

1- الدباغ معالم اهل الايمانج 4 ص 44 ؛45.
2- ابن حوقل صورة الارض ص 76 ؛85 ؛86.
3- البكري المغرب ص 147.
4- حليمي عبد القادر جغرافية الجزائر ص 217.

- التجـارة الـداخـلية

* طبقـات التجـار:

الدارس لحياة الدولة الزيانية الاقتصادية وعلى الخصوص ما يتعلق بالمبادلات التجارية يلاحظ تعدد الأنشطة التجارية لاختلاف مقادير رؤوس الأموال والوضع الاجتماعي لأصحابها والطريقة التي يستثمرون بها أموالهم فضلا عن تباعد مراكز الإنتاج والاستهلاك وما يتطلبه ذلك من الانتقال.

هذا لا يقتصر على الدولة الزيانية فقط، بل أغلب دول المغرب الإسلامي، ويستطيع الباحث بالنسبة إلى فترة موضوع البحث ابراز ثلاث مجموعات مختلفة بين تجار الدولة من حيث القدرة على الاستثمار.

- أ: **المجموعة الأولى:** وتتشكل من التجار الصغار الذين يشترون رأس مال لايتجاوز مائتي دينار[1] ويزاولون التجارة بمفردهم وأغلب هؤلاء يكونون، إما تجارا مقيمين مستأجرين للدكاكين والمتاجر من كبار الملاك أومن الأحباس، أوتجار متجولين[2] وقد أورد المازوني[3] مجموعة من النوازل تتعلق بهؤلاء، وبين لنا بأنهم كانوا يخرجون إلى القرى لبيع سلعهم لسكانها ومن بين هؤلاء القبائل العربية كبنيعامر الذين عملوا تجارا متجولين خلال فترة موضوع البحث وقد عرفوا بالمغاطيس لأنهم كانوا يقومون ببيع السلع من جهة والتجسس لصالح الاسبان من جهة أخرى.

1-الونشريس: المعيار، ج6، ص 103.

2- الونشريس: المصدر السابق، ج8، ص 113.

3- المازوني: الدرر المكنونة، ج2، ورقة 76.

- ب: **المجموعة الثانية** هي التي يمكنها توظيف ما بين مائتي دينار وخمسمائة وتختلف عن الأولى وبذلك تكون حركتها أوسع كالانتقال من مدن الدولة الزيانية وأسواقها، كما تشارك في عملية المبادلات بين تجار الدولة والدول الأوروبية الذين يتوافدون على أسواقها[1].

- ج: **المجموعة الثالثة** تعتبر من أكبر الفئات من حيث الاستثمار فأغلب أفرادها يتعاملون في المبادلات التجارية الدولية كالقيام بالرحلات نحو السودان الغربي واحسن ما يمثلها الأخوان[2] المقري الذين كانوا يحتكرون تجارة الذهب ويملكون وكالات في الواحات الصحراوية في البلدان الإفريقية .

وتتميز هذه الفئة عن غيرها وأن أفرادها يزاولون التجارة بأنفسهم أوبواسطة مواليهم وعبيدهم، لم يكن النشاط التجاري مقتصرا على هذه المجموعات فقط بل كان فقهاء الدولة، وعلماؤها يزاولون التجارة ومن يمثل هؤلاء حسن تمثيل الاخوى المقري كما أشار المازوني إلى العقباني بأنه عاد من سجلماسة وهي إحدى المراكز التجارية التي لها علاقة بالسودان، لذا يبدو لي أن انتقاله إليها كان لغرض التجارة[3] وفي بعض الحالات لجأ هؤلاء الفقهاء إلى استئجار الوكلاء لكي يقوموا بأعمالهم التجارية، فكان الوكيل يسافر بالسلع إلى السودان الغربي أو بلاد الشرق الإسلامي. وحتى البلدان

1- من أبرز الأسواق القيصرية في تلمسان التي تعتبر من أهم الأسواق التجارية التي يتم فيها التبادل بين كبار تجار تلمسان والدول الأوروبية.

2- المقري: نفح الطيب، ج3، ص 111 - 116.

3- العقباني: تحفة الناظر ، ورقة 107.

الأوروبية فقد أورد الونشريسي[1] نوازل تتعلق برحلة التجار إلى صقلية وكيفية تبديل العملة المغاربية مع العملة السائدة بها.

ومن الوكلاء من كان يختص بتاجر واحد، والبعض منهم بعدد من التجار حيث يستقبلون سلعهم بالموانئ، ثم ينقلونها بعد ذلك إلى المدن الداخلية، ومما يؤكد ذلك أن عبد المؤمن قال: "أنه رافق تاجرا اسكندرانيا من تلمسان إلى فاس وكان التاجر قد اكترى الدواب في تلمسان لنقل سلعته إلى فاس فنقص له خمسة عشر دينار أسلفه إياه عبد المؤمن"[2].

وهذا العمل استمرّ حتى عهد الدولة الزيانية ولهذا يبدو لي أن هناك بعض الناس كانوا يقومون بكراء الدواب للتجار لنقل سلعهم و يرافقونهم إلى المدن التي يتجهون إليها وعند عودتهم يحملون السلع لتجار آخرين في طريق عودتهم.

- الأمـــــن:

يضاف إلى وجود فئات من الناس يقومون بكراء الدواب إلى التجار نجد القوافل تحتاج إلى من يحرسها لكثرة قطاع الطرق وعلى الخصوص في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة وهو ما يؤكده المازوني[3] بقوله:

" ســئل أبو الفضل العقباني عن موضع كان خاليا وهو في قارعة الطريق وكانت القبائل الموجودة به يقطعون فيه على المسافرين أخذت فيه أموال كثيرة حتى لا يقدر أحد على جوازه[4]".

1- الونشريسي: المعيار ، ج8 ، ص 237.
2- ابن عذاري: المصدر السابق ، ج5 ، ص 237.
3- المازوني: المصدر السابق ، ج2 ، ورقة 110.
4- الحسن الوزان: المصدر السابق ، ج9 ، ص 10.

ولمواجهة انعدام الأمن كانت الدولة الزيانية تكلف القبائل العربية بحراسة المسالك التجارية وعلى الخصوص ما بين تلمسان وفاس وسجلماسة والواحات الصحراوية كتوات وإقليم وادي الساورة.

- طرق التعامل في التجارة الداخلية:

شهدت الأسواق تطورا كبيرا في التجارة الداخلية، لأن أراضي الدولة الزيانية تحتل موقعا استراتيجيا هاما وعلى الخصوص مدينة تلمسان التي تتحكم في الطرق التجارية الهامة مما جعلها تمتاز بالثراء والرفاهية. قد أشار البكري إلى توافد القوافل التجارية عليها من المناطق الصحراوية ومما يدل على غنى المدينة، أن الادريسي يرى أنها تعتبر من أهم المدن الأكثر غنى بعد مدينتي اغمات وفاس، إضافة إلى أنها كانت على علاقة تجارية خاصة مع المدن الأوروبية التي تربطها معها معاهدات تجارية.

تنوعت السلع داخل أسواق بلاد المغرب واشتهرت كل منها بنوع معين من المعروضات. فالبعض اختص بالتجارة في المحاصيل الزراعية والبعض الآخر في المنتوجات الحيوانية والآخر في المنتوجات الصناعية،وقد قام هناك تكامل بين الأسواق بواسطة تبادل السلع بين المدن والقرى، فمدن الدولة الزيانية كانت تعتمد على القرى لمد حاجياتها من المواد الغذائية والمواد اللازمة للصناعة،كما كانت المدن تمد أهل هذه القرى بالمصنوعات البسيطة لمد حاجياتهم.

لذلك كانت أسواق الدولة مرآة لحياتها الاقتصادية أو عنوانا لنشاطها التجاري والصناعي والاجتماعي أيضا وقد تشابهت أسواق هذه الدولة مع بقية الأسواق في مظاهرها تقريبا. وتنقسم تلك الأسواق إلى نوعين أسواق حضرية وأسواق ريفية:

فالأولى تقصدها مختلف القبائل في أيام معينة من الأسبوع يتزودون منها بما يحتاجون إليه من مختلف السلع والبضائع، حيث أن هذه الأسواق تمتلئ بالمنتوجات والمصنوعات المحلية المختلفة.

من بين هذه الأسواق سوق بني راشد الذي يعقد كل خميس ويعرف باسم اليوم الذي يعقد فيه، وقد أشار إلى ذلك كل من الادريسي والحسن الوزان، وهناك سوق كبير كان يعقد في القرن العاشر والسادس عشر بالقرب من مدينة البطحاء التي كانت قرب غليزان حاليا.

سوق ترنانة التي تقع على نهر شلف يعقد كل جمعة يقصده كثير من الناس لقضاء حاجاتهم.

سوق ريغة يقول في شأنه الادريسي كان يباع به ويشترى وتقضي الحوائج.

سوق ابراهيم وقد انشئت به مدينة تعرض لها الرحالة المسلمون وتعرف بسوق ابراهيم.

الأسواق التي تصحب الجيوش في غزواتها وفي هذه يقيم التجار أسواقهم قرب المجالات العسكرية وقد أشارت الوثائق الاسبانية إلى هذا النوع من الأسواق عند تعرضها إلى الحملة التي قام بها الكوديتي حاكم وهران على تلمسان سنة1543، فقد أقيم على الطريق الذي يربط وهران وتلمسان بتيفادا

قرب وادي يســـر[1] سوق اشترى منه الجند الاسبان ما احتاجوا إليه وعلى الخصوص الأحذية.

خلاصة القول أن الأسواق الأسبوعية كانت ولا تزال منتشرة في أغلب مدن الدولة وأريافها تحمل أسماء الأيام التي تنعقد فيها ذكر من بينها سوق ندرومة الذي كانت تقصده القبائل المجاورة للمدينة لبيع منتوجاتها الفلاحية من حبوب وأصواف وجلود وزرابي وبرانيس وحتى الأواني الفخارية!.

سوق المدية الذي يعقد يوم الجمعة وتقصده الكثير من الأعراش والقبائل وسوق الاثنين في مدينة البرواقية وسوق الأحد بسور الغزلان وسوق الاثنين بقصر البخاري، والسلع التي تباع بأسواق الريف حددها الحسن الوزان فقال عنها: "الحبوب والمواشي والكثير من الأقمشة ذات الانتاج المحلي وأشياء أخرى أقل قيمة كالحبال والسروج وغيرها من أجهزة الخيل".

- **أســواق المــدن**

أسواق المدن كانت أكثر تنظيما من أسواق البادية وأول من نظر في تنظيم الأسواق التجارية والصناعية في المدن الإسلامية الكبرى الخليفة الاموي هشام بن عبد المالك 868/65.

ومن المدن التي شملها الترتبب في بلاد المغرب الإسلامي القيروان من قبل والي إفريقية يزيد بن حاتم وامتد ذلك التنظيم إلى المدن المغربية والحديثة التي أنشاها المسلمون بعد القيروان مثل تونس وتيهرت وفاس ومراكش.

1- يقول ابن عذاري كان يزيد هذا حسن السيرة قدم إلى افريقية وأصلحها ورتب أسواق القيروان وجعل لكل صناعة مكانها انظر البيان المغرب ج1 ص68 انظر حسن حسني عبد الوهاب ورقات في الحضارة العربية بافريقية التونسية مكتبة المنار تونس ص 57 ؛58

ومن مزايا هذا التنظيم التخصص حيث نجد ان السوق بالمدينة مرتبط باسم السلعة التي تغلب عليها أو العمل الذي يتم فيه مثل سوق العطارين.

ولتجنب الفوضى في الأسواق يجمع المحتسب أصحاب كل مهنة في سوق متوقفة على نوع المواد التي تعرض فيها فكانت هناك سوق الحطابين يتوافد عليها الحطابون وأغلب هؤلاء كانوا يستعملون الحمير والبغال فكان تجمّعهم بالطرق يؤثر على المارة.

وهناك رحبات خاصة لبيع المواشي منها رحبة الغنم ورحبة الجمال أوالابل.

كان تجار المواشي في أراضي الدولة الزيانية يتعرضون للموالين والجلابين قبل وصولهم إلى السوق لشراء المواشي منهم وعندما يدخلون السوق يفرضون الاسعار التي يرغبون فيها وهذه الظاهرة استمرت إلى الفترات القريبة من عصرنا.

وهناك سوق خاص بالحبوب يتوافد عليه الفلاحون لبيع منتوجاتهم الفلاحية وكان قريب من السوق ومن الفلاحين الذين يتوافدون عليه فلاحوا تسالة وكان قريب من الجامع بتلمسان.

وقد اشار ابن مريم إلى رحبة الزرع في الاوقاف المحبوسة على جامع الرؤيا عند تعرضه إلى الدكاكين التي حبست على هذا المسجد، لأن رحبة الزرع بذلك المكان تعود إلى عصر بني زيان.

لم تكن سوق الحبوب مقتصرة على عاصمة الدولة فحسب بل وجدت في اغلب المناطق الغنية بانتاج الحبوب.

وتعتبر أراضي الدولة الزيانية من بين الأراضي التي كانت تصدّرالحبوب إلى الدول الاروبية مثل ايطاليا وميورقة.

سوق العطارين وهو خاص ببيع العطور وقد شكا العقباني والمازوني والونشريسي من كثرة توافد النساء عليه ومخالطتهن لتجّاره.

سوق الغزل ويقع جنوب المسجد الكبير بتلمسان حسب ما ذكره الفريد بـــل حيث يتوافد عليه النساء والرجال لشراء الخيوط الصوفية والقطنية وتردد النساء عليه يرجع بالدرجة الأولى إلى أن المرأة في الدولة الزيانية كانت تقوم في هذا الميدان بدور هام نتيجة للاقبال الكبير على المنسوجات من قبل التجار الأجانب.

سوق الخرّازين خاص بصنع الجلود كالأحذية حيث ذكر العقباني أن باعة الأحذية يشترون الأحذية بالجملة من الحذائين ثم يعودون لبيعها بالقطاي وهناك سوق عرف بسوق الجلد.

يضاف إلى أن أسواق تلمسان كانت مرتبطة بالحرف فنجد سوق الحدادين والسراجين والخرازين.

سوق النحاسين أي صانعي النحاس، وقد أشار العقباني إلى باعة النحاس الاصفر.

سوق السراجين وكان صنع السروج يتم بداخل المشور.

سوق البردعين تباع فيه البرادع التي تستعمل من قبل ملاكي الحمير والبغال.

سوق الخبازين يكون بالقرب من أفران الخبز.

سوق الحليب توجد به مجموعة من الدكاكين تزدان دكاكينهم بآنية مصنوعة في ميورقة وهم يشترون الحليب من الفلاحين صبيحة كل يوم ثم يوضع في أوعية من خشب مطوقة بالحديد تكون ضيقة عند فتحها وعريضة في قاعدتها، وبقية هذه الاواني مستعملة بعد سقوط الدولة الزيانية.

سوق النخّاسين خاص بتجارة العبيد من كل الاجناس الصقالبة والسودانيين

– سوق سيــدي بوجمعة

وهـــذا عنـــد تعرضـــه إلى الشيـــخ الإمام محمد الشريف المليـــتي قـــال: "ومن كرامته أنه سرق له لجام لبعض أضيافه، حيث دخل اللص إلى اسطبل الدار الذي وجد بابه مفتوحا فأخذ اللجام وذهب به لسيدي بوجمعة ليبيعه يـــوم الأربعاء فوجده رب اللجام في السوق فعرف لجامه و ازاله منه"[1]، يتجـــلى مـــن النص أن بعض المساكن في تلمسان كانت مزودة باسطبلات للدواب تربط بها دواب صاحب المنزل وضيوفه.

وأن اللصوصيـــة كانت منتشـــرة بالمدينـــة خلال هذه المـــدة نتيجـــة الاضطـــرابات التي عرفتها الدولة الزيانية وقد نبه إلى ذلك الرحالة المصري عبد الباسط خليل[2].

كما أشار ابن مريم[3] في ترجمته لهذا العالم أنه سرق له رداء من قبل أحد اللصوص وجده في درب اليهود عند يهودية كانت معروفة لديهم.

وأن هناك سوق أسبوعي بمدينة تلمسان هو سوق سيدي بوجمعة الآنف الذكر الذي يعقد كل يوم أربعاء من الأسبوع وتباع فيه أشياء مختلفة، ومن بينها حاجة الجياد كالسروج و المهاميز واللجم.

كما ذكر ابن مريم سوق آخر عرف بسوق منشار الجلد عند تعرضه لهجوم السلطان الحفصي أبي فارس فقال: "بأن القذائف التي استعملها كانت تصل إلى

1– ابن مريم: البستان ، ص 88.

2– عبد الباسط خليل: روض الباسم ، ص 130.

3– نبن مريم ، نفس المصدر ، ص 88

سوق منشار الجلد[1]"، ولكن ما يعاب عليه أنه لم يحدد لنا موقع سوق منشار الجلد بداخل تلمسان.

كما يوجد سوق خارج مدينة تلمسان، يعرف بسوق الدواب، حيث أن مربي الحمير كانوا يأتون لتلمسان لبيعها وعلى الخصوص من وجدة التي كان فلاحوها يربون حميرا تتميز بالضخامة وتباع في تلمسان بأسعار مرتفعة[2].

يضاف إلى هذه الأسواق، سوق ندرومة الذي كان يعقد يوم الخميس، حيث تباع فيه المواشي والأصواف والمنسوجات والأواني، الفخارية يقصده التجار من مختلف مدن الدولة الزيانية[3].

- القيصرية

تعتبر القيصرية[4] من أهم الأسواق في الدولة الزيانية حيث تحتوي على السلع الآتية من أروبا إلى موانئ الدولة الزيانية كوهران والمرسى الكبير وهنين ومزغران وتنس، تنقل منها إلى تلمسان حيث يزداد الإقبال عليها من قبل أهلها لارتفاع مستوى سكان عاصمة الدولة الزيانية وعلى الخصوص في العصر الذهبي، فيروى عن أبي حمو موسى أنه قال: "في شأن تهافت

1- ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر مولاي أبي الحسن ، ص 121.

2- الحسن الوزان: المصدر السابق ، ص

3- ابن مريم: المصدر السابق ، ص

4- القيصرية كلمة يونانية أصلها قيصاريون، بمعنى السوق الامبراطوري، مما يدل على أنها أطلقت بعد ذلك على الشارع التجاري في المدن و يذكر المقريزي قيصره كسرى في القاهرة. انظر المقريزي،الخطط ،ج، ص وعن قيصرة تلمسان انظر:

Broasselard (ch) : L'nscription arabe en R.A 18. P16 ..

الناس على البضائع الأوروبية[1] أنه تغير من طبائع الناس وتــدفــع الأغنيــاء نحــو الرشوة.

إن قيصارية تلمسان لم تحافظ على المكانة التي كانت عليها خلال العصر الذهبي للدولة الزيانية، فقد تأثرت بما أصاب المدينة من حروب واضطرابات داخلية لذا لم نجد الآن أي أثر لهذا الحي التجاري، وخلال الاحتلال الاسباني لمدينة تلمسان1543 وصف لنا أحد الاسبان الذين رافقوا حملة الكوديتي المدينة ومن بينها القيصرية ووضح بأن دكاكينها ومتاجرها كانت عامرة بالسلع المحلية والأجنبية فحدث أن تعرضت للنهب والسلب من الجنود الاسبان وهو ما يؤكد لنا بأن تلمسان على الرغم من كثرة الاضطرابات التي عرفتها الدولة في مرحلتها الأخيرة فإن أسواقها بقيت محافظة نوعا ما على مكانتها في العصر الذهبي.

أما السلع التي كانت تحتويها تتمثل على الخصوص في المنسوجات والخيوط القطنية والذهبية التي كانت تستعمل في طرز الملابس التي لاتزال تلمسان محافظة عليها، والخردوات والأسلحة والأقمشة القطنية والحريرية والذهب والتوابل وريش النعام. وأغلب هذه السلع كانت تأتيها من الدول الاوروبية المطلة على البحر المتوسط كجمهوريات إيطاليا واسبانيا وفرنسا، وحتى من بلجيكا وهولندا و بريطانيا.

وبعد احتلال الاسبان لموانئ الدولة الزيانية ازدادت السلع الاسبانية فــي أسواق الدولة ومنها سوق القيصارية. وتعتبر القيصارية من أهم الأسواق التــي عرفت مراقبة الدولة لها، ففي عهد السلطان أبي تاشفين الأول، عمــد

1– عن المبادلات التجارية بين الدولة الزيانية و الدول الأوروبية انظر Hastoberis : les relations et commerce de l'Afrique du nord au maghreb au moyen age. P 16

إلى وضع دراع لكي يرجع إليه التجار عرف بالدراع المالكي[1] لمواجهة الغش الذي يمكن أن تتعرض له تجارة الأقمشة في القيصارية.

ويقال أنه بمقياس درع السلطان نفسه، لكن هذه الدراع تخلّى عنها التجار عندما ضعفت الدولة الزيانية ونستدل على ذلك بوجود درع عرف بالدرع الوهراني وأن استبداله وجد معارضة من قبل فقهاء الدولة لأنه لم يكن يتماشى مع المواصفات الشرعية، لذا يدخل هذا العمل ضمن تلاعب التجار.

- الفنــــادق:

تعرضت كتب الرحالة وعلى الخصوص الحسن الوزان[2] ومرمول[3] إلى وجود فنادق للتجار المسيحيين في كل من وهران وتلمسان، لكن الباحث لا يعرف هل الفنادق التي لا تزال الآن بمدينة تلمسان ترجع إلى عهد الدولة الزيانية، أو أنها نشأت في عهد الدولة الجزائرية الحديثة، لكنني أعتقد بأن الفنادق التي لا تزال بتلمسان ترجع إلى عهد الدولة الزيانية وقد أدخلت عليها ترميمات في المراحل الموالية بعد سقوط هذه الدولة لأن ازدهار النشاط التجاري لتلمسان كان في عهد بني زيان وعلى الخصوص العصر الذهبي.

الفنادق الموجودة في تلمسان لم تكن تختلف عن الفنادق في كل من تونس وفاس وهو ما يؤكده الوزان[4] حينما يقول: " أن ما هو موجود بفاس مشابه لما كان في تلمسان"، ولذا اكتفى بشرح المرافق الموجودة في فاس.

1- عن هذا الموضوع انظر Dhina (A) : Le royaume Aledelandid / quelques aspects de sa vie economique dans Majallat et tarikh 1978 / P19

2- الحسن الوزان: المصدر السابق ، ص 393.

3- مرمول: وصف افريقية ، ج2 ، ص 10.

4- الحسن الوزان: المصدر السابق ، ج2 ، ص 10.

فالفنادق كانت ملكية خاصة ينزل بها التجار الغرباء من مسلمين ومسيحيين لكن نزولهم يكون مؤقتا بحيث أن إقامة التاجر بالفنادق تنتهي بانتهاء تصديره لبضائعه وشراء سلع جديدة، ثم مرافقة القوافل التي تنطلق من المدينة نحو المراكز التجارية، وتلك الفنادق تختلف عن فنادق القيصرية لأن التاجر في هذه الأخيرة ما هو إلا وكيل لأحد المؤسسات، وفي المرحلة الأخيرة عرفت أوروبا ظهور شركات ظهر ممثلون لها في أسواق الدولة الزيانية كالقاطالونين والبنادقة والجنويين والميورقيين يملكون مؤسسات تجارية كانت تحتكر تجارة الذهب والعبيد، وحتى اليهود كانت لديهم مؤسسات لها وكلاء بالواحات الصحراوية وموانئ الدولة الزيانية و الدول الاوروبية[1].

والإقامة المستمرة في القيصرية تتطلب إيجاد مرافق أخرى مثل المطعم والفرن وحتى الكنيسة لمزاولة الشعائر الدينية للمسيحيين ومركز لأخذ الضريبة الجمركية من السلع الواردة والصادرة، بينما كانت الفنادق تحتوي هي الأخرى.

- الحسبة:

الاحتساب والحسبة مصدر، حساب الأجر على الله تعالى، تقول حسب واحتسب فيه احتسابا أي طلب الأجر من الله، ومنها أيضا احتسب فلان على فلان أي أثر عليه قبح أعماله.

ومعنى هذا أن الاحتساب قام أساسه على وضع قواعد أخلاقية واجتماعية على الخصوص لحماية المجتمع الإسلامي من الآفات الاجتماعية.

1- لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع انظر:

Caudray, les etrangers a Tlemcen dans l'Algerie nouvelle 2eme année, Alger, 1879, pp 72-59

وهذا النوع من العمل يعرف في التاريخ الإسلامي بنظام الحسبة أوالاحتساب الذي تطور في المجتمعات الإسلامية بين المشرق والمغرب حتى أصبح نظاما فرضت له دراسات فقهية وتاريخية وحضارية ويخطئ من يظن أن الاحتساب اقتبسه المسلمون من الأنظمة القديمة عند الإغريق وأنها نقلت إلى الشرق في العصر الهلنستي بواسطة الرومان، حيث وجدها العرب المسلمون في الأماكن التي وصل إليها نفوذهم في المشرق والمغرب فأبقوا عليه، لأهميته ونالها التطور.

ولكن الثابت لدى الباحثين المسلمين وغيرهم أن نظام الحسبة في الإسلام قام على أساس ديني، اجتماعي واقتصادي وأنه كما عرّفه الفقهاء "الأمر بالمعروف" إذا ظهر تركه والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله.

وفي ذلك يقول الدكتور عبد الباقي محمد: "أن أحوال الحسبة ترجع إلى العصر الإسلامي الأول، وردت في القرآن وطبقت في عهد الرسول(ص) والخلفاء الراشدين وبقية الدول الاسلامية الأخرى".

فمن الناحية النظرية وردت نصوص جعلت الضبط الاجتماعي أساسا لرعاية وضمان أمن الوطن والمواطن قال الله تعالى:" ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر".

أما في النظام الأوروبي فالأمر مختلف إلى حد كبير فإذا كان المحتسب يأخذ بالشّدة على من يشرب الخمر أو يمارس الملاهي المحرمة أو يأتي عملا بالأداب العامة فإنا نلاحظ أن البيزنطيين في مدينة مثل اللاذقية قبل الاسلام كان محتسبوها يقومون بمهمة تحديد سعر كل امرأة بائعة الهوى حسب جمالها.

من الناحية التطبيقية نجد الرسول(ص) قد ولى سعيد بن أبي سعيد بن أبي العاص بن أمية على سوق المدينة وعمر بن الخطاب السائب مع عبد الله بـــن عتبة على سوق المدينة.

ومن هنا نجد لا مجال للشك في أنّ الحسبة قامت في الإسلام منذ عصر الرسول(ص) وإن كان تنظيمها قد تم في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي ببلدان المشرق الإسلامي مع بناء مدينة بغداد 146 حيث نشطت الصناعة والتجارة وكثرت الاسفار.

وهناك من يرى أنّ نظام الاحتساب يرجع إلى عصر الخليفة الهــادي اعتمادا على أن أبي الفداء ذكر خلال أحداث 160 موت نافع بن عبد الرحمن المقري المحتسب وأنّ كلمة المحتسب قد لا تعني القائم بوظيفة الحسبة ومـــن هنا نشأ الشك في رجوع نشأة الحسبة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو شك لا دليل عليه.

- الحسبة في الإسلام قسمان

* **القسم الأول** : ديني ويتناول الدعوة إلى التوحيد وإقامة الشعائر الدينية وفي مقدمتها الصلاة لأنها عماد الدين، كي يبقى الضمير المسلم حيا متوجها إلى الله تعالى وان تكون العبادة خالصة إلى الله والنهي على المنكر منها التسبيح عند الأضرحة والذبح لهم والتبرك بهم وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية: " أن الصلاة هي أعرف المعروف من الأعمال وهي عمود الإسلام وأعظم شرطك".

* **القسم الثاني**: وهو المدني فقد امتد به العمل إلى أواسط القرن الثالث الهجري وفي ذلك يقول ابن خلدون كانت الحسبة في كثير من الدول الإسلامية

داخلة في عموم ولاية القاضي، يولي بها باختياره ثم انفردت وظيفة السلطان على الخلافة فصار نظره عاما في أمور السياسة فاندرجت في وظائف الملك وافردت بالولاية.

أما في المغرب الإسلامي عامة وفي عصر الزيانيين خاصة فقد كثرت الفتن بسبب تنازع الملوك الزيانيين في تلمسان، فقد ذكر العقباني الحالة التي وصلت اليها العواصم المغربية ومنها تلمسان، حيث تدهورت خطة الحسبة بارتشاء المحتسب لأن ضعف الدولة قد أدى إلى ضعف المحتسب الذي أصبح يشتري الحسبة بالمال ويمارسها بالقهر والسلطان ويجمع المال بالحلال والحرام وعندئذ سكت عن الغش .

في المدن الإسلامية ومنها مدن الدولة الزيانية نجد هناك الإدارة تشرف على الأسواق، تعرف أحيانا بالحسبة، ويسمى المشرف عليها بالمحتسب[1].

فالقاضي هو الذي يولي محتسب السوق ويشرف هذا الأخير على التعامل في الأسواق وسلامة السلع وتوفرها وصحة المكاييل والموازين لحماية المستهلك[2].

كما يشرف على تأمين الأسواق وحراستها، والراجح أن محتسبي الأسواق في العصر الزياني المتأخر لم يقوموا بواجبهم كما ينبغي، إذ تكشف نوازل الفترة ذاتها وكتب الحسبة عن انتشار الغش في الأسواق ويبدو أن محتسبي الأسواق تركوا العمل لأعوانهم ولم يراقبوهم[3].

1- ألف المغاربة والاندلسيون كتبا في ميدان الحسبة، من أبرز هذه الكتب رسالة ابن عبدون والمجليدي، كتاب التسعير، والعقباني، تحفة الناظر، ص162

2- ابن سعيد المغربي: المغرب، ج 2، ص 313.

3- - العقباني: تحفة الناظر، ص 162.

وقد علق الوزان على حالة المحتسب فيقول: " كان يعهد بها في الماضي لرجال أكفاء من ذوي السعة وأصبح الملوك في وقتنا يعهدون بها لأناس عاديين، فكثر الغش".

- **مــراقبة الأســواق:**

تعكس أهمية مراقبة الأسواق في الدولة الزيانية عدة قضايا اقتصادية واجتماعية ومالية ودينية ذات صلة بحياة المجتمع في عاصمة الدولة الزيانية وقراها وأكد القرآن الكريم على ضرورة ضبط الموازين والمكاييل والأمانة في الكيل والوزن حفاظا على حقوق عامة الناس. قال تعالى: "ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون". وقال تعالى في أيات أخرى: "وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير لكم وأحسن تأويلا"، وهناك حديث نبوي شريف يقول: "من غشنا فليس منا".

تعتبر مراقبة المكاييل والموازين من بين المشاكل التي واجهت المجتمع الزياني، فكان صاعها القديم يعرف بالتشفيني نسبة لأبي تاشفين الأول الذي يبدو أنه أعطى أهمية كبرى للأسواق وفرض على التجار مكاييل ومقايس منها الصاع التاشفيني والدرع التشفيني الذي لايزال بمتحف تلمسان إلى اليوم.

لكن في المرحلة الموالية تم التخلي عليه وظهر الصاع الوهراني الذي كان كثير الاستعمال في عهد العقباني سعيد.

كما وقع اختلاف بين الفقهاء في عواصم الدول المغربية وعلى الخصوص مدينة تلمسان خلط اللحم بالبطن والمصران فمنعها العقباني واجازها البرزلي خضوعا لما جارت به عادة تونس والقيروان والقرى التونسية الأخرى التي يباع فيها اللحم جزافا وأكداسا مختلطة.

- **الأسعـــــــار:**

الأسعار وردت فيها هي الأخرى أحاديث نبوية شريفة وأراء فقهية لعلماء المالكية.

وفيما يتعلق بإباحة التسعير، يمكن الرجوع إلى ما روي عن الرسول(ص) قد سئل عن التسعير فقال: " أن الله هو القابض الباسط والمغلي والمرخص وإني لاأرجوا أن ألقى الله وليس لأحد عندي مظلمة وروي عن ابن القاسم عن مالك بن أنس رضي الله عنه قال: " لا يحل لأهل السوق تسعير ما يبيعون به".

أما الإمام سحنون فقد كان يقدر السعر بمجموع التكاليف ويقول ابن خلدون في التسعير أعلم أن التجارة محاولة لكسب تنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء والمحاولة من وراء ذلك الربح.

وأمّا من يختزن السلع ويتعين فيها جولة الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فإن الأسعار لم تكن بمعزل عن الأحداث السياسية والظروف الطبيعية السائدة آنذاك، فالتطاحن والعنف يؤدي في الغالب إلى إتلاف المحاصيل الزراعية ومن نتائجه ارتفاع الأسعار فيلجأ التجار إلى احتكارها وبيعها بأسعار مرتفعة مثل ذلك ارتفاع الأسعار خلال الحصار المريني لمدينة تلمسان 698؛1298/707؛1307 فتوقف دخول البضائع إلى تلمسان حيث كان الجيش المريني يحول دون وصولها إلى المدينة وتحول سير القوافل من تلمسان إلى المنصورة القريبة من الاولى والتي أصبحت عاصمة للدولة المرينية آنذاك، فاشتدت المجاعة وأكل الناس كل شيء فبلغ ثمن البغل والحمار ثمانية مثايل والكلب بمثله والفأر بعشرة دراهم والحية بمثل ذلك والدجاجة بثلاثين، درهم والأصل الوحيد من الكرنب بثلاثة مثاقيل والخس

بعشرين درهم واللفت بخمسة عشر درهم والواحد من القشاء والفقوس بأربعين درهم والحبة من التين والإجاص بدرهمين فاستهلك الناس أموالهم".

علّق الوزان على ذلك الحصار فقال: "بلغ الغلاء درجة كبيرة جعلت كيل القمح يصل إلى سعر قدره ثلاثون درهم".

لكن الملاحظ أنه بعد رفع الحصار على تلمسان انخفضت الاسعار وقد علق على ذلك ابن خلدون فقال: "ففي ساعة واحدة بيع مدهم القمح ثمانية صيعان بدينار والشعير ستة عشر صاع بدينار".

كما لعب الجفاف دورا هاما في ارتفاع الاسعار مما جعل الدولة تتدخل في توزيع مخزونها على السكان بأسعار مقبولة للغاية، ومن بين الذين تعرضوا إلى ارتفاع الاسعار ابن مريم في ترجمته لسيدي يحيى فذكر أنه حدث غلاء كبير في تلمسان حتى تعطلت فيه المساجد وبعث السلطان لأهل البلد يطالبهم بتوفير الزرع في الاسواق فلم يجد لديهم شيئا.

وهناك مجاعة تعرضت لها الدولة الزيانية خلال سنة694/1294 عمّت بلاد المغرب الأقصى والأوسط وإفريقية وبلغ القمح عشرة دراهم للمدّ والدقيق ستة أواق بدرهم.

وفي عهد السلطان أبي حموا موسى الثاني نزلت بالدولة مجاعة عظيمة عاشها أبو زكرياء يحي بن خلدون و وصفها بقوله: " أنها نتجت عن اعصار عظيم أهلك الزرع بتلمسان وما جاورها فأكل الناس بعضهم بعض وافقروا إلى ما لدى السلطان فتصدق عليهم بنصف جبايته لان تلك المجاعة قد أدت إلى لرتفاع الأسعار لقلة الانتاج وإتلافه.

وقد شارك سلاطين الدولة في ارتفاع الأسعار حيث كانوا يحصلون على كمية كبيرة من الحبوب العائدة من العشور المفروض على المزارعين فخلال

حصار بني عبد الواد لبجاية نجد السلطان الزياني أبو تاشفين أمر بجمع الحبوب بمدينة تمزيزدكت.

وخلال سيطرة السلطان أبو الحسن المريني على تلمسان1337/637 وجد بمخازنها كمية هامة من الحبوب باعها[1] لتجار ميورقة على أن احتكار الدولة للحبوب في بعض الأحيان يعود بالفائدة على السكان وعلى الخصوص حين تقع الجوائح الطبيعية كالجفاف، فتتمّ عملية توزيع الحبوب على التجار من مخزون الدولة.

ويعود ارتفاع الأسعار في بعض المدن إلى عدم توفرها أو جلبها من مناطق بعيدة وهذا ما يؤكده ابن خلدون بقوله: "عندما يتعرض لتجارة فيذكر أن التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان، أرفه الناس وأكثرهم أموالا لبعد طريقهم ومشقته وكذلك المسافرون إلى المشرق وأما المترددون في افق واحد بين أمصاره وبلدانه ففائدتهم قليلة وأرباحهم تافهة لكثرة السلع وكثرة ناقلها".

من خلال النص يتضح أن الأسعار مرتبطة بقانون العرض والطلب، والتجار كانوا يعمدون إلى شراء السلع ثم يخزنونها في المخازن انتظارا لارتفاع أسعارها وعلى الخصوص ما يتعلق بالحبوب، وهو ما جعل العقباني[1] يعلق على ذلك بقوله: « ومن أعظم ما يجب تغييره والاحتساب في القيام به إخراج الزرع لعل من بين المشاكل التي عانت منها الدولة الزيانية وعلى الخصوص في مرحلة الضعف مشكلة الأسعار وهو ما يؤكده العقباني بقوله:

1- العقباني: نفس المصدر ، ص 213.

« قيل عن رجل كانت له معرفة بأحوال السوق والمعرفة في تسعير الفواكه وغيرها عدا الزرع ويعرف من ذلك الجيد والرديء، هل يجوز أخذ الأجرة على الباعة أو لا يجوز له ذلك ».

فأجاب العقباني إن كان له في نفسه ناظر عليهم منفعة المسلمين بقطعه مادة للفساد، فساد الباعة من فحش في المبيعات وسرقة الكيلات والموزونات وما أشبه هذا من الاضرارات التي يفعلها الباعة.

والأمثلة على ما ذكره المازوني من خلال هذه النازلة كثيرة منها:

أ: أن بعض المخازن التي بيد أربابها وعلى الخصوص في الأزمات الاقتصادية التي عرفت بالمسغبة لأنها كانت تستغل كما هو عليه الحال الآن » ولهذا يطلب من المحتسب أن يقوم بعملية التفتيش في المخازن والفنادق والدكاكين[1] والحوانيت إن وجد بها زرع مخزون فإنه يأمر بأن يباع ثم بعد بيعه يدفع لأصحابه رؤوس أموالهم أو يؤخذ الزرع ويتصدق به للفقراء والمساكين وإذا عادوا إلى الاحتكار من جديد فيجب على القاضي أن يأمر بسجنهم.

وحتى الفلاحين الذين كانوا يتوافدون على أسواق الدولة الزيانية من البادية ينزلون بالفنادق وفي بعض الحالات يعمدون إلى ترك زرعهم بها حتى يرتفع سعره لذلك كان المحتسب يشدد عليهم بإخراج زرعهم لسوق المسلمين حتى يدركه الضعيف والعجوز[2]. أما بعض الفقهاء فقد وقع الاختلاف فيما بينهم في قضية التسعير على المواد الغذائية فالنص يرى بأنه يجب

1- الدكاكين و مفردها دكان أو إذا أردنا استعمال النطق المحلي في تلمسان الدكانات و مفردها دكانة فإنها توجد على جانب الرواق في الفنادق.

2- العقباني: نفس المصدر ، ص 213.

علـــى المحتســـب أن يسعر لأهل الحوانيت والأسواق بعــد أن يكــون علـــى علم بأسـعر الذي اشتروا بـــه من الجلاب.

ومن بين الذين كانوا يحثون على التسعير العقباني وفي هذا الصدد قال: "قلت كان شيخنا وسيدنا الجد[1] الأقرب يقول يتعين أن يكون التسعير على أهل الأسواق في هذا الزمن متفقا عليه ويقصدهم كل لحظة، فضلا عن كل يوم لمـــا دانوا به من طمع المحظورات في البيع والإبتياع ومن أخبث شرورهم وهـــو من نكبات محظورهم أن التاجر إذا أدركه سبب التعذر وهو من وحل ومطر وشدة ثلج فيعمدون إلى إفراغ الأسواق من المطعومات وإفراغ مـــا بأيديهم مـــن ذلك لتعذر جلب الجلابين ومخازنهم به مليئة. وما ذلك إلا مـــن ترصدهم الحظيظة فإذا حط لهم منه أوقية أخرجوا مختزناتهم وباعوا منـــه الكثير مبادرة عن إتيان المجلوب يرخص ما بأيديهم[2] يستنتج من النص:

أن وضعية أسواق الدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة لا تختلف كثيرا عن وضعية الأسواق الآن لعدم تدخل الدولة في مراقبة الأسعار نتيجة لضعفها. لذلك يوصي العقباني الذي عاش في الثلث الأخير من القرن9هـ/15م بتكثيف المراقبة على الأسواق بقوله يقصدهم كل لحظة فضلا عن كل يوم[3] وأن تجار الحبوب في أراضي الدولة الزيانية كانوا يغتنمون الظروف المناخية فكثرة الأمطار والثلوج في فصل الشتاء كانت كثيرا ما تؤدي إلى تعطيل القوافل التجارية التي تنتقل بين المدن، وكذلك الحروب التي عرفتها الدولة فـــي مرحلتها الأخيرة كانت تحول دون سير القوافل التجارية، يعمدون إلى عـــدم

1- نفسه ، ص 206.

2- العقباني: نفس المصدر ، ص 206.

3- نفسه، ص 205.

إخراج ما في مخازنهم من الحبوب فترتفع أسعاره لقلة العرض، ولازال التجار لحد الآن يعمدون إلى ذلك عندما تقل سلع معينة بالأسواق، يعلق العقباني على هذه الأعمال التي كان يقوم بها التجار بقوله:" هذه مكيدة من مكائد الخدع ومضرة على ذلك في أموال المسلمين بغير حق. والواجب عليهم أن يخرجوا ما لديهم ليبيعوه بسعر الوقت دون ضرر يلحقهم في ذلك ولا يلحق المسلمين[1]".

ولعل من بين التحكم في الأسواق هو تنظيم الأسواق.

- تنظيم الأسواق:

تميزت أسواق الدولة الزيانية بالتنظيم، حيث حدد كل جناح سلعة معينة مثل سوق الغزل ـ سوق العطارين، الجزارين الخ ـ وهذا يسهل مهمة المراقبة من جهة و توحيد الأسعار من جهة أخرى.

ويرى العقباني إذا كان سعر أهل السوق متحد غير متفاوت فقام واحد منهم يبيع بأعلى ثمن كما يبيع به الناس فإن كان بجودة لم يمنع، وإن لم تكن له جودة بما أيديهم معا فإن حط على سعرهم وباع بأرخص مما يبيعون به ترك وبيعه و لم يؤمر الباقي باللحاق به ولكن يوصي القليل أن يلتحقوا بالكثير ويسار بهم في ثمن المبيعات.

مما يؤكد أنه يمكن لبعض التجار أن يعمدوا إلى وضع أسعار سلعهم عن ما هو موجود في السوق إذا كانت تلك السلعة تتميز بجودتها عن ماهو لدى التجار، وبذلك تختلف الأسعار حسب نوع السلعة في السوق.

1- العقباني: نفس المصدر ، ص 206.

ويمكن للتاجر أن يبيع بسعر أقل عن السوق إذا كانت السلع متشابهة مـن حيث الجودة، ولم يفرض على بقية التجار بداخل السوق خفض أسعار سلعهم وبذلك يكون للتاجر الحرية في تحديد السعر بنفسه على شرط أن لا يؤثر علـى المستهلكين.

- الإحـتكـار:

اهتم فقهاء الدولة الزيانية وغيرهم من فقهاء العالم الإسلامي بالإحتكار لأهميته في الميدان الاقتصادي. ومن بين الذين تناولوا الاحتكار أبو الحسن الذي قال في الرسالة: "أما الحكرة فهو أن يعمد إلى أسواق المسلمين ويشتري كل ما فيه من السلع فهذا إن كان يضر بالناس يمنع من ذلك مطلقا في كـل مـا لهم حاجة وإن كان لا يضر بهم وإنما قلنا يمنع الحكرة هذا فيما اشتراه من السوق أما إذا جلبه من مكان آخر فلا يجوز على البيع ولا يمنع من حكرته لأنه لا يضر بالناس"[1].

هذا فيما يتعلق بالتعريف بالاحتكار أما موقف الدولة الزيانية منه، فإن كثرة الاحتكارات وتلاعب التجار في هذه المرحلة دفع بالدولة الزيانية وعلى الخصوص في عصرها الذهبي تشديد المراقبة وتكون تحت إشراف المحتسب[2] الذي له دور مراقبة الأسعار حتى لا تؤثر على معيشة السكان على الرغم

1- انظر العواد، الأحوال الاقتصادية في المغرب الاسلامي ص 126، و أيضا حسن علي عبد العواد، الحياة الإدارية و الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأقصى في القرنين الخامس والسادس الهجريين 11 و 12 م، رسالة دكتورة مخطوطة بكلية العلوم جامعة القاهرة رقم 75 سنة 1973، ص 216.

2- عن الحسبة انظر محمد علي عبد الباقي، الاحتساب بين المنهج الاسلامي والواقع المعاصر، مقال بمجلة سرتاع 4س2 ديسمبر 1989، ص236 وفي الدونة الريانية انظر أبو سعيد العقباني، تحفة الناظر، حقق من قبل علي شنوفي، مجلة معهد الدراسات الشرقية بدمشق، س1965، ص 162.

مــن أن النظام الاقتصادي الإسلامي لم يكن يحدّد الأسعار على البضائع تماشيا مع الآية «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض» وقد ذكر الرسول {صلى الله عليه وسلم} السوق بيد الله، وقد تقيّد امراء الدولة الزيانية بما ورد في القرآن[1].

ونأخذ مثلا، إحدى السلع التي كانت تتميز بالوفرة بأسواق الدولة الزيانية، فقد كان من بين الذين يستترون في تحديد الأسعار الدلال لاتصاله بالحرفين من جهة وصانعي الجلود من جهة أخرى لتكون لديه نظرة حول سعر المادة المعروضة ثم يتصل بأمين الحرفيين المستعملين للجلد ويكون هذا الأخير واحد من هؤلاء، ينتخب من بينهم، فيتم تحديد السعر اليومي الذي يتغيّر بتغير أسعار المادة الأولية مثل شراء الجلود والمواد المستعملة في الدبغ[2].

وفي بعض الحالات كان التجار يختارون من يعرف أحوال السوق فيحدد الأسعار وفي هذا الصدد يقول المازوني: « سئل عن رجل كانت له معرفة بأحوال السوق والمعرفة في تسعير الفواكه وغيرها عدا الزرع ويعرف من تلك الجيد والرديء، هل يجوز له أخذ الاجرة على الباعة أو لا يجوز»[3].

وهنا نجد بأن تحديد الأسعار لا يكون مقتصرا على المحتسب فقط بل حتى بعض الناس الذين لهم معرفة بأحوال السوق.

وفي بعض الحالات كان التاجر هو الذي يحدد السعر بالإتفاق مع الدلال الذي يحمل السلعة إلى السوق، أو الساحات العمومية في المدن، وهو ما يؤكده عبد الرحمن الوغليسي: "عن الرجل يأتي السوق ليبيع فيقــول للسمســـار

1- أبو سعيد العقباني: المصدر السابق، ص 264.
2- نفسه، ص 163-165.
3- المازوني: الدرر المكنونة، ج2، ورقة 49.

بـــع لـــي هذا وأعطيك كذا وكذا أجرة معينة، فيأتي السمسار من ذلك ويقول: "لا آخذ إلا ما جرت عليه العادة ولا تنضبط عادتهم في ذلك قد تزيد على مـــا عينه له وقد تنقص وقد تساويه"، فأجاب بأن البيع لا يجوز إلا بأجرة معلومة".

فهذا النص يوضح لنا بأن بعض التجار كانوا يريدون فرض أسعار معينة على السلع التي يدفعونها إلى السماسرة[1] وكذلك الفوائد التي يتحصل عليها هؤلاء، لأنهم يرفضون ذلك لأن السلعة تخضع لعملية المزايدة فأحيانا ترتفع الأسعار عن ما طلبه صاحب السلعة وأحيانا تنخفض نتيجة للطلب والعرض.

وفي بعض الحالات فإن الفلاح يأتي بالخضر والفواكه إلى إحدى الحوانيت بالمدينة، فيطلب منه أن يبيع له رطل العنب بنصف درهم ومقابل خمس أرطال يأخذ درهم وحتى البصل واللّفت تباع الربطة الواحدة بنصف درهم ويأخذ عن كل عشر ربط درهم واحد وبذلك يكون الفلاح هو المحدد للأسعار.

وفي رسم أورده المازوني[2] يتعلق بتاجرين يهوديين يبدو أنهما كانا بأراضي الدولة الزيانية يقومان بالنشاط التجاري فقال: "سئل محمد العقباني عن مردخان اليهودي تحاسبا مع سلول اليهودي على ما كان بينهم من معاملة ومداخله، قلت إلى أن قررت المحاسبة بينهما أنه لم يبق لسلول على نفســه ان مردخان في ماله وذمته غير إثنا عشر قنطارا من الشمـــع المسبـــوك،

1- الونشريسي: المعيار، ج، ص.

2- ففي عصرها الذهبي واجهت أخطارا خارجية تمثلت في حصارها مرارا و على الخصوص الحصار المريني الكبير الذي أدى إلى تشيد مدينة المنصورة استفحل الغلاء إلى أن بلغ ثمن كيل القمح بثلاثين دينار والملح بثلاث مثاقيل ۔ رطل اللحم بربع مثقال فلم يطق السكان تحمل المجاعة، لكن بعد ما تم رفع الحصار دخلت القوافل المدينة فانخفضت الأسعار وأصبح القمح يساوي ثلاث مثاقيل.

كـــان مردخان سلم له فيها ودفع له في رأس المال سلعا من كل وطر وعفص ثمنها مائة وعشرون دينار ذهبا وكان رأس المال كله مائتي وأربعة دنانير ذهبية لحساب سبعة عشر دينار لكل قنطار[1]".

يستخلص من النص ما يلي:

أ: أن النازلة توضح لنا بعض السلع التي كانت متداولة في الدولة الزيانية ومن بينها الطرطار والعفس واللك. كما تحدد سعر البضاعة.

- تأثير الظـــروف السياسية على الأسعـــار:

هذا فيما يتعلق ببعض السلع التي كانت تصدر إلى خارج أراضي الدولة الزيانية، أما أسعار المنتوجات الفلاحية والصناعية التي تباع في أغلب أسواق الدولة فإنها تخضع لظروف سياسية، فعلى الرغم من انعدام الوثائق العائدة لعهد الدولة الزيانية وعلى الخصوص المرحلة الأخيرة منها، لكن نجد بعض الاشارات الخفيفة في بعض المصادر تبين لنا بأن الأسعار مرتبطة بالعوامل السايسية فحين تتعرض تلمسان للخطر الخارجي فإن الأسعار ترتفع بها لعدم وصول القوافل التجارية التي تزود المدينة بما تحتاج إليه من المواد الغذائية والأمثلة على ذلك كثيرة[2].

في المرحلة الأخيرة التي تميزت بكثرة الحروب بين أمرائها من جهة والقوى المعادية لها من جهة أخرى، فإن تلمسان وغيرها من مدن الدولة كانت تعاني من ارتفاع أسعار البضائع التي يكثر الإقبال عليها كالمواد الغذائية.

1- المازوني: المصدر السابق، ج2، ورقة 19.

2- ابن خلدون: يحي بغية للرواد ، ج1 ، ص 211.

فقد عرفت تلمسان في هذه الفترة موضوع البحث، سيطرة القوى الخارجية فدخلها عروج سنة1517م واستولى على ما وجده بها وعندما قلّت الكمية فـي أسواق تلمسان نتيجة لاختفائها من قبل التجار خرجت قواته إلى القرى المجاورة للمدينة لأخذ الشعير لجياده من المزارعين مما كان له رد فعل وقـد أشار لهذا ابن مريم[1].

أما الكوديتي، فإنه عندما دخل تلمسان سنة1543 سمح لجنده بنهب كـل ما وجد في مخازن الدولة وأسواقها من حبوب وسلع، وهو ما تؤكده الوثائق الاسبانية التي تقول بأن كمية كبيرة من السلع والحبوب نقلت إلى وهران، لأنها كانت في أشد الحاجة إليها. وقد أدى هذا إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية بعد عودة الاسبان، لأن الحروب لم تتوقف بين الأميرين مولاي محمد ومولاي عبـد الله بعد انسحاب الاسبان وهذا حال دون تزويد تلمسان بمـا تحتاج إليه من سلع لصعوبة المسالك التي حالت دون وصول القوافل التجارية وهنا نجد الاختلاف أيضا بين مرحلة القوة والضعف، فالأولى فإنه بمجرد زوال الخطر تتحسن أحوال الناس بانخفاض الأسعار، بينما في مرحلة الضعف الأمور تبقى معقدة لضعف الجبهة الداخلية واستمرار الصراع بين أمراء الدولة[2].

يضاف إلى ذلك تلاعب التجار بأسعار المواد الغذائية باحتكارها حتى يحين وقت ارتفاع أسعارها، كما شارك سلاطين الدولة الزيانية في ارتفاع الأسعار لأنهم كانوا يحصلون على كمية كبيرة من الحبوب العائدة من العشور المفروضة على المزارعين ثم يبيعونها لتجار الدولة أوالدول الأوروبية الذيـن

1– ابن مريم: البستان، ص 146-147. عن دخول عروج لتلمسان انظر الفصل الثاني من الباب الأول

2– وصف الحسن الوزان هذه الحالة فقال بلغ الغلاء درجة كبيرة جعلت كيل القمح يصل إلى سعر قدره ثلاثون دينار انظر وصف إفريقية 388-389.

يأتون لأسواقها، لكن احتكار الدولة للحبوب في بعض الحالات كان يعود بالفائدة على السكان وخاصة حين تقع الجوائح الطبيعية كالجفاف مما يؤدي إلى انخفاض الانتاج بعد عرض ما هو مخزون في مخازن الدولة في الأسواق بأسعار مقبولة وهذا كان يحدث مرارا في عصر قوة الدولة[1] أما خلال مرحلة الضعف كان سلاطين الدولة ليسوا في مستوى أبي تاشفين الأول ليفضلون مصلحة الدولة ورعاياهم عن مصلحة الغير، بل كان همهم الوحيد إرضاء رغبات.

القوى الموالية لها كالاسبان وهو ما تشير إليه الوثائق الاسبانية ومنها رسالة أرسلها الدكتور واربيخا لملك اسبانيا يقول فيها أنه ذهب إلى تلمسان للاتصال بالأمير عبد الله لكي يشتري منه سلعة تقدر بـ 30.000 دينار منها40.000 فنقوس. Fongus من القمح و60.000 من نفس الكيل شعيرا وهذا يؤثر سلبا على الأسعار وعلى الخصوص في وقت الأزمات الاقتصادية، فإن قلة الغلة بالأسواق في الوقت الذي يزداد الطلب عليها يؤدي إلى ارتفاع أسعارها مما يتعذر على الطبقة الفقيرة أن تجد ما تسدّ بها رمقها.

هذا فيما يتعلق بأسعار المواد الغذائية أما المواشي فكانت أسعارها هي الأخرى تخضع لقانون العرض والطلب وبعض المناسبات كموسم بداية الحرث الذي تباع بـه الثيران الخاصة بالحرث بأسعار مرتفعة وفي هذا الصدد يقول ابن مريم[2] في ترجمته لمحمد المعروف بالقليعي أنه رجلا رحويا بالقلعة وله بقر بإزاء مسكنه القريب من عرصة لرجل يدخل فيها، قال له: "اشتر مني العرصة، فقال له: " مـا عندي ما أعطيك وحدّد له ثمن البيع بستين دينار،

1- ابن مريم: البستان، ص 30.
2- ابن مريم: البستان، ص 271.

وكان هذا العالم يملك ثلاثة ثيران يعلفهم وعندما حان شهر يناير، ومن عادة الناس شراء الثيران المعلوفة في يناير فسأل أهل الصفيصف عن المعلوف فقيل لهم: إن فلان عنده ثلاثة ثيران معلوفة فتوجهوا إليه واشتروا منه واحد بعشرين دينار وسمع أهل وردان فصعدوا إلى القلعة واشتروا منه الثور الثاني بعشرين دينار، فسمع أهل الحنايا فطلعوا إلى القلعة واشتروا الثالث بعشرين دينار، فلم يكن إلاّ والرجل دفع ستين دينار لرب العرصة".

يستخلص من النص ما يلي[1]:

أ: أن أسعار الأراضي خلال المدة موضوع البحث تبدو منخفضة فمزرعة تباع بثمن يقدر بستين دينار.

ب: أن أسعار المواشي المعلوفة كانت مرتفعة وعلى الخصوص الثيران التي تستعمل للحراثة.

ج: يحدد صاحب النص بعض القرى التي كانت تحيط بتلمسان وكان أصحابها يزاولون النشاط الفلاحي وهذا يجعلنا نؤكد مرة أخرى أن مدينة تلمسان كانت فلاحية بالدرجة الأولى.

وفي بعض الحالات كانت الأسعار ترتفع نتيجة للجفاف الذي كانت تتعرض له أراضي الدولة الزيانية، وقد أشار إلى ذلك ابن مريم حيث قال: "عن سيدي يحي أن خديمه قال: " عندنا هري في دار الشيخ لا تخلو من الزرع والشيخ صاحب الزرع في زمن الغلاء لم يبق الزرع إلاّ عنده وأن الغلاء الذي عرفته تلمسان أدى إلى تعطيل المساجد وأن سلطان عصره قصده لشراء الزرع منه لأن أمراء الدولة كانوا يقومون بشراء الحبوب وإعادة بيعها"، وقد حدث هذا في عصر الدولة الزيانية الذهبي، ولعل ذلك كان يحدث في فترة

1- ابن مريم: المصدر السابق، ص 286.

ضعفهـــا أيضا وقـــد سبق لنا التعرض لبيع الحبوب من قبل مولاي عبد الله للدولة الاسبانية[1].

يبدو أن الدولة الزيانية في مرحلة قوتها تقوم بعملية توظيف أمناء يتميزون بالكفاءة والنزاهة لحفظ الدروب والأسواق والأزقة من الآفات الاجتماعية التي كانت تتعرض لها من اعتداء وسرقة والاعتداء على حرمات الناس[2].

- وضعية الأســـــواق:

إن كل سوق أو حارة كان له أمينه الخاص ينظر في كل الأمور التي تهمه وكذلك حاجة الناس، لكن في مرحلة ضعف الدولة الزيانية لم يبق الاهتمام بهذه الوظيفة كانعدام الأمن في الطرقات والأسواق وحتى داخل المنازل نفسها، وقـــد أشار إلى ذلك الرحالة المصري عبد الباسط[3] خليل خلال زيارته تلمسان، أنه تعرض إلى السرقة في مقر إقامته بالمدينة وهذا في عهد المتوكـــل الذي يعتبـــر عصره أفضل من عصـــور الأمراء الذيـــن سابقـــوه أو الذيـــن جـــاءوا بعده .

لم يكن الأمر مقتصرا على حفظ الأمن فقط، بل عرفت أسواق الدولة الزيانية كثرة الفوضى وهو ما دفع العقباني[4] إلى القول بأن هناك بعض التجار شيدوا دكاكين بين أيدي الحوانيت في اسواق الدولة مما يضر بالمارة وعلى الخصوص عند تجمع الأحمال وكثرة الناس أمام هذه الدكاكين كأصحاب السلع المتوافدين عليها لبيع وشراء السلع مما يؤدي إلى تكديسها أمام تلك الدكاكين

1- رسالة ابن عبدون، ص 42.
2- عبد الباسط خليل: المصدر السابق، ورقة 69.
3- العقباني، تحفة الناظر، ص 273.
4- نفسه، ص 273.

فيؤثر على المارة لأن الشوارع والأزقة تتميز بكثرة الضيق عكس ما هو الحال في شوارعنا الحديثة.

يضاف إلى ما سبق أن مساحة تلك الدكاكين لا تكفي السلع مما يدفع بالتاجر إلى تكديسها أمام أبواب المحل لكي يطلع عليها التجار، لكن هذا كان له تأثير سلبي على السوق.

لم يكن هذا البناء هو الجانب السلبي فقط بل نجد تراكم الأوساخ خلال فصل الشتاء لكثرة نزول الأمطار والثلوج فيؤثر ذلك على السوق، وأحيانا نجد أصحاب الدكاكين والحوانيت يرفضون جمعه وإبعاده من السوق، إن العمل لابد أن يقوم به الملاك لأنهم ما هم إلا مستأجرين وهذا بدوره يؤثر على حركة المرور[1].

يضاف إلى ما سبق أنه توجد في أسواق الدولة وعلى الخصوص مدينة تلمسان ورشات خاصة بدبغ الجلود تنشر الجلود التي يشتريها هؤلاء من الجزارين في الطرقات لكي يمر عليها المارة، لكنها تصيب المارة عندما يتخطونها بأرجلهم ولهذا طلب العقباني[2] من المحتسب أن يعاقب أصحابها ويحثهم على وضعها بعيدا عن الطرقات وهو ما يؤكده في هذا النص بقوله: «وما يفعله الجزارون عندنا من بسط جلود البقر بمحذاة الطرق لتنالها أقدام المارة يحصل فيها ذلك كما يحصل بالمذابح، وذبح الجزور بالطريق كل هذا من منكرات الشوارع»[3].

1- العقباني: نفس المصدر، ص 272.
2- نفسه، 274.
3- نفسه، ص 246.

النجـــش:

كما عرفت الدولة الزيانية خلال هذه الفترة موضوع البحث كثرة النجش في الأسواق، ولعل الأمر لم يكن مقتصرا على تلمسان فقط، عمّ أغلب أسواق الدولة وتتمثل العملية في أن التاجر يأتيه تاجر آخر فيزيد في سعر السلعة دون أخذها وتعرف العملية لدى تجار الدولة بالبرج وقد عرفها ابن رشد بقوله: "هـــو أن يعطي الرجل العطاء في سلعة لا يريد شراءها ليغرّ بذلك غيره"[1].

يضاف إلى ما سبق أن هؤلاء التجار لم يتقيدوا بالمكاييل والموازين والدراع خلال شراء السلع والبيع بموازين ومكاييل مغايرة، فكانوا يعطون البائع بالمكيال الصغير ويشترون بالأكبر ونفس الشيء بالنسبة للدراع و كذلك التطفيف فيما يتعلق بكيل الحبوب[2].

وهذه الظواهر تكثر خلال الفترات التي تتميز بضعف الأمن وانعدام المراقبة مثل ما حدث خلال الثورة التحريرية في بعض المناطق المحرمة فقـــد استغل بعض التجار الوضعية للأغنياء على حساب الطبقات الفقيرة وهذا العمل تم أيضا في تلمسان وبقية الأسواق التابعة للدولة الزيانية خلال الاضطرابات التي عرفتها الدولة في مرحلتها الأخيرة لقلة المراقبة وعدم الاستقرار السياسي وكثرة الغارات على أسواق الدولة، عكس العصر الذهبي حيث فرض السلطان الزياني أبو تاشفين الأول المراقبة على أسواق الدولة بتحديد المقاييس والمكاييل، فلايزال لحد الآن الدرع الذي نصبه في القيصرية بتلمسان حـــتى يرجع إليه التجار عندما يبيعون القماش .

1- البكري المغرب: ص 27 89-91

2- الونشريسي: المعيار، ج6، ص 76 و ما بعدها.

لم يكن التغيير قد مس الدراع فقط، بل شمل أيضا الصاع المستغل في بيع الحبوب، لأنه خلال مرحلة ضعف الدولة عمد التجار إلى تغيير الصاع الزياني فوجدوا معارضة من فقهاء الدولة، ومن بين هؤلاء العقباني وهو ما يؤكده بقوله ما ذكر لي سيدنا الجد الأقرب عن معارضته في الزيادة في صاعنا يوم زيدت الزيادة فيه عما كان قديما يعرف بالتاشفيني[1] بهذا الذي بين أيدينا يكيل به سمي بالوهراني.

لم يحدد لنا العقباني[2] دوافع تغيير المكيال الذي يرجع إلى عهد السلطان أبـــي تاشفين الذي عرفت الدولة الزيانية في عصره ازدهارا في الميدان الاقتصادي مع ذكر المكيال الجديد الذي يعرف بالوهراني نسبة للمدينة التـــي اعتبرت من أكبر مراكز التجارة بعد تلمسان، ولعل أول استعمال له من قبـــل تجار مدينة وهران ثم انتقل العمل به إلى مدينة تلمسان، وغيرها من المـــدن التابعة لها.

يجعل العقباني عوامل التغيير إلى وضعية الدولة وقد علق على ذلك بقوله: "بعد ملك الجوار والثوار من العرب تشريع في هذا الوطن".

والصاع الوهراني استعمل من قبل القبائل في أخذ الوظيف من القبائل الخاضعة لهم، لأنه أكبر من الذي استعمل في عهد السلطان أبي تاشفين الأول وقد أفتى بعض الفقهاء بعدم استعماله لأن العقباني رفض ذلك لعدم تماشيه مع الكيل الشرعي، وأنه لا يجوز في رأيه أن ينصب الناس في أسواقهم دراعا يبيعون به، كما لا يجوز ترك المكيال المعروف الجاري، إلى مكيال مجهول

1- نسبة إلى السلطان أبو تاشفين الأول717-737هـ/1317-1337، للمزيد من المعلومات عنه انظر ابن خلدون يحي بغية الرواد ج1، ص215، التنى نظم الدر العقيان، ص139-144.
2- العقباني: نفسه، ص 141.

وإن لم يكن للناس دراع منصوب، يجوز على الدراع الوسط، كما يرفض العقباني التعامل مع القبائل العربية في القرى بالمكاييل المجهولة في شراء الحبوب منها لأنه يعتبر من المغشوشات.

لم يكن التأثير السلبي مقتصرا على إدخال تغييرات في الموازين والمكاييل فقط بل شمل أيضا التقرب من ذوي الجاه ومعاملتهم عكس بقية الناس في البيع والشراء فالجزارون بمدينة تلمسان عندما يبيعون اللحم يدخلون في وزنه شيئا من الكرش والمصران على قدر كثرة الثمن وقلته إلا أن ذلك لا ينضبط بشكل متساوي بين الناس على نسبة محفوظة من كل ثمن ومثمون، ولكن يختلف حسب من يتقي بأسه من المستضعف الذي لا ناصر له إلا الله، فالأول يحمل القليل من الكرش وقد لايحمل شيئا بحسب تفاوت درجاتهم والأخير يحمل الكثير[1].

كما كان التجار يخرجون من مدن الدولة إلى الأرياف أو البوادي أوالفحوص المجاورة للمدينة لكي يأتوا بالمواد الغذائية ثم يبيعونها في أسواقها.

لم يكن هذا العمل مقتصرا على تجارة الحبوب والخضر والفواكه فقط بل امتد أيضا إلى تجارة المواشي حيث كان هؤلاء التجار يخرجون إلى الريف فيشترون أغناما ثم يأتون بها إلى النواحي المجاورة للمدينة حيث يوجد المرعى لتسمينها ثم ينقلونها إلى أسواق الدولة فيربحون فيها وهو ما يؤكده العقباني[2] بقوله: "وعندنا رجال يقطنون ببلدنا".

لم تكن عملية احتكار تجارة المواشي والتحكم في أسعارها هي الجوانب السلبية فقط بل نجد أيضا الخبازين الذين يعملون في أسواق الدولة كانوا

1- العقباني: تحفة الناظر، ص 232.

2- نفسه، ص 249.

يعمدون إلى صنع الخبز[1] من الدقيق بعد طبخه مباشرة وعدم غربلته وهذا لا يتعلق بالقمح فقط بل يشمل القطاني والشعير. لم يتوقف عمل هؤلاء على عدم غربلة الحبوب قبل عجن الخبز بل كانوا يعمدون إلى نقص وزنه بدعوة أنهم كانوا يتعرضون لدفع ضرائب أو وظائف للدولة إذا صنعوا خبزا بعد غربلته.

- تدخل رجال الدين في منع تصدير بعض السلع:

على الرغم من أن هناك معاهدات تجارية أبرمت بين الدولة الزيانية والدول المسيحية في عصر قوتها والمرحلة الأخيرة من حياتها فإن المعاهدات نصت على حرية المبادلات التجارية بين هذه الدول إلى أن رجال الدين في أوربا حاولوا الضغط على تجارهم الذين كانوا خاضعين للبابا في روما وملتزمين بطاعة أوامره وأنه لا يقبل بسهولة أن تكون العلاقة متينة بين الدول الإسلامية والمسيحية لأن هذه المرحلة تميزت باشتداد الصراع بين الإسلام والمسيحية بعد سقوط الامبراطورية البيزنطية في أيد المسلمين وغرناطة بيد المسيحيين وبروز القوة الإسلامية في الشرق متمثلة في الدولة العثمانية وفي الغرب متمثلة في اسبانيا والبرتغال، فالأولى توسعت على حساب دول مسيحية في أوربا الشرقية وامتدّ نفوذها إلى أراضي الدولة الزيانية، حيث قامت الدولة الجزائرية سنة1518 مرتبطة بها وإن ذلك على حساب الدولة الزيانية، بينما توسعت اسبانيا والبرتغال على حساب الدول الإسلامية في غرب العالم الإسلامي وهذا ما دفع برجال الدين المسيحيين إلى إصدار تعليمات تمنع نقل بعض السلع إلى أراضي

1- نفسه، ورقة 225.

الدولة الزيانية ومـــن بينها الأسلحة، الحديد، الخشب، القمح، الشعير، الذرة البيضاء، وحبال القنب.

وعلى نفس المنوال لجأ فقهاء الدولة الزيانية إلى المطالبة بعدم بيع السلع للدول المسيحية فقد أورد الونشريسي.

من بين السلع التي حرمتها كتب النوازل الفقهية هو بيع السلاح لمن يقتل به المسلمين وكذلك الأرض التي تتخذ مكانا لبناء كنيسة للنصارى أو معبد لليهود، وحتى الخشب الذي يصنع منه الصليب أو السلاح ليستعين به الكفار على المسلمين وحتى النحاس والغرائر والزفت والقطران والشمع والسروج واللجام والمهاميز لأنها تستعمل من قبل فرسانهم، وحتى الصوف والكتان مـــن بين السلع المحرمة على الكفار.

والسبب في رأي هؤلاء الفقهاء أن النصارى كانوا يستعملون من الحرير الرايات التي يحملها الجند خلال حروبهم ضد الدول الإسلامية كما يزنيون بـــه كنائسهم.

ولم يكن هذا التحريم مقتصرا على الكفار فقط بل شمل أيضا القبائل العربية وغيرها من القبائل التي عرفت بالبغي والفساد في الأرض والتسليط على هتك الحريم وأخذ أموال الناس وهذه الظاهرة عرفتها الدولة الزيانية فـــي مرحلتها الأخيرة.

وإن بيع هذه الأشياء لهذه القبائل سيؤدي إلى تقويتهم مما يـــؤدي إلـــى المضرّة بالنسبة للمسلمين .

وحتى في الأزمات الاقتصادية لا يمكن التعامل مع هذه القبائل كبيع القمح والشعير لهم لأن هذا الأخير يقدمونه علفا لخيولهم.

لكن هذا البيع لم يكن محترما من قبل المنتجين سواء بالنسبة للدول المسيحية أو القبائل، لأن المصالح المادية كانت تتغلب على الجانب العقائدي، هذا فيما يتعلق بالمبادلات التجارية بين الدول الإسلامية والمسيحية.

الفصل الثاني

الصنـ
إن
الزرا
مـ
فا
ويحتـ
لابـ
تعلم
وعله
و
خلال
و
لإقبـ
حض
تطو
إ
ضـ
سنـ
سو
تر
كان

الصناعة

إن الصناعة في الدولة الزيانية تتميز بالخصوص في تصنيع الانتاج الزراعي وما يتصل به، وكذلك استخراج المعادن والاستفادة منها.

- موقف الدولة من العمل:

فالدارس لمصادر الفترة يلاحظ بأن السكان كانوا يعجبون بالصناعة ويحبّون تعليمها ويكرهون القصور فيها ، فقد أورد ابن مريم في ترجمته لابن زكري الذي كان يعتبر من كبار علماء عصره أنه كان في بداية أمره يتعلم الصناعة قبل أن يلتحق بالدروس وأن شيخه هو الذي طلب منه ترك عمله مقابل تسديد ما كان يأخذه من معلم الصنعة.

ويبدو من خلال المصادر التي تمكّن الاطلاع عليها أن العاملين في المهن خلال هذه الفترة موضوع البحث لا يستفيدون كثيرا لكنهم يقبلون عليها.

ولم تكن الحرف تزاول في الأسواق فقط بل حتى في المنازل حيث كثر الإقبال عليها من قبل النساء العاملات اللواتي يجدن صعوبات في مزاولتها في بعض الحالات لموقف رجالهن منها لذلك طرح المازوني مجموعة من النوازل تتعلق بالموضوع:

إن ما عرفته الدولة الزيانية هو الذي ساد الفترة الموحدية حيث فرضت الضرائب على الصناع حسب مدخولهم وترك تقديرها وتحصيلها لأمين كل صنعة في كل مدينة وهذه الطريقة كانت متبعة في مدينة الجزائر خلال عهد الدولة الجزائرية الحديثة مما يجعلنا نؤكد على أنه لم يحدث أي تغيير في الفترة الممتدة ما بين عصر الدولة الموحدية وقيام الدولة الجزائرية الحديثة، كانت الدولة الزيانية تطبق النظام الذي عرفه المغرب في عهد الموحدين،

والذي يشرف على هؤلاء الحرفيين أمين الصنعة[1].

وقد عرف النشاط الصناعي في أواخر الدولة الزيانية ازدهارا كبيرا نتيجة للهجرة الاندلسية إلى مدن الدولة، ولكن هذا لا يجعلنا نقلل من دور سكان الدولة الزيانية لأن الخبرة الصناعية في العصر الزياني وبالخصوص مرحلتها الأخيرة لم تعد تقتصر على الأندلسيين فقط بل برز عدد من أهل البلاد في مختلف الصنائع.

- الملكيـــة:

*** ارباب العمل:**

تشير النوازل إلى الملكية في المعادن وآلات العمل من رحاء وأفران وحمامات وملاحات ومعاصر ومناسج، ومن بين تلك النوازل ما أورده المازوني بقوله: "سئل الفقيه أبو زيد عبد الرحمن بن مقلاش عن اكتراء المكتري ملاحة البطحاء مدة معينة، هل يسوغ أو لا مع أن أمر الملح إذا أزيل من محل عادة إلى ما كان عليه بعد أسبوع ونحوه لا سيما في شدة الحر؟. فأجاب، أما الملاحة[2] فليس الكراء فيها بيعا لملحها فيما توهمت بل الكراء فيها

1- يبدو أنه في تلمسان كانت الحرف تزاول في بعض الدروب لذا عرف البعض باسماء الحرف أمثال درب الحجامين ودرب الصياغين وبعض الحرف تزاول إلى جانب الفنادق مثل الحرازين المعروفين بالبلاغجية كانوا إلى جانب فندق الرمانة، والحدادين والبرادعين بالقرب من فندق بوعلي .

- يوجد بالمكتبة الوطنية مخطوط خاص بالأسواق تعرض إلى الحرف و ذكر تنظيماتها التي يبدو أنها لم تكن تختلف عما كان سائد في الدولة الزيانية، حيث نجد لكل حرفة أمين، وهؤلاء ينتخبون أمين عنهم ليكون صلة بينهم وبين الدولة انظر ابن الشويح الأسواق مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم 750.

2- يبدو أن الملاحة كانت مستغلة من قبل الدولة الزيانية في عصرها الذهبي وعند ضعفها حاول بعض أمراءها إقطاعها لبعض شيوخ القبائل لأنها تقع ضمن مضارب سويد عن هذا ،انظر الونشريسي المعيار، ج5 ، ص 222، ج1 1468.

لأجل رفع الحجر عنه مدة من الزمان لأنها محجرة لمصلحة اقتضت ذلك فإذا أقطعها الإمام أو من هو قائم مقامه لمدة من الزمن فإنه أباح له النظر فيها".

فهذا النص الذي أورده المازوني[1] والذي نسبه إلى ابن مقلاش من كبار علماء وهران في عصره يوضح لنا بأن الملاحات كانت ملكا للدولة، وأغلبها بوادي جمعة التابع الآن لغليزان أشرفت عليها دولة بني زيان واستمر ذلك في مرحلتها الأخيرة، حيث كان الملح ينقل إلى مرسى أرزيو ومنه يصدر إلى الدول الأوروبية .

ويبدو من خلال النص أنه في بعض الفترات التاريخية ولعلها مدة الاضطرابات كان سلاطين الدولة يلجؤون إلى عملية استئجارها لبعض الناس مقابل تقديم ضريبة للدولة الزيانية .

كما وردت نازلة عند المازوني[2] تتعلق بمعدن الحديد المستخرج من جبال الدولة كالونشريس والظهرة وموقف الدولة هل يمكن استغلاله من قبل الدولة أو اقطاعه مقابل تقديم ضريبة لها.

لم تكن الدولة هي الوحيدة التي تتحكم في وسائل الإنتاج بل حتى كبار التجار الذين كانوا يقومون بكراء المناسج للنساء لكي يقمن بصناعة الملابس أو الزرابي أو الحنابل أو غيرها، لأن بعضهن لا يستطعن شراء الآلات التي تستعمل في النسيج وفي هذا الصدد يقول المازوني: " سئل القاضي أبو عبد الله بن سراح عن أهل صناعة الحياكة وذلك أنهم يكترون المناسج بأجرة معلومة من غير أجل أو يمنع من ذلك فقال: " لايجوز إلاّ إذا قال الكراء لأجل معلوم وأجرة معلومة، ينبغي أن يعطوا أجرة لأجل معلوم كالشهر أو نحوه، أو جمعة

1- المازوني: الدرر المكنونة، في نوازل مازونة، ج2، ورقة 46.
2- نفسه، ج2 ، ورقة 47

أو نحوها، ومع ذلك يقول الصانع إن عملت ملحفة واحدة في ذلك الأجل تعطيني خمسة دراهم إن عملت اثنين تعطيني عشرة".

ولكنه إذا جاء بالمنسج يقول له ما عملت فيه إلاّ واحدة أخذ خمس دراهم وان قال اثنين أخذ منه عشرة هل يجوز؟"[1] وفي نص آخر يقول: " جوابكم في مسألة ثانية أن أهل الصناعة المذكورة كانوا إذا جاءهم صاحب شغل اتفقوا معه على أجرة معلومة فإذا تم شغل آخر بقدر مانقص من غزله في خدمة الشغل[2]".

- الصنـــاع:

لا توجد لدينا مصادر تبيّن لنا عدد الصنّاع في الدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة، كل ما هنالك أن الصنّاع في هذه الدولة يتوزعون على ثلاثة أصناف.

الأول: الصانع الخاص.

الثاني: الصانع المشترك وهذا الأخير يستقبل الزبائن في دكانه أو متجره يضع لهم حاجاتهم، مثلا أن الزبون يأتي بالمادة الأولية ويطلب منه مثلا نسج ملحفة أو برنوس...الخ، فابن زكري[3] كان يعمل عند هؤلاء الحرفيين حيث يأتيه الزبائن بالصوف لنسج ما يحتاجون إليه.

الثالث: الصانع المتجول مثل صانع الأواني الحديدية يخرج إلى الأرياف يصنع الأواني، والآلات لسكانها وعلى الخصوص المناسج والمغازل والغرابل ويبدو أن بعض أهل الذمة كانوا يزاولون هذا النوع من الصناعة وهو مـــا يؤكده ابن مرزوق بقوله: « جوابكم على الرجال من المسلمين ومن أهل الذمة

1- المازوني: المصدر السابق، ج2 ، ورقة 97.
2- الونشريسي، المعيار، ج5، ص 122.
3- ابن مريم: البستان، ص 28.

يقصدون بيع السلع من النساء في الدور أو لتصليح الحوائج مثل المغزل أوغيره وقد تخرج إليهم المرأة لمباشرة البيع وهي مكشوفة الوجه وخصوصا في زمن الحر وقد تدفع ما تشتري به من مال زوجها ببخس من الثمن أو من الزرع أو غيره هل يسوغ تقديم مثل هؤلاء للبيع من النساء .

وقد أجاب ابن مرزوق[1] بأن ذلك لا يجوز لما فيه من التحجر والظلم والغش ويؤول إلى أكل أموال الناس بالباطل. لم تتوقف النساء عن الاختلاط بالصناع المتجولين فقط، بل كن يذهبن إلى أسواق الدولة ويجالسن الصناع الذين كانوا يصنعون الأواني أو الحلي أو نسج الملابس أو تخييطها ويطول بقاؤهن في تلك الأماكن بدون فائدة، وعلى الخصوص في أوقات القائلة أو عندما يكون المكان خاليا من الناس أو بداخل ورشة نسج الملابس حين تكون المرأة مع الرجل[2].

- تنظيم الصناعة:

عرفت الدولة الزيانية كغيرها من دول المغرب الإسلامي تنظيم النشاط الحرفي حيث أن أسواقها وعلى الخصوص القيصرية أو الفنادق التابعة لها خصصت بها أجنحة لكل حرفة مثل سوق الوراقين، والفخارين والعطارين والصباغين والدباغين وعلى كل حرفة أمين يعتبر صلة بين الحرفيين والدولة وهذه الظاهرة نجدها أيضا عندما تأسست الدولة الجزائرية الحديثة بأسواق مدينة جزائر بني مزغنة[3] والظاهر أن الصناعيين في الدولة الزيانية كانوا

1- نوازل ابن مرزوق، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 1342 ورقة 17.

2- العقباني: تحفة الناظر، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 1353 ورقة 16.

3- ابن الشويخ: الأسواق، ورقة 56.

يتميزون عن غيرهم بلباس قصير حسب ما أورده الحسن الوزان[1] الذي زار أراضي الدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة.

- المراكز الصنـــاعيـــة:

من بين الذين تناولوا الصناعة ومراكز توزيعها بأراضي الدولة الزيانية الحسن الوزان الذي قال: "في شأن صناعها أنهم أناس أقوياء يعيشون في هناء ومتعة، ولعل هذا لا يختلف بالنسبة لمناطق أخرى وبالنسبة لبقية مدن الدولة. وهناك بعض المدن سكانها متخصصون في نوع من الصناعة مثل العباد التي قال عنها الوزان: " الصناع معظمهم من الصباغين، كما أن تلمسان كانت مشهورة بصناعة المنسوجات التي وصلت شهرتها أغلب أرجاء العالم الإسلامي وعلى الخصوص الكساء المعروف بالسفساري»[2].

من بين المدن التي ازدهرت فيها الصناعة، مدينة هنين التي قال في شأنها مرمول[3]: "يضع سكانها أشياء متقنة ومن بينها الأواني الفخارية التي نجد بعض بقائها في الآثار الباقية المبعثرة في أرجاء المدينة القديمة، يضاف إليها صناعة المنسوجات، لأنه ذكر بأن هنين كانت تصنع بها أقمشة وزرابي فاخرة"، ويبدو أن الاقبال عليها كان كثيرا من قبل تجار أوربا الذين يتوافدون على المدينة قبل احتلالها من الأسبان سنة1531م.

ومن بين الأشياء التي صنعت في تلمسان نجد المعاطف الصغيرة والكبيرة الرفيعة جدا، حتى أنه يوجد منها ما يزن عشر أواق.

1- الحسن الوزان: وصف افرقية، ص 56.

2- العماري: كتاب الجغرافية مجلة المعهد الفرنسي للدراسة الشرقية، دمشق 1967، ص 126 - 333.

3- مرمول وصف افريقية ، 3ج ، ترجمة حاجي الرباط ، ج2 ، ص 300.

بالإضافة إلى صناعة المنسوجات التي عرفتها تلمسان واشتهرت بها خلال عهد الدولة الزيانية، وحتى مرحلتها الأخيرة فهناك صناعة الأواني المختلفة في الطقوم الفاخرة للخيل وكذلك ركابات جميلة ولجم ومهاميز ورؤوس اللجم[1].

من بين المدن التي اشتهرت بالصناعة مدينة شرشال[2] بعد استقرار الجالية الأندلسية بها حيث عمد هؤلاء إلى الاهتمام بالمنسوجات الحريرية بتطوير هذا النوع من الصناعة وتشجيع زراعة أشجار التوت التي تتوالد بها دودة القز التي تنمو على أوراقها الحرير الطبيعي.

وما يقال عن شرشال ينطبق أيضا على القليعة التي استقر بها الأندلسيون وشجعوا بها صناعة الحرير بغرسهم لأشجار التوت على ضفاف وادي الزعفران.

أما مليانة[3] فكانت هي الأخرى من بين المراكز الصناعية حيث عمد سكانها إلى صناعة المنسوجات الحريرية وعلى الخصوص الجوخ الذي كان يصدر منها إلى بقية المناطق.

يضاف إلى ذلك صناعة السروج لأن الأراضي المجاورة للمدينة كانت تهتم بتربية المواشي وعلى الخصوص الخيول وبالقرب منها سوق خميس مليانة التي كان صناعها يصدرون إليه صناعتهم وعلى الخصوص السروج لتوافد القبائل عليه.

1- ابن خلدون: يحي بغية الرواد، ج1، ص 86.

2- مرمول: المصدر السابق، ج2، ص 300.

3- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1.

لم تتوقف الصناعة في مليانة على السروج فقط بل امتدت إلى الأخشاب لأن نسبة كبيرة من سكانها كانوا خراطين وهو ما يؤكده مرمول بقوله: «سكانها خراطون يصنعون أوعية خشبية للشراب يقبل الناس على اقتنائها لأن ازدهار هذا النوع من الصناعة في مليانة يرجع بالدرجة الأولى إلى وجود غابات تحيط بالمدينة ومن أهم أشجارها الخروب الذي يبدو أنه استعمل في صناعة الأواني المنزلية الخشبية لجودته.

ومن بين المدن التي اشتهرت بالصناعة مزغران[1] القريبة من مستغانم التي قال عنها مرمول[2]: " أن صناعها مياسير لكن سقوط مدينة وهران في يد الاسبان قد أثر على صناعتهم لأنهم كانوا يصدرون ما ينتجون إلى سوق وهران وعندما سقطت المدينة أثر ذلك على مجموعة الحرفيين المتواجدين بمزغران". ما يقال عن مدينة مزغران ينطبق على مستغانم[3] القريبة منها حيث سكانها اشتهروا بصناعة المنسوجات وقد أثرت الحروب على حرفييها، وكذلك محاصرة الاسبان لها مرارا زيادة على ضغط قبائل بني هلال، مما دفع بالحرفيين إلى الهجرة منها ولعل البعض منهم انتقلوا إلى مدينة جزائر بني مزغنة بعد تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة.

وحتى المناطق الجبلية كان سكانها يزاولون النشاط الحرفي زيادة على صناعة الفحم الذي كان ينقل إلى مدن الدولة ومن بين هؤلاء سكان مطغرة[4] الذين كانوا يجلبون الفحم من جبلهم إلى هنين وندرومة وتلمسان، إلا أن

1-الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 34.

2- مرمول : المصدر السابق، ج2.

3- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج32

4- مرمول: المصدر السابق ، ج2، ص 251.

الحروب التي عرفتها الدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة أثرت على تحركاتهم لانعدام الأمن من جهة وكثرة الغارات الاسبانية من جهة أخرى. ومن بين الذين كانوا يصنعون الفحم سكان جبل بني ورنيد[1] جنوب تلمسان الذي قال مرمول في شأنه: "به أشجار يصنع منها الفحم. وعندما تعرض ابن مريم إلى حياة ابن زكري[2] أشار إلى نقل الفحم من جبل بني ورنيد إلى قرية العباد[3] خلال فصل الشتاء حيث تسقط الثلوج على مدينة تلمسان[4] و نواحيها، ومن بين المدن التي كان سكانها يهتمون بالصناعة قلعة بني راشد التي قدر مرمول[5] عدد الحرفيين بها فقال: "بلغ نحو أربعين دار للصناع ومن بين هؤلاء الصناع أفراد من الجالية اليهودية كانوا يصنعون الصابون والمنسوجات والسروج وحاجيات الخيول وأغلب مصنوعاتهم تصدر إلى سوق أم عسكر الذي تعرض له الوزان خلال زيارته للناحية في بداية القرن10هـ/16م. يضاف إلى بني راشد ندرومة القريبة من عاصمة الدولة والتي كانت تتوفر على المواد الأولية المتمثلة في القطن الذي يزرع بضواحي المدينة والأصواف لغناء جبالها بتربية المواشي مما جعل الوزان يعلق على سكانها بقوله: " ندرومة اليوم مزدهرة لكثرة الصناع الذي ينتجون على الخصوص أقمشة القطن[6]".

1- نفسه، ج2، ص 352.
2- ابن مريم: البستان، ص 28
3- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص 24.
4- نفسه ج2 ص 17.
5- مرمول: المصدر السابق، ج2 ص 324.
6- نفسه ج2 ص 295.

- دور المــرأة الزيــانية:

كانت المرأة الزيانية تفتخر بتعليم بناتها الحرف المتداولة بين العائلات مـــع إبراز أهمية العمل حين يكون الزوج فقيرا بالمثل التالي: «ومدتي مـــال الجدين و بقي مال اليدين».

ولعل من أبرز الحرف التي اشتهرت بها النساء في أراضي الدولة الزيانية صناعة الزرابي والخياطة والطرز بخيط الذهب والفضة وغزل الصوف، فـــإن نشاط الدرازين يتوقف في غالبيته على إنتاجهن من الأصواف المغزولة.

فالمرأة هي المصدر الأساسي لهذه الطائفة التي يبدو أنها عرفت ازدهارا في عهد الدولة الزيانية وعلى الخصوص في عهد قوتها.

ومما يؤكد على وجود الورشات الخاصة بالنسيج في هذه الفترة موضوع البحث ما أورده ابن مريم[1] في شأن ابن زكري قال:"دخلت في طراز عند معلم لتعليم الخياطة والنسيج وبقي عنده حتى تعلم النسيج فدخل إليه ابن زغو فقال لمعلمه يقول لك ابن زغوا النسيج في هذا الغزل فلما أتى المعلم أخبره بالقصة ونسج المعلم الغزل وعندما خصته الطعمة بعث له ابن زكري ليأتي بها".

فالاستفادة من النص تتمثل فمايلي:

إن ورشة الحرفيين في مدينة تلمسان كانت تشغل مجموعة من الأطفال يتعلمون فيها الحرفة ويبدو أن ذلك لم يكن يخص صناعة المنسوجات فقط بل امتد إلى حرف أخرى، وأن الذين لهم الحق في هذا هم كبار الحرفيين الذين بلغوا درجة عالية في اكتساب المهارة لذا يلقبون بالمعلم، والمعلم هو أعلى درجة بالنسبة للحرفيين.

1- ابن مريم : البستان ، ص 28.

وأن هؤلاء الأطفال يتقاضون شبه مرتب بالنسبة لابن زكرى كان يقدر بنصف دينار.

وتشير المصادر التي تمكنا من الإطلاع عليها زيادة النشاط الحرفي في هذه الفترة موضوع البحث وهو ما يوضحه المازوني[1] بقوله: " سئل العقباني عن دفع برنوسا لصانع يحيكه ودفع إليه أجرته ثم أتى رب البرنوس للصانع فقال له: "أريني برنوسي لبيعه، وقال له الصانع: " أخذ فيه معاملة فقال له ربه: " لا تأخذ فيه معاملة ولا أبيعه إلا بالذهب وصار الصانع بعده بذلك وربه يتردد إلى الصانع إلا أن قال له يوما أنه قد ضاع ولكني أغرمه لك وأعطيك ثمنه فأعطاه بعض الثمن ثم قال له سق لي ما عندك من البرانيس واخليها لك من الثمن الذي لك عندي فأعطاه برانيس ليحيكها من ذلك فمسك بهما الصانع وطلب منه الأجرة على الحياكة".

يستخلص من النص ما يلي:

أ: أن في مدينة تلمسان كانت ورشات للحرفيين يقومون بحياكة ما يحتاج إليه السكان من ملابس بعد تقديم المادة الأولية الصوف مقابل أجرة الحياكة.

ب: هناك بعض التجار يشترون الخيوط الصوفية المغزولة ثم يقدمونها لهؤلاء الحرفيين لحياكة البرانيس وغيرها من الملابس ثم بعد ذلك يقومون ببيعها في دكاكينهم ومخازنهم ويسافرون بها ضمن القوافل التجارية التي كانت تنطلق من تلمسان نحو الجهات المختلفة.

ج: في بعض الحالات يقع سوء التفاهم بين الحرفيين وصاحب الشغل حيث يدعى الحرفي بأن البرانيس قد ضاعت منه ويرفض التعويض لصاحبها.

1- المازوني : المصدر السابق ، ج2 ، ورقة 50.

- **الصنـــاعــات**

حسب ما سبق يتبين للباحث أن الصناعة في تلمسان كانت تتمثل فيما يلي:

***صنـــاعة النسيج :**

من بين الصناعات التي لم تكن مقتصرة على المدن بل شملت البوادي أيضا لأن القبائل العربية البربرية كانت تعمد إلى الرحلة الموسمية وأن مساكنها عبارة عن خيم مصنوعة من الوبر والصوف تقوم بنسجها المرأة لذلك نجد صناعة المنسوجات المنزلية أكثر انتشارا فكل عائلة تهتم بهذا النوع من الصناعة حيث تقوم الأسرة بنسج ما تحتاج اليه من الملابس لأن المادة الأولية متوفرة في أغلب المناطق التابعة للدولة الزيانية.

ويلاحظ ان أهمية صناعة الحنابل شجعت عددا من السكان إلى المشاركة في هذه النوع من الصناعة استمرت إلى مابعد سقوط الدولة الزيانية فكانت حنابل الونشريس وزرابي قلعة بني راشد وحنابل المدية والحياك في المدية وتلمسان وكذلك محازم تلمسان من بين السلع التي كثر الاقبال عليها خلال عهد الدولة الجزائرية الحديثة.

وكانت حياك الدولة الزيانية وبرانيسها وزرابيها تباع لتجار الدول الأوروبية والإسلامية مما جعل الفقهاء يقومون هم الأخرون بها فقد أورد أبــو الفضل العقباني أن فقيها مات وترك زوجات وأولادا صغارا وكبار، فسافر بعضهم لبلد فاجتمع هناك ببعض الفقهاء وقالوا لهم إن الفقيه المذكور كان يبعث لنا الحنابل لبيعها ونأخذ بها سلعة والآن مات وأنت من خواصه فاحمل هذه السلعة لبلدكم حيث ورثتها.

ولم تكن صناعة المنسوجات مقتصرة على الحنابل بل نجـد الزرابـي كمـا سبق ذكره لكنها الآن لم يجد من يقوم باحيائها أوالعناية بها على الرغـم مـن وجود مساعدة من قبل الدولة ولعل ذلك راجع إلى ارتفاع اسعارها وقلـة التجار بها.

*** صنـــاعة الجلود:**

من بين الصناعات التي وجدت رواجا من قبل سكان الدولة الزيانية حـيت كانت تمارس منذ العصور القديمة وهذا ما يؤكده ابن خلدون بقولـه: "الصنائـع في المغرب قليلة وغير مستحكمة الأماكن من صناعة الصوف مـن نسجه والجلد في غزره ودبغه فإنهم لما استظهروا بلغوا فيه المبالغ العموم البلوى لمالهم من حال البداوة".

تكاد صناعة الجلود تكون في أغلب بلدان المغرب الإسلامي مدنه وبواديه لسد حاجيات السكان.

أما الدباغون فمنهم الذين كانوا يعدون الجلود للدبغ من حيث إزالة الشعر من الجلد وإعداد السحيق اللازم للدباغة وكانوا يستعملون جلود الأغنام والأبقار فينشرونها في الطرقات لتجفيفها وكانت من العادات السلبية حيث وجدت معارضة من قبل فقهاء الدولة لأن دمها يدخل في النجاسة ولذلك كان المحتسب يأمر بإبعاد الجلود من الطرقات حتى لا تأثر على المارة وهناك من يقوم بتلوينها بألوان مختلفة ومن أهمها الجلد الفيلالي.

ومن المصنوعات الجلدية صناعة الأحذية وقد لعبت الجالية الاندلسية دورا هاما في تطوير هذا النوع من الصناعةفي المجتمع الزياني وتباع تلك الأحذية في الاسواق التابعة للدولة الزيانية حيث كان التجار يشترونها من الورشات الخاصة بصناعتها ثم يوزعونها على التجار الصغار بالمدن والارياف وبعضها

كان يصدر إلى خارج الدولة الزيانية فكان الاقبال على أحذية بني زيا ن في السودان الغربي على الخصوص البليغة والخفاف والسندالة والسومال.

بالإضافة إلى صناعة السروج التي كانت لها قيمة كبيرة حيث تصدر إلى خارج الدولة وبعض السروج كانت مطرزة بالذهب تباع بأثمان عالية.

فقد تطورت هذه الصناعة على أيدي الاندلسيين الذين استقروا في تلمسان وفتحوا لهم ورشات بها ولا تزال لحد الآن في المناطق الغربية من الدولة الجزائرية ومن هذه الصناعات اللجوم كما راجت في بلاد بني زيان صناعة الزيوت لما لها من أهمية كبيرة لكثرة السكان وقد تضاف إلى ذلك إضاءة البيوت والقصور.

يعتبر زيت الزيتون أهم أنواع الزيوت وأكثرها انتشارا في أراضي الدولة الزيانية ويعود ذلك إلى وفرة أشجاره في كثير من أرجاء البلاد وأهمها المناطق الغربية والوسطى من الوطن وقد ورد ذكره في وثائق الأوقاف الخاصة بالمدارس والمساجد والزوايا.

وأما طواحن الغلال في عصر الدولة الزيانية فكانت أما سلطانية أو خاصة تملكها بعض الأسر ويدلنا على ذلك تحذير العقباني لأصحابها بأن يتبعوا قواعد معيّنة في تعاملهم مع الناس وكان لكل طحان أو صاحب طاحونة غلمان أو صبيان يقومون بنقل الحبوب من البيوت إلى المطاحين ويعودونه دقيقا إلى أصحابه وكانت تلك المطاحين كثيرة بحيث أصبح العاملون فيها يتدخلون في شؤون الدولة كما حدث في عهد السلطان عبد الواحد كانوا يعرفون أيضا بالرحوية وهذه الكلمة لا تزال مستعملة لحد الآن بتلمسان.

وقد أوضح لنا التنسي دور هذه الطائفة من العمال في الصراعات التي عاشتها الدولة الزيانية أنهم ساعدوا السلطان أبو مالك عبد الواحد

في استعادة سلطانه حيث يقول: " ادخله ليلا جماعة الرحوية وقاموا على أسوار مشاعل النيران".

وكثرة هذه الطواحين تدعوا إلى التساؤل عن طبيعتها وكيفية صنعها واستغلالها.

وأول ما يتبادر إلى الذهن أنها كانت من الحجر وتعتمد على الطاقة الحركية للماء في استغلالها وهذا ما يفسر وجودها على الأنهار في تلمسان ووهران ومستغانم وغيرها من مدن الدولة الزيانية وأريافها وقد استمر وجود هذه المطاحن بالارياف الجزائرية حتى القرن العشرين وهناك مطاحن صغيرة توجد بالمنازل كانت هي الأخرى لا تزال لحد الآن.

*** صناعة الخبز:**

أما فيما يتعلق بصناعة الخبز فتطالعنا كتب الحسبة بمعلومات هامة في هذا الشأن يقول الشيرازي ينبغي أن ترفع سقوف حوانيت الخبازين وتفتح أبوابها وتجعل في سقوف الأفران فتحة واسعة يخرج منها الدخان ويجب أن ترفع المداخن بالقدر الذي يجعل دخانها مرتفع عن الدور المجاورة.

*** صناعة الفخار:**

أما فيما يتعلق بصناعة الفخار فتعتبر هي الأخرى من بين الحرف التي عرفتها مدن الدولة الزيانية فكانت توجد بتلمسان أفران خاصة بالفخار وقد أشار إليها جورج مارسي في دراسته الوجيزة عن الفخار في الجزائر وكذلك الفرد بل الذي حدد مراكز صناعة الفخار في تلمسان وقال عنها أنها لا تبعد كثيرا عن باب العقبة، حيث توجد أثار أفران لصناعة الفخار وحطام الأفران بباب القرمدين، حيث يتبين للباحث ان هذا المكان والمناطق

المجاورة لـــه كانت أفران لصناعة الفخار والخزف والقرميد بالدولة الزيانية وهذا ما أعطى لهذا الباب اسمه.

وهناك مراكز أخرى لم يتم الكشف عليها لأن المدينة الحديثة قد شيدت وتوسعت على حساب المدينة القديمة مثل أغادير الواقعة جنوب المدينة والتـــي كانت مسكونة وبها مجموعة من الحرفيين.

ولعل من أبرز الآثار الباقيه للخزف الزياني ماقام به جورج مارسي عـــنـــد دراسته للفخار الحمادي وجد البعض منه يعود إلى مدية تلمسان ترجع إلـــى القرن السابع الهجري الثالث عاشر الميلادي.

من أبرز العوامل التي أدت إلى ازدهار هذه الصناعـــة في مـــدن دول بنـــي زيان وأريافها استعمالها من قبل كل الطبقات الاجتماعية سواء كأواني الطهي أوحفظ المؤونة أوالسيول كالزيوت والسمن وغيرها من المواد السائلة.

ومن بين الذين تعرضوا لها الحسن الوزان الذي قال عنها أنها تباع بأسواق الدولة مثل قلعة بني راشد التي زارها واطلع على الفخار الذي يباع بها.

*** صنـــــاعة مواد البناء:**

تطورت صناعة مواد البناء في عهد الدولة الزيانية لوفرة الأيدي العاملة الأجنبية سواء من الأندلس أو الدول الاوروبية فقد ذكر يحيى ابن خلدون أن سلاطين الدولة الزيانية قد استعانوا بالاندلسيين لبناء المشاريع العمرانية وخاصة في عهد السلطان أبو موسى الثاني وكذلك السلطان أبو تاشفين الأول الذي ولع في بناء القصور والدور وتشييد المصانع واغتراس المتنزهات مستظهرا بذلك بآلاف عديدة من فعلة أسرى الروم نجارين وزلاجين وزواقين وغير ذلك مع صدقة رحمه الله بالاختراع وبصره بالتشكيل والابتداع فخلف

أثار لم تكن قبله لمالك ولاعرف لهـا بمشـارق الأرض ومغاربهـا مثـل دار السرور وأبي فهر وما سواها.

ويلاحظ الباحث أن العبيد من الدول الاوروبية كانوا يشكلون في مجموعهم الطبقة العاملة في الدولة الزيانية وهذا يتجلى من خلال الرسائل المتبادلة بيـن ملوك اوروبا وسلاطين بني زيان فقد جاء في أحد هذه الرسائل وما أشرتـم إليـه بتسريح جميع ماعندنا من الأسرى فذلك ما لا يمكـن أن يكـون كمـا لا يمكن لنـا أن نطلب منكم تسريح ما عندكم من أسرى المسلمين لأنكم تعلمون أن ما عمر بلادنا إلاّ الأسرى وأكثرهم صناع متقنون في أنواع جميع الصناعات ولـو طلبتم مثلا تسريح خمسة أو ستة لأسعفنا مطلبكم وقضينا لربكم وأمّا تسريح الجميع فصعب لأن ذلك يخل الموضع ويعطل مايحتاج اليه من أنواع الصنائع.

تتميز العمارة الزيانية بتأثرها بالأساليب الفنية الأندلسية، ففي مسجد سيدي أبي الحسن نجد الزخرفة النباتية والكتابة الكوفية وخشبه المشيّد بخـشب الأرز المنقوش والأقواس المحلاة بأوراق وزهور أنيقة الشكل.

بمسجد أولاد الإمام، توجد قطع من الجص المنقوش كانت مزخرفة علـى الخصوص إطار المحراب. توجد الآن بمتحف تلمسان وهي عبارة عن قبيبـة مزينة بالمقرنصات تشكل مشكاة المحراب وتكتنفها أوراق مزدوجة تتدرج فيها غصون ملتوية وزهور ذات ثلاثة أو أربعة أو خمسة فصوص.

ويتميز صناع الدولة الزيانية بإنجاز مشاريعهم في الوقت المحدّد لها كمـا حدث في بناء مدينة تمزيزدكت وقصور أبي تاشفين الأول في تلمسان.

* الصنـــاعة الخشبية:

من بين الصناعات التي لها ارتباط بالبناء وتتميز الدولة الزيانية بوجود ثروة غابية سهلت عملية تطور صناعة الأخشاب المتمثلة في الأسِرّة والخزائن والصناديق والأبواب والنوفد إلاّ أنها كانت متأثرة بالصناعة الاندلسية والدليل على ذلك ما يلاحظ على إحدى أبواب المدرسة التاشفينية في متحف تلمسان التي تعود إلى القرن الثامن الهجري الرابع عاشر الميلادي.

ومن بين الآثار الدالة على هذه المرحلة ثرية مسجد تلمسان التي ترجـــع إلى عهد يغمراسن بن زيان.

ومن بين التحف التي أشارت إليها كتب النوازل الفقهية الصناديق الخشبية المطلية بالذهب والفضة لدى سلاطين بني زيان والطبقة الغنية من كبار التجار والموظفين.

* صنـــاعة الحديد :

هي من بين الصناعات التي ورد ذكرها في مصادر المعاصرة للدولة والسبب في وجود هذه الصناعة وفرة موادها الأولية في محيط الدولة واحتياجات الدولة لها، فقد استخدمت في صناعات مختلفة مثل صناعة الأسلحـــة التي أقيمت في معظم مدن الدولة لتفي بحاجة البلاد من سيوف وغيرهـــا مـــن أدوات القتال ومن الحديد صنعت أبواب المدينة وتحصيناتها، كما استعمل الحديد في الأدوات البسيطة كالسكاكين ومقابض الأبواب ومطارقها والفؤوس والمحاريث والشبابيك وغيرها.

ويذكر الحس الوزان من بين المدن التي كان سكانها يشتغلون بصناعة الحديد مدينة تفسيرة ومصنوعاتها تباع في أسواق تلمسان.

الفصـــل الثـــالـــث

- النظـام الجبائـي:

لن نخوض في تفصيل هذا الموضوع الشائك لأننا سنعود إليه في الفصول القادمة ويعتبر من بين الأسباب التي خلقت نوعا من الطلاق والانفصام بين الدولة الزيانية، ورعاياها والتي كانت بكل تأكيد من أهم أسباب ضعفها وعدم استقرارها، فكانت تلك الضرائب تصحب تعسفات في جبيها وأدت إلى تقسيم المجتمع إلى قسمين الموالين لها، معفيين منها، بينما المعارضين لها مطالبين بدفعها، ولهذا اعتبر جبي الضرائب من أبرز الأسباب التي أدت إلى زعزعة الدولة الزيانية وحالت دون تجاوز أزمتها السياسية.

فيغمراسن بن زيان سلك مسلك التضريب بين قبائل بني توجين، كما فرض عليهم الإتاوة، ففي عهد ابنه عثمان بن يغمراسن كلف أحد شيوخ بني توجين وهو محمد بن سلامة على جمع الإتاواة من قومه ووطنه لملوك بني زيان.

لكن يبدو أن هؤلاء اغتنموا فرصة الصراع بين بني مرين وبني زيان فتوقفوا عن دفع هذه الضريبة وعلى الخصوص خلال الحصار الكبير لتلمسان وهو ما يؤكده ابن خلدون بقوله: " وبعد الحصار المريني وضع بنوعبد الوادي من جديد الإتاواة على بني توجين.

وبما أن الدولة الزيانية كانت في حاجة إلى مداخيل مالية لتلبية حاجيات البلاد وتمويل حروبها ضد جيرانها والحصول على مساندة أكبر عدد من القبائل الحليفة وأداء رواتب الجند المرتزقة العاملين ببلاطها.

ولقد خصص ابن مرزوق[1] في مسنده فصلا خاصا بهذا الموضوع أحصى فيه بعض تلك الضرائب قبل أن يشير إلى إلغائها من قبل السلطان المريني أبي الحسن.

1- ابن مرزوق، المسند ص186.

فقد ألغى بعد دخوله تلمسان مغارم كثيرة منها المطالبات في الأبواب من التفتيش الذي لا يحترم فيه.

- **الضرائب وأنواعها:**

من بين الذين تعرضوا إلى الضرائب في عهد الدولة الزيانية عبد الرحمن بن خلدون الذي عاصر عهد قوتها وبداية انهيارها وكذلك استبداد الهلاليين بأراضي الدولة بعد أن تعاملت معهم سلطة بني زيان منذ عهد مؤسسها. مما جعلهم يحصلون على أراضي شاسعة من قبل الدولة ويفرضون ضرائب على رعاياها، ومن هؤلاء الثعالبة الذين كانوا يأخذون الصدقات والأتاوات على الفلاحين بسهل متيجة.

وبنو مالك الذين فرضوا سيطرتهم على المنطقة الواقعة بالقرب من غليزان ففرضوا عليها الضرائب وهذا ما يشير إليه ابن خلدون بقوله: "كان بنو مالك ابن زغبة لهذا العهد يدفعون الاتاوات على بلد سيرات ومدينة البطحاء وهوارة.

يضاف إلى هؤلاء العطاف الذين يتواجدون بنواحي مليانة ولا تزال تلك القبيلة في نفس المضارب لحد الآن، وقد فرضوا على القبائل في تلك الناحية ضرائب، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: "استولى العطاف على نواحي مليانة والديالم والروينة فأخذوا المغارم على جبل دراك وما إليه من وادي شلف".

أما بنوا عامر[1] فقد استولوا على الناحية الممتدة من تسالة إلى جبل هيدور وهران وقد فرضوا على سكان تلك الناحية أن يقدموا لهم الضرائب".

1- ابن خلدون: العبر، ج6، ص101.

وما يقال عن بني عامر من زغبة ينطبق أيضا على المعقل الذين استولوا على الجهة الغربية من أراضي الدولة.

فذوي عبيد الله مثلا سيطروا على الناحية الممتدة ما بين تلمسان ووجدة إلى مصب وادي ملوية إلى البحر ومنبعث وادي صا من القبلة وتنتهي رحلتهم إلى قصور توات، مما جعلهم يفرضون ضرائب على سكان تلك الناحية وحتى على سكان مدنها كوجدة وندرومة وبعض قراها وحتى على القوافل التجارية التي تجتاز تلك الناحية وهو ما يشير إليه ابن خلدون عن ذوي منصور فيقول: « أما ذوي منصور فوطئوا التلول وتملكوا وجدة وندرومة وبني يزناسن ومديونة وبني سنوس اقطاعا من السلطان لما كان لهم عليها قبل ذلك من الاتاوات والوضائع فصار معظم جبايتها لهم وضربوا على بلاد هنين بالساحل ضريبة الإجارة منها إلى تلمسان فلا يسير ما بينهما مسافر أيام حلولهم بساحتها إلا بإجارتهم وعلى ضريبة يؤديها لهم» [1].

وهكذا نجد بأن أغلب أراضي الدولة الزيانية في نهاية القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي قد امتلكت من طرف بني هلال الذين استغلوا الصراع بين الأسرة الزيانية الحاكمة لصالحهم.

استمر تحكم هؤلاء في سكان الدولة الزيانية وهو ما يؤكده المازوني الذي عاصر أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي فأورد مجموعة من النوازل تتعلق بهذا الموضوع نتوقف عن البعض منها. ومن تلك النوازل نذكر قوله: « سئل عبد الرحمن أبو عيسي عمن له أرض للحراثة ويعجـز

1- نفسه، ج6 ، ص 103.

عن دفع المظالم التي ينشبها العمال على الحراثين عمد لمن له جاه وسطوة فقال لــه: "اشترك معي في حرث أرضي على أن ألتزم بجميع المغارم"[1].

فالتنازل عن أرضه مقابل الاعفاء من الضريبة جعل الفلاح يعمل خلال فترة الحرث و جني المحصول وحين يحين وقت جمع هذا المنتوج يتخلى عن نصف الانتاج لهؤلاء الناس وأن رفض تسديد ما عليه يكون جزاؤه مصادرة أمواله وتعذيبه وهو ما يؤكده المازوني بقوله: «سئل بركات الباروني عــن رجل كلف عليه عامل وطنهم غرم مال ظلما وعدوانا وخوفه بالضرب والسجن».

وهو ما يشير إليه أيضا ابن صعد في نص يتعلق بكثرة الضرائب المفروضة من قبل ولاة الدولة الزيانية على الرعية مما دفع بالبعض منهم إلى اللجوء لرجال الطرقية ومن هؤلاء أحمد ابن الحسن الغماري الذي احتمى بــه أحد الفلاحين من جبل بني ورنيد فالتجأ لزاويته، فبعث إليه قــائــد جــبل بــني ورنيد طالبا منه اخراجه من حمايته.

نستخلص من النص أن الرعية في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية كانوا يفرون من أحكام موظفي الدولة إلى الزوايا طالبين الشفاعة من شيوخها لمكانة هؤلاء من أمراءها .

- فرض الضرائب من قبل الدولة على الرعية:

عمد سلاطين بني زيان إلى فرض نسبة من أموال الضريبة على القبائل فيقوم أحد أعيانها بتوزيع النسبة على السكان حسب المكانة الإجتماعية لهــؤلاء وبعد الجمع يدفعها للسلطان لكن الفقهاء كانوا يعارضون هذا النــوع

1- نفسه ، ج6، ص 120.

من الضرائب فيشترطون على أمراء الدولة شروطا في جبايتها لخصها الونشريسي في هذه النازلة بقوله: "أن مصالح المسلمين الذين لا تسكن ثغورهم ولا يكف عنهم عدوهم دمرهم الله ولا تأمن طرقهم إلاّ بها إن كانت لا تقوم إلاّ بمغارم الأسواق وكان أصل وضعها كون بيت المال عاجزا او قاهرا عنها كانت تلك المضارب يجب حفضها وأن يولى لقبضها وتصريفها في موضعها الثقات الأمناء فإن أخذوها من محلها ووضعوها في المصالح التي جعلت لها كان سعيهم مشكورا ومن وضعها في غير موضعها كان غاشا ظالما".

يتجلى من هذه النازلة أنه يجوز المحافظة على مصالح المسلمين على الخصوص حماية ثغورهم من الهجومات التي كانت تقوم بها السفن المسيحية بعد النصف الأول من القرن التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي وكذلك قطّاع الطرق الذين يتعرضون لقوافل التجار والمسافرين إلى بوجود دولة قوية تملك القوة العسكرية التي يمكن تسخيرها بمواجهة إغارة الأساطيل المسيحية وقطّاع الطرق، وهذا يحتاج إلى أموال تقدمها الدولة في تجنيدها للجيش وأن ذلك يتطلب مداخيل تتمثل في الضرائب التي تجمعها الدولة من رعاياها وهذا جائز حسب رأي الونشريسي، وأما الضرائب التي تفرض على الأسواق في شكل مكس على السلع التي تأتي بها القوافل التجارية أو التي تحملها إلى بقية المناطق التابعة للدولة المجاورة لها ويتم ذلك في أغلب الحالات بالأبواب الرئيسية لمدينة تلمسان أو بقية مدن هذه الدولة وأنه لايمكن اللجوء إلى فرض الضرائب، غير الشرعية على السكان إلاّ بعد أن تكون الدولة في أشد الحاجة إليها نتيجة للأخطار الخارجية وانعدام الأموال في بيت مال المسلمين لمواجهة ذلك الخطر وهو ما جعل الونشريسي يعلق على ذلك بقوله: أن أصل وضعها كون بيت المال عاجزا أو قاهرا.

وأن الذين يتولون قبض تلك المغارم يكونون من الثقات والأمناء لكــن مــا حدث في هذا العصر أن الذين كانو يقومون بقبض تلك الضرائب إمــا مــن أفراد الجالية اليهودية في مدن الدولة أو شيوخ القبائل في قراهم وكــل واحد مــن هؤلاء لا يتصف بالثقة وبذلك كانو يدفعون مما يجمعونه إلــى الشــيء القليل.

وأن الأموال التي كانت تذهب لخزينة الدولة لا تصرف في المصارف التــي تجمعت من أجلها أي تقوية الجيش الزياني وتحسين ثغور الدولة لمواجهة الأخطار الخارجية لكن أغلب تلك الأموال استعملت في الترفيه على الأمراء والسلاطين وشراء شيوخ القبائل العربية.

ومن بين تلك الضرائب التي تعرضت لها كتب النوازل ضريبة الخراج التي يقول في شأنها الونشريسي: «توظيف الخراج في عصرنا هذا إخراجه ظلم محض فإنجاد الجند لو استوفت جيرايتهم ووزعت على الكافة تكفيهم برهــة من الزمن وقدرا صالحا من الوقت وقد نسامح بنعمهم وترفههم فــي العيش وتبديرهم للأموال على وجوه العمارات فكيف يقدّر إحتياجهم لتوظيف خراج لإمدادهم ورفاهيتهم وخاصة أغنياء الذهر فقراء بالإضافة إليهم بقية الناس لو قدرنا إماما مطاعا مفتقرا إلى تكثير الجند لسد الثغور وحماية الملك فالإمام يمكن أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافيا لهم في الحال».

ما يستنتج من هذا النص أن ضريبة الخراج في عصر الونشريسي لم تكن مرتبطة بمبادئ الشريعة الإسلامية، حيث كان فلاحوا الدولة يعانون من هذه الضريبة وقد أورد المازوني مجموعة من النوازل تشير إلى الخراج وتأثيره على النشاط الفلاحي حيث أدى ببعض الفلاحين للتخلي عن أراضيهم وفلاحة

أراضي غيرهم ضمن ما يعرف بالخماسة أي زرع وبذر وحصد المحاصيل مقابل خمس الإنتاج وإن كان الدافع في فرض هذه الضريبة تقوية جيش الدولة للدفاع عن أراضيها لكن هؤلاء الجند تأثروا بالوضعية التي كانت تتخبط فيها الدولة مما جعل تلك الأموال تصرف في أمور تعتبر تافهة في رأي الونشريسي كبناء القصور وغيرها من وسائل الترفيه وهذا لا يجوز أن توظف هذه الأموال في رفاهية مجموعة من الناس على حساب بقية الطبقات الإجتماعية وحتى الطبقة الغنية أفقرتها هذه الضرائب وهو ما تؤكده النازلة.

إذا كان الخراج إحدى الضرائب التي كان لها تأثير سلبي على الفلاحين في عهد الدولة الزيانية خلال هذه الفترة موضوع البحث فهنالك ضرائب أخرى لاتقل عنها سلبية ويأتي في مقدمة هذه الضرائب القبالة.

إذا حاول المرء معرفة أيضا الضرائب التي فرضت على فلاحي الدولة الزيانية غير التي ذكرت من قبل وكيف أثرت على الزراعة نجد أن المصادر تستعمل مصطلحات عدة تتميز بالترادف كالقبالات والمغارم واللوازم والوظائف السلطانية.

أ- القبالة: قد يقصد بها كراء الأرض

والمغارم قد ترد بمعنى آخر غير معنى الضرائب ويبدو أن المسلمين كانوا يسمونها خراجا مضروبا على الأرض وهناك نوازل أوردها المازوني عن الوظائف بمعنى الخراج المضروب على الأرض. والمصادر التي تمكنا من الرجوع إليها لم توضح لنا مقدار الخراج من هذا النوع، ولا ريب أن توزيع الوظائف على الرؤوس أثر على الفلاحين بالدرجة الأولى.

- **الجزيـــة**[1].

من بين الضرائب التي فرضت على الجالية اليهودية مقابل تأمينهم من قبل الدولة الإسلامية وحقن دمائهم.

* **أنـــــــواعها:** الجزية على وجهين

أ: فاليهود الذين يوجدون بالأراضي التي استولى عليها المسلمون صلحا لايجبرون أصحابها على دفع الجزية، وتحدد من قبل الإمام بالنسبة للذين صالحوا على أنفسهم وأموالهم. وأن هذه الجزية الخاصة بالأراضي التي دخلها الإسلام صلحا.

تنقسم إلى ثلاثة أوجه:

أ – أن تكون محملة عليهم.

ب – مفروضة على الرقاب دون الأرض.

ج – مفروضة على رقابهم وأرضهم أو على أرضهم دون رقابهم.

ففيما يتعلق بالدولة الزيانية فإن هذه الأراضي كانت تقطـــع وتبـــاع، وهـــذه الأراضي الصلحية[2] جزيتها على قسمين محملة ومفضلة وتكـــون جزيــــة نفسية وخراج على الأرض.

1- عن أبي حمو موسى الثاني:انظر ابن خلدون، العبر،ج7، ص256، يحي بن خلدون، بغية الرواد،ج2، ص29.

2- عن الأراضي الصلحية: نفس المؤلف و الكتاب، ص 190..

- أراضي العنوة[1]

لأن الأراضي العنوية لا تباع ولا تشترى وإن مات صاحبها لا يصح لوليــه أن يرثها إلا ما اكتسب بعد الفتح الإسلامي لها وإن أسلم لم تكــن تلــك الأرض لصاحبها بل الإمام يتصرف بها. أما الصلحــية فــلا تــباع ولا تورث، وإن مات لا تقسم ولا يملكها إن أسلم وتكون بها جزية وأما المفصلة فــإن مــات فهي لورثته الذين على دينه، وإن لم يكــن له ورثــة فذلــك للمسلمــين.

وأما ما يتعلق بالأراضي التي جلى عليــها أهلــها بغــير قتــال فهــي للمسلميــن[2]، يقطعها الإمام إقطاع تمليك وإن ظهر له وجــه المصلحــة وهــذا النوع يوجد بأراضي الدولة الزيانية لكثرة تحركات القبائــل والصراع فيــما بينها.

أما الأراضي التي أسلم أهلها بغير قتال فهي لهم يبيعون ويتصرفــون مــما شاءوا، وليس لأئمة المسلمين عليهم خطر ولا تصرف[3] .

هذا فيما يتعلق بالأراضي بوجه عام، أما بالنسبة للمغرب الإسلامي، فــقد وقع الاختلاف فيها بين العلماء، فقيل أنها عنوية وقيل أنها صلحية، وقيل أن فحوصها علوية وجبالها صلحية. والسبب في ذلك أن جبال المغرب الإسلامي كانت تتميز بتضاريسها الصعبة، مما يصعب على القوة الوصــول إليهــا، ولاتزال تلك الجبال تحتوي على آثار لحصون ترجع إلى عصور مختلفة، كما توجد قرى معلقة. أما فيما يخص الأراضي السهلية فإن الفاتحين قد استولوا

1- العقباني : نفس المصدر ، ص 139..
2- العقباني : نفس المصدر ، ص 187.
3- نفسه، ص189.

عليها في القرون الأولى للهجرة وخضعت لأمراء الدول التي قامت بالمغرب الإسلامي مرورا بالرستميين والأدارسة والأغالبة إلى عهد الدولة الزيانية، وإنها تقطع أو تكرى، وإن مدخولها يرجع إلى بيت مال المسلمين وأحيانا يطلب من القبائل المستقرة بها أو الضاربة في ربوعها دفع الخراج للدولة دون أن يكون لتلك القبائل حق تملكها. وفي عهد الدولة الزيانية لم يقع أي تغيير بالنسبة لهذه الأراضي فكان سلاطينها يقطعونها لشيوخ القبائل العربية والمتغلبين على هؤلاء السلاطين إقطاع انتفاع، والهدف من وراء ذلك الحفاظ على رقاب الناس.

وأن هذه الأراضي التي استولت عليها القبائل العربية لم يستفد منهـا سكانـها الذين يوجدون عليها بل كان همهم التغلب وإظهار الفساد بحماية بعضهم لبعض بطريق التعصب. كذلك يوضح صاحب النص بأن توزيع أراضي الدولة الزيانية على شيوخ القبائل العربية لم يكن لصالح الدولة الزيانيـة بل كان سببا في انهيارها الاقتصادي، وقد علق على ذلك العقباني بقولـه: «وما تجرى قوم قطعوا أراضيهم وبددوا خراجها عن جمعه لبيت المال إلا ضعفوا وبادت مقاتلتهم وحمايتهم وصاروا هدفا للسهام من أهل الفساد وطاغية إلى البغي والفساد».

فهذا النص يؤكد ما وصلت إليه أوضاع الدولة الزيانية كمايلي:

أولا: إن الخراج الذي كان يأتي لخزينة الدولة من هذه الأراضي أصبح يذهب إلى جيوب شيوخ القبائل العربية وحتى الزناتية كبني تغرين إحدى بطون بني توجين.

ثانيا: إن توزيع تلك الأراضي أثّر أيضا على تجنيد الجند من قبل الدولة لأنها كانت تدفع تلك الأموال لشيوخ القبائل لكي تضمن لها الولاء.

لم يفرض الخراج على الفلاحين فقط بل حتى على التجار، ففيما يتعلق بسكان وجدة التابعين للدولة الزيانية كانوا يقدمون الضرائب لها من جهة وللقبائل العربية في مفازة أنجاد من جهة أخرى، مما أثّر على أحوالهم الاجتماعية وعن ذلك علّق الحسن الوزان[1] بقوله: "فقراء لأنهم يؤدون الخراج إلى ملك تلمسان وإلى الأعراب المجاورة لهم بمفازة أنجاد[2]"، وحتى الذين لم تفرض عليهم الضرائب فقد كانوا يقدمون هدايا لسلاطين الدولة حتى تسمح لهم ببيع سلعهم في أسواق الدولة وعلى الخصوص مدينة تلمسان وهوما يؤكده الوزان فيما يتعلق بأهل ندرومة[3] فقال: "يقدمون بعض الهدايا إلى الملك من أجل التجارة".

ومن بين الذين يقدمون ضرائب للدولة فلاحو تسالة[4] التي تعتبر من أغنى أراضي الدولة الزيانية من حيث إنتاج الحبوب وهو ما دفع الوزان إلى القول بأنهم أثرياء جدا يؤدون بعض الضرائب إلى ملك تلمسان، ولعل ذلك كان خلال زيارة الوزان للناحية. ومن بين الذين كانوا يدفعون الضرائب للدولة الزيانية سكان معسكر والنواحي المجاورة لها[5].

1- الحسن الوزان: المصدر السابق ج2 ص12، مرمول: المصدر السابق ج2 ص294.

2- نفسه، ج2 ص11، مرمول، نفسه المصدر السابق ج2 ص292.

3- نفسه، ج2 ص13، مرمول، نفسه المصدر السابق ج2 ص295

4- نفسه، ج2 ص25، مرمول، نفسه المصدر السابق ج2 ص325

5- مرمول، نفسه المصدر السابق ج2 ص324.

- المـكس:

من الضرائب المفروضة على التجارة الداخلية وهي جائزة في الشريعة الإسلامية وقد اطلق عليها الفقهاء كلمة مغرم لأنها لم يرد فيها نص صريح وفي هذا الصدد ورد في كتاب المسند لابن مرزوق قوله: " منها ما كانت تعم من العطاءات في جواب المسلم نصراني ويهودي وخارجي فيفتشونه من رأسه إلى قدميه ظاهرا أو باطنا عسى أن يدخل به من السلع التي يوظف عليها مغرم من المغارم وحتى النساء يوكل لهن يهوديات يفتشهن ويدخلن أيديهن إلى لحومهن.

من أهم الضرائب بالنسبة للدولة الزيانية وعلى الخصوص في مرحلتها الأخيرة، وكان قبض المكس يتم بأبواب الدولة، وبما أن تلمسان تقع على مفترق الطرق التجارية الهامة لأنها تتوسط الاتجاهات المعروفة الأساسية أي أنها تراقب الممر التلي الوحيد الرابط بين المغرب الأقصى والدولة الحفصية شرقا، كما هي بوابة المغرب ذهابا و إيابا[1].

وتراقب في نفس الوقت طريق الذهب والعاج العابر للصحراء والقادم من بلاد السودان كما تستقبل القوافل التجارية القادمة من موانئ الدولة. على مستوى أبواب المدينة تؤدى الضريبة النقدية المعروفة بالمكس المفروضة على المنتوجات الريفية الموجهة إلى الفنادق[2] والقيصرة سواء كانت فلاحية أو صناعية، فقد أشار الحسن الوزان إلى أبواب تلمسان

1- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج 2، ص 22.

2- يعلق الوزان على الفنادق فيقول: وفيها فنادق على النمط الافريقي. لايزال بقايا البعض منه لحد الآن. ص20..

فقال عنها: "أبواب تلمسان كان يقيم بها مكاسون". لأن الباب يعتبر نقطة عبور من ونحو المدينة للقوافل التجارية حسب الاتجاهات الرئيسية للحركة التجارية وعلى هذا المنوال كان باب كشوطة[1] يستقبل القوافل الواردة والمتجهة إلى المنطقة الغربية والجنوبية، إلى محور تازا، وجدة، وسجلماسة، فقيق.

أما باب القرمدين فيستقبل قوافل هنين والمنتوجات الفلاحية القادمة من المنطقة الشمالية الغربية، وكذا بالنسبة لباب الجياد التي تعبرها قوافل المنطقة الشرقية والجنوبية الشرقية. وأما باب العقبة فكان يستقبل قوافل وهران والمنطقة الشمالية الشرقية.

والجدير بالذكر أن هذه الأبواب كانت في الوقت نفسه نقطة استقبال ونقطة انطلاق لحركة تجارية زادت في المجال الاقتصادي لتلمسان حيث كانت بمثابة المتجر والمخزن. لم يكن هذا مقتصرا على تلمسان فقط بل شمل بقية مدن الدولة ومنها تنس[2] التي قال عنها المازوني: "سألت شيخنا أبو الفضل العقباني وقلت أطلب منك الجواب الشافي في مسألة وذلك أني لما توليت قضاء تنس وجدت مرتب قاضيها يؤخذ من الباب، أمرني بذلك فإن أنا أخذته أخذت ما لايليق، وإن أنا تركته نعلم أن قائد البلد يأخذه فصرت أجود به على الضعاف، ومن ترى أنه يلزمه الخادم في الباب يؤخذ من الداخل والخارج نقول للوالي لاتفرض له هل يوافقني". إن النص يوضح لنا بأن المازوني تولى قضاء تنس إلا أن صاحب النص لم يجد لنا تاريخ توليه

1- عن أبواب تلمسان انظر: يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج 1، ص 91.

2- عن تنس انظر الحسن الوزان ، ج 2 ، ص 35 ، مرمول ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 354. المازوني، المصدر السابق، ج 2، ورقة.

قضاء المدينة، ولكن يبدو أن ذلك تمّ قبل هجرته إلى تلمسان التي تمّت في عهد المتوكل.

وإن تنس تعتبر من الموانئ الأساسية للدولة الزيانية واستمر ذلك حتى فترة موضوع البحث، فقد وجد بها خير الدين حين دخوله إليها كمية هامة من السلع كانت في طريقها إلى الدول الأوروبية ولذا فهي تحتوي على مراكز لقبض الضريبة الجمركية وأخذ المكس عن السلع المحلية الواردة إليها من النواحي المجاورة لها ولذا قال المازوني يأخذ عن الداخل والخارج.

- الضريبـــة الجمركيـــة:

أن المسؤول على هذه الضريبة يعرف بالعشار ولقد ورد عن الرسول(ص) قوله: "لايدخل الجنة عشار" كما تتمثل في المال الذي يجبي عن تجارة المسيحيين الذين يتوافدون على دار الإسلام فكانوا يدفعون عشر تكلفة البضائع التي يحملونها وفرضت لأول مرة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كرد فعل على المعاملة التي كان يتلقاها التجار المسلمون في أراضي النصارى.

وخلال عهد الدولة الزيانية كانت تتمثل في العشر ما ورد في النصوص الأوروبية بدور المستندات تدفع من طرف تجار أوروبا وتوجد مقرات المكلفين بجمعها في المدن الساحلية والمدن الداخلية مثل تلمسان والسلطان الزياني هو الذي يراقب جمع الأموال بواسطة صاحب الأشغال وحسب مـــا أورده ديفورك أن الدولة الزيانية توجد بها مجموعة من المكاتب تتعلق

بجباية الضريبة الجمركية وعلى الخصوص الموانئ الرئيسية كوهران وهنين وكذلك القيصرية بتلمسان.

وأغلب هذه المكاتب موجّه بالدرجة الأولى إلى محاربة عملية التهريب بالإضافة إلى جمع أكبر قسط من الأموال المفروضة على السلع الأجنبية.

أما مصلحة الجمارك فكانت تعتبر الواسطة بين السلطان الزياني والدول الأوروبية الممثلة من قبل قناصلها وهم بمثابة السفراء في وقتنا الحالي ويتم أخذها بعد معاهدات بين الدول وهذه الدول تنص على تحديد الضريبة الجمركية.

فمصلحة الجمارك تشغل عددا من الموظفين منهم المدير والمحاسب وهو المسؤول عن العمال الذين يمسكون دفاتر الحسابات ثم مجموعة من المترجمين والحمالين الذين ينقلون السلع بعد جمركتها إلى الفنادق لكي تباع إلى تجار الدولة وينقلون السلع الزيانية التي تحمل في سفن تجار أوروبا إلى دولهم، وقيمة الضريبة الجمركية لا تختلف عن ما كان معروف في عهد الدولة الموحدية فجمهورية ايطاليا كان تجارها يدفعون عشرة في المائة (10%) ونفس الشيء بالنسبة لقشتالة وارغون وفرنسا.

كان تجار الدولة الزيانية يدفعون عشر القيمة على البضائع التي يحملونها وخلال عصرها الذهبي كانت تتمثل في العشر بوجه عام، لكن بعض الدول التي لها علاقة متميزة تدفع نصف الضريبة، وقد حدث هذا خلال تلك الفترة مع إمارة أرغون وقشتاله[1]. أما في فترة (موضوع هذا البحث) فتنعدم الوثائق التي تخص نسبة الضريبة لأنه لم يبق للدولة غير ميناء واحد هو هنين ثم

1- المازوني: المصدر السابق: ج2 ص46.

تعرض هو الآخر للاحتلال الاسباني سنة 1531م.

وتوجد مقرات المصالح الجمركية في كل من تلمسان والموانئ، التابعة للدولة الزيانية كاهنين ووهران، تنس وجزائر بني مزغنة زيادة على القيصرية بداخل تلمسان.

وحسب ما كتبه ديفورك du Faurque فإن الدولة الزيانية توجد بها مجموعة من المكاتب تتلعق بجباية الضريبة وخاصة بالموانئ، الرئيسية مثل وهران وهنين وكثرة هذه المكاتب موجهة بالدرجة الأولى لتحديد عملية تهريب البضائع بالإضافة إلى جمع أكبر قسط من الضرائب المفروضة على السلع الأجنبية .

ومن أبرز النصوص العربية الخاصة بفترة موضوع البحث نص الحسن الوزان الذي قال أنه لا يوجد سوى موظف واحد يدير الجمارك ويحيي الرسوم التجارية ويؤدي ثلاثين دينار في اليوم للخزينة ولعل السبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى ضعف الدولة الزيانية وقلة مداخيلها خلال زيارة الحسن الوزان لأراضيها لكن في العصر الذهبي كانت مكاتب الديوانة منظمة تنظيما دقيقا تستعمل عدد كبير من الموظفين منهم المدير ورئيس المحاسبة وهو مسؤول عن العمال الذين يمسكون دفاتر للحسابات[1].

أما السلع فكانت تنساق إلى مكتب الجمارك مصحوبة بحارس ويتقاضى الحراس والكتابة السلع حسب مقادير البضائع ويذهب هؤلاء في بعض الأحيان خارج المدينة لملاقاة البغالة ليلا يعمد هؤلاء إلى تهريب بعض الأشياء هربا

1- المازوني: ج2 ، ورقة20 ب

من دفع الرسوم وأن أخفوا شيئا دفعوا ضريبة الجمارك مضاعفة، وتبلغ الرسوم العادية دينارين عن كل ما قيمته مائة دينار[1].

أما المكلف بقبضها فيسلمها السلطان ويعرّف بصاحب الأشغال ففي سنة1466هـ- 1870م قدم عبد الله بن النجار صاحب أشغال تلمسان ووالده عبد الرحمن لأجل تعشير مراكب قدمت لوهران2.

وفي بعض الحالات نجد هناك موظفين تابعين للدولة الزيانية بتلك الموانئ، فخلال رحلة عبد الباسط خليل إلى وهران قدم أحد التجار مع ثلاثة قرون من الذهب، وعندما وصل بالقرب من المدينة وجد رجلا فاتصل به وطلب منه أن يقوم بإدخال هذه البضاعة إلى المدينة مقابل تقديم نسبة معينة له ليجعلها معفاة من دفع الضريبة، لكن الصدف شاءت أن يكون هذا الشخص هو المكلف بقبض الضريبة الجمركية وكان المطلوب من هذا التاجر أن يدفع على الأقل عشرين دينارا[3].

يتجلى من هذا أن مدينة وهران التي زارها الرحالة المصري عبد الباسط خليل كانت شبه جمهورية مستقلة عن الدولة الزيانية، حيث لا يوجد بها إلاّ ممثلا للسلطان مكلف بقبض الضريبة ا جمركية.

وأن هذه الفترة عرفت تلاعب من قبل التجار الذين كانوا يعمدون إلى الغش بالنسبة لتقدير السلع والضريبة، وفي بعض الحالات يتم الاتفاق بين

---

1 -Du Faurca (cch.E(.note sur le seltanat de tlemcen à l'epoaue Abdelwahed le commerce de sultanat dans pulletins d'information historiaue (F.T.A) n 1965, P,P, 11-14 et no 2,1965 P,P

2 -Du faureg (ch E) . Prix et niveaux de vie dans les pays Catalans et maghrebiens à la fin du XIII et au début de XIV siècle dqns le moyen age t. L XXI /1965 / PP 475-520.

3 -ABd al Basit, Ibn Khalil, El Raand al Bassime, P46.

هؤلاء وسكان المدينة عند خروجهم منها فيدخلون لهم السلع، لأن السكان لا يتم مراقبتهم من قبل رجال الجمارك وقد انتبه هؤلاء لهذه التلاعبات فكانوا يخرجون لملاقاة القوافل عندما تصلهم معلومات عن اقترابها من المدينة وعلى الخصوص القوافل القادمة من السودان الغربي، كما عرفت مراكز الضريبة الجمركية تلاعبا آخر من قبل أفراد من الجالية اليهودية الذين أصبحوا يتحكمون في تجارة الدولة، ومنها الضريبة الجمركية بموانئ الدولة الزيانية[1].

وعندما سيطر الإسبان على وهران والمرسى الكبير أثر على الدولة الزيانية فحال دون حصول الدولة على الضرائب التي كانت تتجه إليها، وهو ما دفع بأحد السلاطين الذي شرح للسلطان الاسباني بقوله: أتعهد أن أدفع أربعة آلاف دينار سنويا شريطة أن تكون مداخيل باب تلمسان لي كما كانت لوالدي تكون المكوس على البضائع التي تدخل إلى وهران وتخرج منها إلى تلمسان، وإذا زادت مداخيل باب تلمسان عن أربعة آلاف دينار فالزائد يكون لي خاصة.

وفي رسالة مؤرخة في جانفي 1530/937 أرسلها أبو محمد عبد الله لشارلكان ملك اسبانيا، يستعطفه ويطلب منه بإلحاح أن يعيد إليه جمرك تلمسان، وقد كان يتقاضاه جنوي ويهودي لحساب الامبراطور الاسباني وإن صاحب تلمسان لم يبق لديه ما يدفع به لخاصته وما يجعله يقوم بواجباته نحو اسبانيا ويتعهد أن لا يقع نصارى في الأسر داخل المملكة وأن لا تهاجم وهران مادام هو حي وعلى العرش بها وقد بلغ ما يقدم من قبل هؤلاء حسب ما أورده الوزان خمسة وعشرين ألف مثقال من الذهب.

1- ABd al Basit, Ibn Khalil, El Raand al Bassime, P46.

لم تكن المدن والقرى هي التي يطلب منها تقديم الضرائب للدولة بل سكان الجبال أيضا، فقد كان أهل جبل بني ورنيد يقدمون للسلطان الزياني ما قيمتـه اثنا عشر ألف دينار.

- تحويل الضرائب الجمركية إلى المحتلين الاسبان:

أصبحت الضريبة الجمركية خلال فترة موضوع البحث بيد الاسبان وحتى المدن التي لم تحتل أصبح تجارها يقدمون هذه الضريبة للإسبان وللأتراك وفي هذا الصدد ذكرت الرسالة من قبل سكان مستغانم ومزغران أن كل السكان من أهالي البلاد واليهود يربطون علاقاتهم بالسلطان الاسباني ويقدمون ما كـانوا يدفعونه للسلطان الزياني من الضرائب سواء التي تأتي من تجار البر أوالبحر في أول شهر جوان من كل سنة وخاصة التي تأتي من الضريبة الجمركية فهذا النص يوضح لنا مايلي:

أن الدولة الزيانية في عصرها الذهبي، كانت تأخذ الضرائب الجمركية من أغلب موانئها وليس من وهران والمرسى الكبير فقط وأن قيمة تلك الضرائب تزداد وتنقص حسب أهمية الميناء والتجار الذين يتوافدون عليه وحتـى علـى القوافل التجارية التي تأتي بسلع في ذلك الميناء.

وأن كل ما كان يدفع للدولة الزيانية أصبح يقدم للاسبان وهذا يؤثر في خزينة الدولة ويزيد من أزماتها الاقتصادية التي أصبحت تتخبط فيها وأن تلك الضريبة كانت تقدم في فصل الصيف لأن أغلب المبادلات التجارية تتمّ عندما يكون البحر الأبيض المتوسط غير مضطرب. وتذكر الوثائق الاسبانية أن الجنويين واليهـود في وهران كانوا يقدمون لحاكم وهران ضريبة تقدر بـ3000 دينـار وأموالهـا تستعمل في تمويل الجيش خلال الحرب وهذه النسبة تعتبر شيء قليـل بالنـسبة إلـى ما كان يأخذ سلاطين الدولة الزيانية وعلى الخصوص فـي عـهـد

السلطان أبي تشفين الأول الذي شجع المبادلات التجارية مع أوروبا خاصة إيمارات أراقون وقشتالة وجمهورية إيطاليا وهناك رسالة مؤرخة في1530/01/15م من السلطان الزياني تقترح على الأسبان أن يقدموا له ما كان يحصل عليه من الديوانة في وهران وقد أجابه الأسبان على طلبه أنه لا يمكن ذلك لأن الأهالي الذين هم بجوار وهران لا يقدمون إلا 500 دينار على تجارتهم عندما يأتون إلى المدينة للقيام بالنشاط التجاري وأن السفن الأجنبية توقفت عن قصد وهران وفي رسالة أخرى للسلطان الزياني مؤرخة في1529/06/07م طلب فيها من الأسبان فرض ضريبة إضافية تمنح له من وهران على التجار الوافيدين من الميناء.

يتجلى مما سبق أن الدولة الزيانية قد تأثرت كثيرا لفقدان وهران والمرسى الكبير اللذان يعتبران من أهم موانئ الدولة الزيانية والتي كانت ميزانيتها تأتي منها وبواسطة تلك الأموال جندت الدولة القبائل لمساعدتها وأن الدولة الأسبانية رفضت تنازل على الضريبة الجمركية لبني زيان بدعوة أن الأموال تستغل في تموين الجيش الزياني وهذا سيكون خطر على بقاء الأسبان في كل من وهران والمرسى الكبير.

- الزكاة:

أولا: زكاة الأموال كالذهب والفضة والنقود:

وأما الموظفون الذين كانت تعهد لهم الدولة بمهمة جمع الزكاة فإنهم في الغالب يكونون من أقرب المقربين لأمراء الدولة كأبنائهم مثل ما حدث في عهد السلطان أبي حمو الثاني الذي كلف ابنه ابن تاشفين الثاني لقبض الصدقات.

ثانيـــا: زكـــاة المواشـــي:

وهي الزكاة التي كانت تجمع بواسطة الحكام حيث يشرف عليها سلاطين الدولة إشرافا دقيقا في العصر الذهبي لأنها مورد مالي هام يلقى مراقبة دقيقــة من أمراء الدولة في جمعه، ومما يؤكد ذلك أن السلطان أبا حمو موسى الثاني أرغم بعض مشايخ القبائل المتمردة على دفع الزكاة.

فرض الضرائب على الدولة الزيانية من قبل القوى المتصارعة.

*** الضرائب المدفوعة من قبل الزيانيين**

كانت الدولة الزيانية تقدم ضرائب للقوتين المتصارعتين:

- أولا: الدولة الجزائرية

كانت الدولة الجزائرية الحديثة التي أسسها خيرالدين في مدينة الجزائر، بعــد ربطها بالخلافة العثمانية، منذ سنة1518/924 تفرض سيطرتها على بــني زيان. وقد أورد صاحب غزوات عروج وخيرالدين مجموعة مــن النصوص تتعلق بهذا الموضوع، منها:

أن مولاي عبد الله بعد الهزيمة التي تلقاها رجع إلى المهادنة وإعطاء الطاعة، حاضرا، فبعث إلى خيرالدين أعيان حضرته وأكابر وقته يستمدون منه الصلح، والعفو، ويعدونه بحمل الستين ألف دينار، ويضاعفون الخراج الذي كانوا يؤدونه اليه لتكون جملته عشرين ألف دينار مع جوائز وهدايا[1].

1- لمؤلف مجهول: غزوات عروج وخير الدين، ورقة 16.

فالمؤكد أن أمراء الدولة الزيانية عندما يولّون وجوههم لإحدى القوى المتصارعة يمضون معاهدة معها وأهم ما تنص عليه هو تقديم ضريبة سنوية[1] تقدرها بنود المعاهدة، لهذا كان خير الدين قد أبرم مع مولاي عبد الله معاهدة نصت على أن الدولة الزيانية تقدم مساعدة مالية للدولة الجزائرية حددت بعشرة آلاف دينار سنويا، وهي أقل بكثير مما كانت هذه الدولة تقدمه للاسبان[2]، ولم تنفذ ما اتفقت عليه مع خير الدين، لكن بعد الهزيمة التي ألحقها بها خير الدين وبجيشها خضعت له، ووافقت على تقديم هذه الأموال.

ويبدو أن الوضعية الاقتصادية للدولة الزيانية، هي التي حالت دون تسديد ما عليها، لأن أغلب أراضيها وموانئها بيد قوة أجنبية كوهران والمرسى الكبير[3] التي كانت تزود الدولة بأموال تأتيها من الضريبة الجمركية، ولم تبق لها إلّاهنين[4]، وارشقول.

وأن الخراج الذي كان يفرض على الفلاحين، أصبح جزءا منه يقدم للقوى المتصارعة، ولعل هذا هو الذي أدى بكتب النوازل إلى معارضة هذا النوع من الضرائب، التي اثقلت كاهل الفلاحين، لكن ظروف الدولة الزيانية لا تسمح لها بإعفاء الفلاحين منه، لأن جزءا من مدخوله أصبح يقدم إما للدولة الجزائرية،

1- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص23، مرمول، المصدر السابق ج2 ص298.

2- لمؤلف مجهول: نفس المصدر، ورقة 31

3- Fego Henri Lion/Histoire d'Oran avant pendant et apres La domination Espagnole 156

4- عن الضريبة الجمركية التي كانت تؤخذ من المرسى الكبير، انظر الحسن الوزان، المصدر السابق ص23، وهناك وثيقة توجد بأرشيف سيماكس، تعود إلى بداية احتلال وهران.

أو الاسبان[1]، وهناك نص آخر يقول فيه: "أن مولاي عبدالله عندما انهزم قدم لخيرالدين ثلاثين الف دينار، فرفضها، مما جعله يترامى بين أقدامه"[2].

- ثانيا: الاسبـــان

أما الأسبان فقد فرضوا ضرائب جائرة منذ إحتلالهم لوهران حتى سقوط الدولة الزيانية(1509-1554) مما أثر على خزينة الدولة وكان من بين عوامل انهيارها وأول ضريبة فرضت على أمرائها كانت نتيجة للمعاهدة التي أبرمها أبو عبد الله الثابتي مع الإسبان وقد نصت على أن تقدم تلك الضريبة من خزينة الدولة على دوفوعات فخلال سنة 1512م قدم السلطان الزياني للأسبان ثلاثة دفعات فالأولى كانت في 10 أفريل من نفس السنة قدرت قيمتها 150.000 (M) أو ما يساوي 440 دينار أندلوسي والدفعة الثانية كانت في 1512/06/25م جاء بها القائد العبادي إلى ميناء أرشقول حيث اجتمع فيه مع ممثل الملك فيرديناند الكاتوليكي وقد سدد له 2944 دينار3 قيراط أندلوسي وفي نفس السنة قدم الأمير الزياني لملك إسبانيا 935,820(م) كما قدم هذا السلطان في سنة1513م لحاكم وهران الذي كلف من طرف ملك إسبانيا مبلغا قدر28,000 (م) وفي السنة الموالية وبالتحديد في1514/06/04م قدم مـــا قيمته268,310 (م) وقد سدد أيضا في1516/09/14م ما يقدر بـــ: 159.705 أما السلطان أبو حمو موسى الثالث فقد أبرم هو الأخر معاهدة مع الأسبان بعد توليه السلطة وقد تعرض لها الوزان فقال عنها الضريبة التي كان يدفعها السلطان الزياني للاسبان تقدر بـــ12ألف مثقال من الذهب و12 فرسا و6 سقور إناث وقد ظلّ ملتزما بذلك طوال حياته وقد ذكرته الوثائق الإسبانية

1- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص:16.

2- تذكر الوثائق الاسبانية أن ارشقول، أصبحت تصدر منها الدولة الزيانية.

أن هذا الأمير دفع في1517/02/11م مبلغا يقدر بــ8512306 دينار وهناك ضريبة كانت تحصل عليها إسبانيا من جمركة السلع التي كانت تدخل وهران من باب تلمسان لكن هذه الضريبة يتم اقتسامها مع بني زيان ففي الفترة الممتدة ما بين1520/09/01م و1521/07/18م وصل مجموع هــذه الضريبة ما قيمته3038 دينار أخذ منها بنو زيان1509 بواسطة سلمان تيرونو اليهودي ومن بين الذين دفعوا الضريبة للاسبان السلطان مولاي أبوعبد الله الــذي تولى الحكم في الفترة الممتدة مابين1521م - 1534م.

ففي شهر جوان من سنة 1522م دفع هذا السلطان لصالح الإسبان ضريبة قدرت بــ 2000 دينار وفي 1524/06/04م سدد لهؤلاء 5000 دينار تماشيا مع المعاهدة التي أبرمت بينه وبين الأسبان والتي نصت على أن يدفع ضريبة سنوية تقدر بــ5000 دينار وفي الفترة الممتدة مابين1526/05/01م و1528/04/30م دخلت الخزينة الإسبانية من الأموال الزيانية ما قيمته 8000 دينار أندلوسي وبين01 ماي1528 و30 أفريــل1529م قدم بنو زيان للأسبان4000 دينار أندلوسي كما دفعوا أيضـــا مابيــن01 مـــاي1529م و31 جويلية من نفس السنة1000 دينار وفي أواخر هذه السنة دفعو أيضا 5000 دينار وأن أغلب الدنانير التي تصب في خزينة الدولة الإسبانية مــن النوع الجيد لأن المعاهدات المبرمة بينهم وبين بني زيان تنص على الدينار لكونه من فئة17 قيراط وهذا موضح لنا بأن العملة الزيانية المتداولة في تلك الفترة بعضها مغشوش مما جعل الأسبان يركزون على هذه النقطة.

استمرت الدولة الزيانية في دفع الضريبة للإسبان ففي خلال سنة1535م اقترح شارل الخامس على بني زيان أن لا يكون التسديد بالدينار فقط بل تدخل في ذلك السلع وخاصة الحبوب والمواشي وتطبيقا لهذه السياسة تحصل شارل

الخامس على6000 دينار و3000 فنقوس قمح قيمتها 1500 دينار و6000 فنقوس شعير بنفس القيمة.

كما نصت معاهدة 1535م التي أمضاها مولاي محمد على أن يدفع للأسبان 4000 دينار من الذهب الخالص والتسديد يكون كل أربعة أشهر زيادة على حصانين وإثني عشر من صقور الصيد.

إذا كان بنو زيان يسددون ما عليهم من ضريبة لصالح الأسبان حسب الإتفاقيات المبرمة بين الطرفين لكان هؤلاء لم يتقيدو بتلك الإتفاقيات فقد نصت إحداهما على أن الضريبة الجمركية التي تجمع من التجار الذين يأتون إلى وهران من باب تلمسان توزع بين الدولتين لم يتم التقيد بينهم وهو ما دفع مولاي محمد أن يكلف الحاخام حيام بنو درهوم في1537/10/9م أن يطلب من حاكم وهران أن يسدد لبني زيان4000 دينار حقا لهم من الضريبة الجمركية يضاف إلى ما سبق أن بعض شيوخ القبائل كانوا يلحون على ملـوك إسبانيا رفع الضريبة على أمراء بني زيان إثر الزيارة لعبد الرحمـن بـن رضوان لأسبانيا1536م إقترح على شارل الخامس زيادة في الضريبة تقدر بـ1000 دينار في حالة ولاية حفيده السلطة في تلمسان وهو مولاي عـبد الله محمد وهذا ما جعله يدفع15000 دينار بمجرد توليه الحكم.

كذلك نجد أنه في سنة1538م طلب شارل الخامس من بني زياني1000 دينار زيادة على الضريبة التي كان من المفروض أن يدفعها مولاي محمد والمقدرة بـ4000 دينار، وهذه الألف تخص إصلاح الطريق الرابط بين وهران وتلمسان.

- العملة:

أثرت الأوضاع السيايسة للدولة الزيانية في العملة السائدة بها فقد كانت عملتها في عصرها الذهبي من أجود أنواع العملة المستعملة في الدول المعاصرة خلال عصر قوتها لكن ضعف هذه الدولة قد أثر في عملتها وهو ما يؤكده المازوني في هذه النازلة بقوله: «سئل الإمام محمد بن مرزوق عن الرجل إبتاع نيلجا بألف دينار دارهم عشرية على الحلول لأن دراهم البلد كثير فيها الفساد عن نقص ولا تترك على وزنها المصطلح عليه في دار السكة وبنفس ما تخرج من دار السكة تنقص حتى لا تكاد نجد في البلد إلا درهما منقرضا، وربما اتفق صاحب الفضة ودار السكة من اليهود على ضربها ناقصة لقلة الضبط وعلة الفساد وصار هذا المقصوص هو الجاري بين الناس ولايتوافقون فيه اصلا وعليه تقع بياعاتهم فنجد هذا المقصوص لحساب اثنين وأربعين درهما للأوقية مثلا والمصطلح عليه في دار السكة من حساب اثنين وأربعين لكنه لا يكاد يوجد فإذا وجد جرى على هذا المقصوص مرة وزادو في نقصان وزنه وبلغ حتى صار من حساب 56 ويخف ذلك وهم مع ذلك لايتوقفون في المعاملة به».

يتجلى من النص أن عملة الدولة لم تكن بالكيفية التي كانت عليها في عصرها الذهبي وهو ما يؤكده الوزان الذي زار الدولة الزيانية في بداية القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي وقد بين لنا بأن العملة المتداولة خلال زيارته لها أنها لم تكن من النوع الجيد وقد نبها أيضا بذلك مرمول عند تعرضه للدولة وبذلك تكون نصوص الرحالة تؤكد ما ورد عند المازوني بشأن فساد عملة بني زيان في عصر الانحطاط إلى ما اكتشف من نقود زيانية لحد الآن لا يتعدّى العصر الذهبي ولذا لا يمكننا القيام بعملية المقارنة بين نقود

للدولة الزيانية في الفترتين وأن الفساد الذي أصاب العملة يرجع بالدرجة الأولى إلى احتكار الجالية اليهودية للأنشطة الاقتصادية خلال عصر الانحطاط زيادة على الاشراف في جباية الضرائب من موانئ وأخذ المكوس على القوافل القادمة لمدنها أو المبارحة لها كما أشرف أيضا على صك النقود وخاصة عاصمة الدولة لذا فقد أنقص من وزنها وفي بعض الحالات يحدث الإتفاق بينهم وبين أمراء الدولة الزيانية لقلت المراقبة على العملة.

يضاف إلى ما سبق توجد عملة غير مغشوشة مثل التي عرفها عصر قوة الدولة.

- الضوائــق الإقتصادية:

تعرضت كتب التراجم إلى سوء الأحوال الاقتصادية في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة تخرج من دار الزيانية فقد ورد على لسان أبوراس في كتابه الحاوي لبند من التوحيد والتصرف والأولياء والفتوى عندما تعرض إلــى تلامبذة الولي الشهير أحمد بن يوسف الملياني ما نصه ومنهم أبو العباس أحمد بن على أبو عمران أن كان المساكين لا يفارقون منزله فيطعمهم في داره وخارجها سيما في زمن المسغبة عام ثمانية وتسعة وخمسين وتسعمائة ،فجاهد في ذلك جهادا كبيرا في إطعام ذوي الفاقة جزاه الله كثيرا، وقد خصه الله بالطعام في كل زمان ويأكل هو خش الطعام ويطعم الفقراء الثريد».

يستخلص من النص أن العلماء وعلى الخصوص أصحاب الزوايا بعد انهيار الدولة الزيانية أصبحوا يقومون مقام سلاطين الدولة في الضوائق الاقتصادية بتقديم الطعام لهؤلاء الفقراء وفي العصر الذهبي للدولة الزيانية كان سلاطينها هم الذين يقمون بهذا العمل وقد أورد ابن خلدون يحي نصا يتعلق بالمجاعة التى عرفتها الدولة الزيانية في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني

فكان هذا الأخير يقوم بنفسه بتقديم الطعام للمحتاجين، وخصص لهم مساحات يستقبلهم فيها واستمر هذا حتى جني المحصول الجديد لأن الضوائق الإقتصادية، نتيجة للجفاف الذي كانت تتعرض له أراضي الدولة الزيانية مما كان يؤدي إلى إرتفاع أسعار المواد الغذائية.

الفصل الرابع

- التجــارة الخــارجية

*** مــع أوروبــا:**

إذا كانت التجارة الداخلية قد تأثرت بالأوضاع السياسية التي عرفتها الدولــة الزيانية والتي تميزت في المرحلة الأخيرة بكثرة الحروب، فــإن التجارة الخارجية خضعت هي الأخرى لتلك الاضطرابات في بعض الفتـرات التاريخية ولنفس المعطيات فهي مثل الزراعة عانت من الأوضاع السياسيــة المتدهورة فتقلص حجمها في الداخل والخارج لانعدام الأمن ولكثرة أعــداء الدولة وخــدام الواجهة البحرية ولمعالجة ذلك يجدر بنا في البدايــة التعــرض إلى بعض العوامــل التي كان لها تأثير إيجابي في التجــارة الخارجية للدولة الزيانية منــها على الخصوص.

- أ: النشاط الأوروبي في البحر المتوسط :

يعتبر الحوض الغربي للبحر المتوسط من أبرز المراكــز الاستراتيجــية الحساسة في العلاقة التي تربط بين البلدان المطلة عليه شمالا وجنــوبا لذلــك عرف صراعا عسكريا حادّا منذ العصور القديمة، وامتــدّ ذاــك إلى فتــرة موضوع البحث لكن هذا الصراع لم يؤثر كثــيرا فــي المبــادلات التجاريــة بيــن بلدان هذا الحوض مما أدى إلى اشتداد التنافس في الميــدان للتجــاري بين تجار هذه الدول.

– ب: المنـــافسة بين الـــدول المسيحية:

عرف حوض البحر المتوسط[1] خلال عصر الدولة الزيانية تنافسا كبيرا بين الدول الأوروبية المطلة على الحوض الغربي للبحر المتوسط وعلى الخصوص الجمهوريات الإيطالية[2] جنوة[3] ليفورن، نبولي، بيزة البندقية venise وإمارة أرغون Aragon وقشتالة Castel ثم البرتغال وجنوب فرنسا وعلى الخصوص مدينة مرسيليا Marseille.

فاشتدّ التنافس بين هذه الدول على السلع الافريقية الآتية من السودان الغربي إلى موانئ دول المغرب الإسلامي بواسطة القوافل التجارية والسلع المحلية كالأصواف والجلود والحبوب التي زاد عليها الطلب في الأسواق الأوروبة وقد أدى هذا التنافس بهذه الدول إلى إقامة علاقات تجارية نشيطة مع الدولة الزيانية وعلى الخصوص في عصرها الذهبي[4].

1– Mas-latrie, (Conde de): Op cit p 320, Traités de paix et de commerce et document divers concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de L'Afrique. Les relations de commerce de L'Afrique du Nord au Maghreb avec les nations Chrétienes au moyen-age, Paris 1886, 556 p.

2–عن التنافس بين الدول الأروبية على تجارة الدولة الزيانية، انظر رسالتنا الاوضاع الإجتاعية و الإقتصادية للدولة الزيانية ص308 – 319 .

3– فيما يتعلق بتجارة جنوة، انظر:
Lespes d'histoire,(René)Oran, étude de géographie et urbaine. Collection centenaire, Paris Alcan, 1939,p502-503

4– أبرمت بين هذه الدول معاهدات حددت بنودها حرية المبادلات التجارية وثمن الـــضريبة الجمركية التي تؤخذ من الدول الأوربية في أسواقها الداخلية كتلمـــسان وموانئهـــا التجاريـــة كوهران وهنين وتنس وجزائر وبني مزغنة وغيرها من موانئ الدولة.

وبعض هذه المعاهدات التجارية منحت امتيازات لبعض الدول على حساب دول أخرى مثل ماحدث بين الدولة الزيانية وإمارة أرغون[1] Argon في العصر الذهبي وبينها وبين اسبانيا في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية لأن أغلب المعاهدات التي أبرمت بين سلاطين هذه المرحلة والدولة الإسبانية نصت على حرية المبادلات التجارية، كما عرفت هذه المرحلة اقتسام مناطق النفوذ بين البرتغال واسبانيا نتيجة لمعاداة توردي زلاس بمبادرة من الكنيسة الكاثوليكية سنة 1494/900 بالمغربين الأوسط والأدنى وعلى الرغم من ذلك فإن هذا لم يضع حدا لتوافد تجار البرتغال وجمهوريات إيطاليا على موانئ الدولة الزيانية فقد أشار الحسن الوزان[2]، في بداية القرن10هـ/16م إلى توافد تجار جمهوريات إيطاليا على ميناء هنين بعد سقوط وهران والمرسى الكبير بيد الإسبان وارتباط بقية موانئ الدولة بالدولة الجزائرية الحديثة أوالتاج الإسباني عن طريق الحماية كتنس[3].

- الموقـع الجغـرافـي

يضاف إلى كثرة التنافس بين الدول الأوربية على موانئها الذي كان له دور ايجابي في ازدهار المبادلات التجارية فإن موقعها الجغرافي لا يقل أهمية عن العامل الأول والسبب في ذلك يرجع إلى مايلي:

1- DUFOURCQ (Ch .E)/La vie Quotidienne dans la Méditerranéens moyen Age. Paris 1975 p12

2- الحسن الوازن: وصف إفريقية، 30.

3- المؤلف مجهول غزوات عروج خير الدين ورقة تعرض إلى بعض السلع التي كانت في طريقها إلى اسبانيا استولى عليها خير الدين وأعاد بها إلى الجزائر خلال حملته على تنس سنة 1517.

أ: إن أراضي الدولة الزيانية تحتل موقعا استرتجيا هاما جعل منها نقطة انطلاق نحو الشمال أي البلدان الأوربية حيث لا تبعد موانؤها عن الموانئ الإسبانية والإيطالية والفرنسية كثيرا مما أثر على المبادلات التجارية بينها وبين هذه الدول المطلة على البحر المتوسط.

في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية اشتد التنافس بين الأساطيل الاسلامية والمسيحية في حوض البحر المتوسط فأثر سلبيا على الموانئ الزيانية وتجارتها، وعلى الخصوص بعد احتلال موانئها الرئيسية التي كانت تتعامل بواسطتها مع الدول الأوربية واقتصر نشاطها التجاري على ارشقول وهنين [1].

أن الدولة الزيانية أعطت أهمية كبيرة للنشاط الزراعي لأن أغلب أراضيها كانت تتميز بعاملين أساسين:

أ: خصوبة التربة فلا تزال لحد الآن سهول متيجة وحوض شلف والسرسو وسيرات ومنداس وغريس وتسالة والأراضي المجاورة لتلمسان تتميز بوفرة الإنتاج وعلى الخصوص الحبوب وتربية المواشي خلال فترة موضوع البحث وما قبلها وهذا ما توصلنا إليه من خلال الوثائق الموجودة في دور الوثائق الأوربية والتي لا يزال البعض منها لم يدرس.

1- إن الدولة الزيانية في عصرها الذهبي كانت تطل على ساحل يمتد من مدينة دلس في الشرق إلى وادي ملوية غربا وهو ماجعلها تمتلك مجموعة من الموانئ لها أهمية في التجارة الدولية ومن بينها ميناء دلس وجزائر بني مزغنة وهران وأرشقول وهنين وكل هذه الموانئ كانت محل توقف وإقلاع للسفن القادمة من الدول الأوربية لغرض التجارة معها وحتى السفن المتجهة نحو المشرق الإسلامي كانت تتوقف بهذه الموانئ لتأخذ منها السلع نحو بلدان المشرق أو لبيع السلع التي تأتي من البلدان المشرقية كما كان تجار هذه الموانئ يتنقلون بسلعهم إلى المشرق على ظهر السفن الأوربية عن انتقال هؤلاء التجارة انظر: Dufourcq (ch.E)/la Vie quotidienne dans les ports mediterraniens P 16. وعن إنتقال هؤلاء التجار انظر: ABD EL BASIT Ibn Khalil/ ar Raudh al bâsim, Op cit p 39.

ب: إن الدولة الزيانية تتميز أيضا بسهولة الاتصال بالواحات الصحراوية في الجنوب الغربي من جهة والجنوب الشرقي من جهة أخرى مما سمح لتجارها إقامة علاقات تجارية نشيطة مع هذه الواحات ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أقامت بها جالية تلمسانية مثل ما هو الحال بالنسبة إلى توات حيث نجد بعض سكان قصورها انتقلوا إليها من أراضي الدولة الزيانية وحافظوا على العلاقات التي تربطهم بهذه المناطق كما استقرت بتوات بعض العائلات منها عائلة العضوني.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل امتدّ النفوذ الزياني إلى السودان الغربي حيث نجد بعض العائلات التلمسانية لعبت دورا في العلاقات التجارية مع هـذه البلدان وأحسن مثال على ذلك عائلة المقري، ثم دور عبد الكريم المغيلي.

خامسا: إن الدولة الزيانية تتحكم في طريق القوافل التجارية منها الطريق العابر للمغرب الإسلامي الذي ينطلق من الأندلس نحو المشرق الإسلامي مما جعل أغلب الرحالة الذين اجتازوا هذا الطريق يصفون الأحوال الإقتصادية للدولة مثل العبدري وابن بطوطة وعبد الباسط بن خليل ثم الحسن الوزان في بداية القرن10هـ/16م.

كما تتحكم تلمسان في المسالك المتجهة من موانئها نحو السودان الغربي مثل الطريق الذي يربط وهران وجزائر بني مزغنة وهنين بالواحات الصحراوية، كفقيق وسجلماسة، وتوات وورجلان.

سادسا: عرف عن سلاطين الدولة الزيانية في العصر الذهبي وفي المرحلة الأخيرة موضوع البحث تسامحهم مع التجار المسيحيين الذين كانوا مقيمين بمدن الدولة وعلى الخصوص مدينة تلمسان.

فالبعض منهم كانوا يزاولون النشاط الحرفي داخل تلمسان ونستدل على ذلك من إحدى رسائل السلطان أبو حمو موسى الثاني وقد بيّن فيها أن بعض هؤلاء المسيحيين كانوا يعملون في ورشات تابعة للدولة، يتقاضون أجورا منها على السلع التي ينتجونها، كما بيّنت كتب النوازل وجود هؤلاء في أسواق الدولة وخروج البعض منهم إلى أريافها لاصلاح حاجيات سكانها كالمناسيج والغرابل وغيرها.

لكن هذه الجالية قد تعرضت لرد الفعل من طرف أهل تلمسان عندما وصلت للمدينة أخبار عن عملية القتل الجماعي لسكان مدينة وهران من طرف الجيش الاسباني فثار هؤلاء ضد الجالية المسيحية بالمدينة[1]، لكن تواجدهم استمر بعد ذلك لأن المعاهدة التي أبرمت بين السلطان الاسباني فرديناند الكاثوليكي Ferdinand le Catholique وعبد الله بن قلمون نصت على الوجود المسيحي بتلمسان[2].

تأتي جمهورية ايطاليا على رأس قائمة الدول التي تعاملت مع الدولة الزيانية في عصرها الذهبي فكان التجار الايطاليون يعرفون أراضي الدولة الزيانية معرفة جيدة، حيث كانوا يتوافدون على ميناء وهران وبقية موانئ الدولة الزيانية الأخرى الممتدة من ميناء أزفون شرقا إلى ميناء هنين غربا للقيام بدور الوسيط في التجارة بين افريقيا وأوروبا.

وإن الوجود الايطالي بموانئ الدولة الزيانية يعود إلى القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي،وبذلك يكون قد سبقوا تجار كاطالونا.

1- الحسن الوزان: المصدر السابق ص23، مرمول: المصدر السابق ج2 ص298-315 عبد الله بن قلمون.

2- Primaudaie(Elie de la) Histoire de l'Occupation Espagnole en Afrique du Nord en R.A 1875P 209

وقد ازداد النشاط التجاري خلال المراحل التي مرت بها الدولة الزيانية حيث احتلت موانئ الدولة المرتبة الأولى في العلاقات التجارية بين دول المغرب الإسلامي واوروبا خلال العصور الوسطى والنصف الأول من القرن السادس عاشر وبخاصة مع البنادقة والفلوراسيين الذين كانوا يأتون بكرة للحصول على السلع التجارية التي كثر الاقبال عليها في الدول الاوروبية كما كانت سفن هؤلاء تتوقف في موانئ بني زيان خلال التحركات بين شرق العالم الإسلامي وغربها.

وكان تجار الدولة وحجاجها يتنقلون إلى المشرق على ظهر هذه السفن وهو ما يؤكده عبد الباسط خليل خلال القرن التاسع الهجري الخامس عاشر الميلادي فيقول عن وهران أنها كانت محل إقلاع أساطيل اوروبا التي تنقل تجار الدولة الزيانية نحو بلاد المشرق الإسلامي والأندلس وحتى البلدان المسيحية ويبدو أن ميناء هنين لقي نفس الاهتمام، حيث كانت تتوافد عليه سفن جمهوريات ايطاليا كجنوة والبندقية حتى الاحتلال الاسباني له سنة.

مثلا أنه خلال سنة 1369/768 انتقل تجار من تلمسان ووهران إلى تونس على سفينة جنوية توقفت بوهران كما أن المبادلات التجارية بين الدولة الناصرية والدولة الزيانية تتم بواسطة سفن الجمهوريات الايطالية فخلال الفترة الممتدة بين7161و727 /1317؛ 1327 توقفت مجموعة من السفن في هنين ووهران متوجهة إلى كل من المرية ومالقا بالاندلس.

لم يتوقف نشاط تجار ايطاليا على المدن الساحلية بل توغلوا في الداخل ووصلوا إلى ورجلان وإقليم توات ومن هؤلاء التاجر مافات الذي رافق القوافل التجارية إلى توات للتعرف على أسواقها لأنها كانت صلة الوصل بين بلان المغرب الإسلامي وافريقية.

وأما التجارة مع فرنسا فقد ازدهرت خلال القرن السادس الهجري الثاني عاشر الميلادي وهي نفس المدة التي احتكرت فيها جمهوريات ايطاليا المبادلات التجاربة بين العالم الإسلامي والمسيحي.

وخلال السلطان الزياني يغمراسن لعب التاجر الفرنسي موندال دورا كبيرا في نقل السلع نحو الموانيء الزيانية إلى ميناء مرسيلية الفرنسي ومنذ سنة 636/ 1239 أصبحت عائلة هذا التاجر من بين العائلات التي تحتكر المبادلات التجارية مع الدولة الزيانية.

وخلال سيطرة عروج على العاصمة وردت رسالة من أحد تجار اسبانيا في تلمسان بيّن فيها للملك الإسباني بأن عروج لم يسمح لسكان المدينة الخروج منها حتى لا تتسرب المعلومات وفي الفترات المتوالية تجد أحد تجار إسبانيا استقر في مدينة تلمسان لمزاولة النشاط التجاري وهو الدكتور اوربيخا lebrja سنة 943هـ/1536م كلف بشراء السلع ومن بينها الحبوب لفائدة حاكم وهران الكوديتي.

- العوامل السلبية:

هذا فيما يتعلق بالعوامل التي ساعدت على ازدهار المبادلات التجارية أما المؤثرة عليها سلبيا فنذكر من بينها:

- إحتكار الإسبان:

عمد الإسبان بعد سيطرتهم على إمارة بني الأحمر بسقوط عاصمة الدولة غرناطة 898هـ/1492م إلى استعمال كل السبل للسيطرة على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط ومن أبرزها وهران والمرسى الكبير حتى يمكن لهم التحكم في شريان التجارة ولكي لا تكون هناك مواجهة مع البرتغالين عمدوا

إلى إبرام معاهدة معهم بتشجيع من الكنيسة لتوزيع أراضي المغرب الاسلامي ومنها الدولة الزيانية لأن شبكة المواصلات البحرية، كانت عماد تلمسان الكلي، أهم شريانها الحيوية شمالا «وهران، والمرسى الكبير، وهنين» إذ كانت تلك الموانئ بمثابة همزة وصل، نحو العديد من دول أوربا المطلة على الحوض الغربي للبحر المتوسط[1].

وقد ازداد النشاط خلال المراحل التي مرت بها الدولة الزيانية حيث أصبحت موانئها تحتل مرتبة هامة بالنسبة للنشاط التجاري العالمي، وخاصة مع البنادقة، والفلورنسيين، والجنويين، الذين يأتون بكثرة للحصول على السلع التجارية التي يزداد الاقبال عليها في الأسواق الأوربية، فكان هذا النشاط يمتد من مالقة غربا، إلى تركيا شرقا، مرورا بالاسكندرية ويتوقف هؤلاء التجار بموانئ الدولة، مثل هنين، ووهران.

لكن سقوط المرسى الكبير، ووهران، في قبضة الإسبان، ثم بعد ذلك هنين، باعتبارها أقرب منفذ إلى تلمسان أثرعلى تجارتها، فتوقف تجار أوربا من غير الإسبان الذين كانوا يعمدون إلى نقل المنتوجات الفلاحية كالأصواف، والجلود المدبوغة، والخيول ومنتوجات مستوردة من السودان الغربي والمشرق الإسلامي، بواسطة القوافل[2].

1- عن علاقة هذه الموانئ بالسوادن الغربي ودول أوربا انظر دراسة DEVISSE (A) change en Afrique occidentale , et relation avec la /Route commerciale et mediterrancée dans revue d'histoire économique, sociales Revue 1972 pp 42 73 et 357-397.

Dufourcq (ch .E) Commerce du Maghreb medieval avec l'europe -2 musulmane donnée connues p 66, Civilisation du Chrétienne en marine Maghreb-Tunis 1979 PP 161-192 .

كما كانت تلمسان تأخذ من تلك الموانئ السلع الأوربية المتمثلة في الأقمشة، والخردوات، والأسلحة، وفي بعض الحالات القمح، عندما يحدث الجفاف في أراضي الدولة الزيانية[1].

وحتى الحملة التي قادها الكوديتي ضد تلمسان سنة **1543/950** كان الهدف من ورائها، احتلال هذه المدينة لأهميتها الاقتصادية فكانت هي المحور من حيث المواصلات، التجارية منها البرية، والبحرية، على هيئة قوافل تجارية تخترق الأفاق فتعرج على العاصمة وتحط رحالها بها، ومنها تنطلق نحو المناطق الشمالية، والجنوبية، والشرقية، والغربية.

وتلمسان تشكل ملتقى الطرق ومحطة للترحال بين أوربا وأُثيوبيا، وكان السلطان الزياني يستفيد فائدة كبيرة من دخول البضائع وخروجها وخاصة اعتبارا من سقوط وهران في أيدي الإسبان واعتقد السلطان عندئذ أنه قد أحسن ضياعهما، ففرض الضرائب وخصوصا على تجار تلمسان، الذين ظلُّوا معفيين منها جريا على عهد السلف من أمراء الدولة الزيانية، وأن فرض الضرائب أثر كثيرا على تجارة تلمسان، مما جعل هؤلاء يقومون بثورة ضد السلطان أبي حمو موسى الثالث، ولعل ذلك كان من بين العوامل التي دفعتهما إلى الاستنجاد بعروج و خير الدين.

وهكذا نجد أن سيطرة الإسبان على موانئ الدولة الزيانية كان لها تأثير سلبي على الوضعية الاقتصادية لهذه الدولة وعلى الخصوص علاقتها بالسودان الغربي.

1- عن هذه الحملة انظر الفصل الثالث من هذه الرسالة المتعلق بالأحوال السياسية ص 88.

فقد كان تجار الدولة الزيانية وورجلان، يقومون بالمبادلات التجارية مع كل من تونس وبجاية وعندما سيطر الإسبان على الموانئ أثر ذلك على هـذا النشاط التجاري ويتمثل هذا التأثر في انتشار الملابس الأوروبية[1]، بدل الزيانية في إقليم السودان، مثلما كانت عليه في العصر الذهبي لهذه الدولة.

- تأثير الاحتلال البرتغالي لسواحل المحيط الأطلسي على تجار المغرب:

إن توجه البرتغاليين نحو ودان، أثر على القوافل التجارية التي كانت تربط منطقة المغرب الإسلامي بانسودان الغربي، فتحولت المسالك نحو المحيط الأطلسي، ومنه يتم نقل السلع الإفريقية نحو الموانئ البرتغالية[2].

وبذلك أصبح البرتغاليون يشكلون خطرا على تجار المغرب الإسلامي، ومـن بينهم تجار الدولة الزيانية، حيث حلوا محلهم في مناطق كثيرة، فتحويل جزء من الذهب نحو المحيط الأطلسي أثر على الدولة الزيانية.

ويذكر ريكاردوRicard أن التجار البرتغالبن كانوا ينقلون الحنابل، التي توجد بسواحل المحيط الأطلسي، وذكر بأن الحنابل تتميز بالألوان الزاهية، ومنها الأحمر والأخضر والأزرق والأبيض، توضع في كل من عنابة، وتـنس، ووهران ومستغانم، ومازونة، وتخلوا على تجارة الدولة الزيانية لأن أراضي هذه الدولة أصبحت ضمن نفوذ الإسبان واقتصروا على ما كان يصنع فـي أسفنى وأزمور، منذ القرن10هـ/16م وهو ماجعل ريكاردو[3] يؤكـد على أن البرتغالين حولوا تجارة الحنابل نحو موانئ المحيط الأطلسي، فأثـروا

1- DUFOURCQ (Ch.E) op.cit P 167.

2- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص165.

3- Brunschvig (R) la Berbérie orientale sur les hafsides des origines à la fin du XVe siècle Paris 1942, 47 p 277.

علـــى صناعت الحنابل، في موانئ الدولة الزيانية، مثل تنس و وهران، التـــي استمرت بها صناعة الحنابل[1].

وتحكم البرتغاليون في مسالك التجارة الصحراوية خلال القرن10هــ/ 16م، جعلهم يحتكرون التجارة التي كان في الماضي يزاولها تجار المغرب الإسلامي، مثل الذهب والعبيد لكن لم يتم القضاء النهائي عليها، ونستدل ذلك من مجموعة من النصوص التي اوردها الحسن[2] الوزان منها أن سوق ديجان، اوجاني، كانت تقوم بتصدير العبيد في اتجاه الشمال إلى بلدان المغرب الإسلامي، ومنها أراضي الدولة الزيانية أما أسعارها في الأسواق فكانت زهيدة مما مكّن التجار من شراء الأعداد الكبيرة منها، فقد كان الحصان في برنوا يساوي ما بين خمسة عشر إلى عشرين عبدا، وتباع الجارية ذات الخمسة عشر في جاو بستتة دوكات.

ويقول الحسن الوزان عن مدينة تمبكتو ينقصهم الكثير من الملح، نظرا لأنه يحمل من تعازي، التي تقع على مسافة تقدر بحوالى مائة ميل من تمبكتو وخلال تواجده بها كان حمل الملح فيها يقدر بثمانين دوكات وارتفاع الثمن جاء نتيجة للأخطار التي تتعرض لها القوافل التجارية.

- احتـــلال وهـــران:

كما أن إحتلال وهران قد أثّر على تجارة البرتغاليين التي يبدو أنها كانت مزدهرة بفضل تحكمهم وتثير البرتغالين في المبادلات التجارية، بعد نجاحهم فـــي الكشوفات الجغرافية فكانوا يأتون إلى وهران لشراء السلع من القوافل التي تتوافد على المدينة، وتشير إحدى الوثائق البرتغالية أن السلع التي كـــان

1- Ibid: l'artisanat Indigène en Oranie, in R .A, 1940.

2- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص164.

بينها تجارهذه الدولة تتمثل في الأغطية والقماش الذي ينقل من هولندا، وبريطانيا، وايكوسيا، وايرلندا.

وفي إحدى الرسائل لملك البرتغال مؤرخة في920هـ/1514/1/17م، ذكر صاحبها بأنه مكلف بالأهالي وعلى الخصوص شؤون المغرب، فيذكـر أن تجارا كانوا يأتون من موانئ الدولة الزيانية إلى مالقا.

وفي نفس الفترة نجد البرانيس التي كانت تصنع في بجاية وزاربي مستغانم، وبرانيس سوداء، من تلمسان، تنقل إلى مالقا، وغيرها من الموانئ الاسبانية، وشارك في نقلها تجار برتغاليون من مراكز انتاجها.

وهنـاك تقـريـر أرسـل لملـك البرتغـال Dmannel بتاريـخ: 919هـ.1513.11.30م من طرف أحد التجار يدعي ألفونس ALphonse يشير إلى استمرار العلاقة الإقتصادية، بين المشرق ودول المغرب الإسلامي، فيقول: " إن عددا كبيرا من التجار قدموا من القاهرة يحملون سلعا مشرقية وقـد رافق القافلة القادمة من الشرق تجار من وهران وتلمسان".

- العـالم الإسلامي:

فيما يتعلق بالمبادلات التجارية مع دول العالم الإسلامي نجد الدولة الحفصية تعتبر من أهم هذه الدول لمجاورتها لها وأن المبادلات التجارية معها كانت تتم بواسطة الطريق الذي يربط بلدان المغرب الإسلامي بالمشرق الذي أصبح يمتد أكثر على الساحل البحري أو قريبا منه ويجتاز المدن التي أصبحت تحتل أهمية بالنسبة للتجارة الداخلية والخارجية كتلمسان ومليانة وجزائـر بـني مزغنة وبجاية وقسنطينة وعنابة وتونس وبذلك كان يتم التبادل التجاري

في أسواق هذه المدن خلال رحلة القافلة إلاّ أن ازدهار النشاط التجاري بهـا كان مرتبطا بالأحوال السياسية للدولتين[1].

كانت المبادلات بين الدولة الزيانية والحفصية تتم بواسطة الطرق البرية والبحرية فهناك طريقان بريان يربطان الدولتين:

أولهما: الطريق الذي ينطلق من المغرب الأقصى فيجتاز أراضيه ثم يصل إلى أراضي الدولة الزيانية فيمرّ بتلمسان وتيهرت ومسيلة ومقرة وطبنة وتبسة ثم القيروان وهذا يعرف بطريق الهضاب العليا.

وهذا الطريق كان يسلك من قبل الرحالة والتجار وكذلك الحجيج المتجهين لزيارة الأماكن المقدسة وقد تعرض له كل الرحالة الذين زاروا الجزائر خلال العصور الوسطى منهم اليعقوبي وابن حوقل والبكري والإدريسي وصاحب كتاب الاستبصار.

وهناك طريق آخر وهو المحادي للساحل، حيث يجتاز المـدن الساحـليـة أو القريبة منا وقد كان أكثر سلوكا من قبل التجار والحجـاج والـرحالـة فـي عصر الدولة الزيانية ينطلق من تلمسان نحو مليانة ومنها إلى جزائر بـني مزغنة ثم بجاية ميلة قسنطينة عنابة ومنها أراضي تونس حاليا.

وكان النشاط التجاري مزدهرا خلال عهد السلطان أبو تاشفين الأول مـع تونس والإمارات التابعة لها بجاية وقسنطينة فقد وفد على تلمسان من بجاية المشدالي مع جماعة من التجار أكرمهم أبو تاشفين وهو ما يؤكده التنسـي بقوله: " أن ناصر الدين المشدالي دخل تلمسان تاجرا فعرّفه أبوزيد بالإمام أمير المسلمين الذي رفع عنه عناد مغرمه ومغرم من جاء معه وكان مائتي دينار ذهبية".

---

1 - Ricard (R): Op cit. P24

بالإضافة إلى هذين الطريقين البريين هناك طريق بحري يربط بين موانئ بني زيان وموانئ الدولة الحفصية، وهومن قول عبد الباسط خليـل: "أن الجنويين أثناء تنقلهم نحو المشرق كان يرافقهم مجموعة من تجار المسلمين من ذلك أنه عندما أراد التوجه إلى الأندلس ركب سفينة جنوية"، وقد أشار فـي نص آخر إلى انتقال تجار وهران إلى تونس بوسطة سفن جنوة وهـو مـا يؤكّده الحس الوزان الذي أشار إلى تجار برشك الذين كانوا يتجرون مع تونس فيصدرون إليها التين ويجنون من ورائه أموال طائلة.

ويشير المازوني إلى تاجر من مدينة مازونة انتقل إلى تونس لبيع الحايك المصنوع بمازونة والحرير المستورد من الدول الاوروبية.

ويذكر ابن بطوطة أنه توجه إلى تونس وكان يرافقه تجار من تونس مات أحدهم بمدينة مليانة.

ففي منتصف القرن9هـ/15م وبالتحديد بعد الهجوم الذي قاده السلطان[1] أبو فارس الحفصي ضد مدينة تلمسان سنة833هـ/1430م انطلقت قافلة تجارية من تلمسان نحو تونس رافقها ابن الرصاع الذي فضل فيما بعد الاستقرار بمدينة تونس وهو ما يؤكد استمرار المبادلات التجارية بين الدولتين خلال المرحلة الأخيرة من حياة الدولة على الرغم من الاضطرابات التي عرفتها الدولتان وانعدام الأمن في مسالكها التجارية وهو ما دفع بتجارهما إلى استعمال السفن الأجنبية في الانتقال بين البلدين ويؤكد ذلك عبد الباسط خليل الذي قال أن الجنونيين أثناء تنقلهم بين دول المشرق والمغرب الإسلامـي كانـوا مرفقين بمجموعة من التجار المسلمين، فهو عندما أراد التوجـه إلـى

1–عن حملة أبي فارس الحفصي على تلمسان سنة 833هـ، 1430م انظر التنسي، المصدر السابق،ص244.

الأندلس ركب سفينة جنوبية، كما بين في نص آخر بأن هناك جماعة من تجار وهران وتلمسان انتقلوا إلى تونس بواسطة الأسطول الجنوبي[1].

ويبدو أن المبادلات التجارية لم تتوقف بين الدولتين بعد الاحتلال الإسبانـــي لموانئهما فقد ذكرت أحد الوثائق الإسبانية أن الكوديتي قــد مــوّن وهران بالحبــوب من الســفــن التي انتقلــت من عنابــة إلى وهران خلال سنــة943/ 1563.

- السـلـــع:

أما السلع التي كانت تنتقل بين الدولتين فهي سلع مستوردة أو محلية فالمازوني يذكر من بين السلع التي نقلها التاجر المازوني إلى بجاية الحايك المحلي، والحرير المستورد من أوربا.

أما الحسن الوزان فذكر لنا بأن سكان برشك كانوا يصدرون التين والكتان إلى تونس بواسطة السفن الجنوية وكانوا يجنون من وراء ذلك فوائد كبيرة.

- الممـــاليـــك:

هذا فيما يتعلق بالدولة الحفصية.

أما دولة المماليك فإن التبادل التجاري بينها وبين الدولة الزيانية يبدو غيــر واضح لانعدام النصوص سواء لدى المشارقة أو الزيانيين ماعدا بعض الإشارات الخفيفة لا تفي بالموضوع، وقد حاولت قدر الاستطاعة ابراز هــذه العلاقة التي ترجع إلى ما قبل هذه الفترة موضوع البحث فقد أشار ابن خلدون

1- Abd al basit Ibn Khalil OP. CIT . P 125 P 135 .

كما ذكر صاحب كتاب الدررالمكنونة في نوازل مازونة أن أحد التجار المازونين كان قد انتقل إلى بجاية لبيع الحايك الذي نسج بمازونة و الحرير المستورد من أوربا ثم عاد منها إلى مازونة محملا بسلع بجائية، ج 2، ورقة 157.

إلى وجود جالية مغاربية وصلت مع القوافل التجارية القادمة من بلدان المغرب الإسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية، كما ترجم السخاوي لمجموعة من العلماء عاشوا في القرن9هـ/15م بعضهم من تلمسان توافدوا على المدن المصرية والحجاز والعراق وبلاد الشام وأغلب هؤلاء رافقوا القوافل التجارية المتجهة نحو المشرق، كما تذكر الوثائق التابعة للمحاكم الشرعية في الإسكندرية مجموعة من الأفراد من وهران ومستغانم وتلمسان في القرن10هـ/16م كانوا يزاولون النشاط التجاري مدينة الأسكندرية وغيرها من مدن دولة الممالك.

كانت دولة المماليك ترتبط بالدولة الزيانية بواسطة شبكة من الطرق البرية والبحرية لكن في هذه الفترة كان التجار يفضلون الطرق البحرية عن البرية لانعدام الأمن في هذه الأخيرة فقد كانت السفن تنتقل من الدول الاوروبية إلى وهران ثم تونس والاسكندرية .

وقد سلك هذا الطريق ابن جبير في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي وصف لنا خطورة هذا الطريق لأن المسافرين يتعرضون فيه إلى القراصنة الأروبيين انطلاقا من جزر البحر الأبيض المتوسط وعلى الخصوص مالطا وكذلك ابن بطوطة الذي قدم من المشرق فنزل بمدينة تنس ومنها توجّه إلى تلمسان وعبد الباسط خليل الذي انتقل من الاسكندرية سنة 1462/866 على ظهر سفينة من سفن البنادقة والسلطان الزياني أبي حمو موسى التاني الذي ركب سفينة كاطولونية متوجهة إلى الاسكندرية لكنه ألقي عليه القبض في بجاية من طرف أميرها فأعيد إلى بلده تلمسان.

من هنا يتبين لنا أن الدول الاوروبية هي التي كانت تسيطر على النقل البحري في حوض البحر الأبيض المتوسط.

وعلى الرغم من خطورة الطريق البري إنه استمر يؤدي واجبه لكنه لم يكن مثل ما كان عليه الحال في القرون الهجرية الأولى وعلى الرغم من هذا فقد أرسل أبو الحسن المريني قافلة انطلقت من المنصورة في تلمسان لنقل هدايا لسلاطين المماليك أشار إليها ابن الخطيب في كتابه أعمال الإعلام القسم الأول وحدد لنا كل محتوياتها لكنها تعرضت إلى النهب بالقرب من مدينة غليزان حاليا وبالتحديد عند زمورة.

- السلع:

أما السلع التي كانت تتنقل بين الدولتين فتتمثل خاصة في الجياد لأن أراضي الدولة الزيانية كانت تشتهر بتربية الخيول وقد زودت دولة المماليك ببعضها وعلى الخصوص خلال الحروب يضاف إلى ذلك البلسان الذي طلبه السلطان المملوكي فيما وقدره عليه ملك تلمسان بقوله: «نحن قوم بادية لا نعرف إلاّ الزيت الذي كان يستعمل في مسح الأجسام لتوفر نعومة البشرة».

أما السلع التي تأتي أراضي الدولة من المشرق الإسلامي فتتمثل على الخصوص في العقاقير مثل جوز الطيب القرنفل والزنجبيل والقرفة بواسطة الجنويين والبنادقة القادمين من المشرق وعبر الطريق البري بواسطة القوافل التي تجتاز المنطقة الممتدة ما بين مصر وتلمسان.

- **طرق القوافل:**

لم تتغير الطرق خلال القرن العاشر/السادس عشر الميلادي بالنسبة لهذه المناطق فهي تلك التي وصفها الرحالة والكتاب في العصور التي سبقت فترة موضوع البحث ومن بينها مسالك القوافل التي تأتي من منطقة توات نحو المناطق التلية في الشمال، وهذا الطريق هو الذي سلكه السلطان الزياني

أبوحمو موسى الثاني[1]، بعد الهجوم المريني على تلمسان، فانطلق نحو جرارة حيث رافق أحد القوافل التجارية.

وهناك طريق مباشر من تلمسان إلى قرية تازا، الجبل تادميت ومنها إلى سجلماسة وقد سلك الطريق كلا من الإدريسي[2]، وابن بطوطة تمبكتوا، فاجتاز جات، وتكدة، وكانت ترافق كل واحد منهم قافلة تجارية متجهة إلى الشمال من توات، التي تعتبر ملتقى للطرق القادمة من المشراق والمغرب الإسلامي.

ومن توات إلى سجلماسة ثم درعه، ففاس، ثم تلمسان و من تمبكتوا تخرج أربع طرق كبرى لسير القوافل يتجه أحدها إلى مصر، حيث يمر بكانم، وحسب الاكوست فهو الطريق الذي يمول مصر بالذهب، وهو يجتاز أراضي المغرب الإسلامي، وابتداء من الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي أصبحت الطرق مباشرة من تمبوكتو وجاجو، تيدكانت عين صالح، غدامس، طرابلس، ثم مدن النيل، وكانت هذه المسالك خطيرة لانعدام الأمن بها[3].

الثاني يقصد تونس، فيمر بالهوقار، والثالث يتجه إلى مراكش، فيمر بسجلماسة، وتوات، حيث يصل تلمسان يبدو أن الطريق المتجه من تلمسان إلى سجلماسة لم يتأثّر لأننا وجدنا نازلة تؤكد ذلك «جوابكم في رجل سافر، من تافيلالت إلى تلمسان، واستعجل إلى المدينة، وترك المودع بالطريق والوديعة عنده فلما قربت القافلة التى بها المودع إلى أحواز وجدة، غارت عليها الأعراب، فانتهوا بعض الحوائج منها وسلم الباقي، فادعى المودع عند قدومه

1-عن هذا الطريق انظر ابن أبي زرع: روض القرطاس: ص24-84 : ابن خلدون العبر، ج7، ص146.

2-الإدريسي: صفة المغرب والأندلس، ص96 . وهو جزء من لوحة المشتاق ص 96.

3-ابن بطوطة: الرحلة، دار صادر، بيروت، ص 675 .

لبلد صاحب الوديعة أنه جعلها في مزود دقيق، وجعل المزود في غرارة فسلبت منه».

نستخلص منه ما يلي:

أولا: أنه على الرغم من الاضطرابات التي عرفتها بلاد المغرب الإسلامي، في أواخر القرن9هـ/15م فإن القوافل التجارية لم تتوقف عن رحلاتها، فقد أوردت الوثائق الإسبانية، أنه خلال محاصرة تلمسان من قبل الإسبان عندما كان عروج بداخلها، وصلت قافلة من السودان الغربي وبقيت بخارج المدينة.

ثانيا: أن غارة الأعراب على القوافل التجارية، زادت عما كانت عليه من قبل وهو ما يؤكده الوزان بقوله: ويعلق[1] في نص آخر بقوله من النادر أن يتمكن أحد من العثور على بعض الطرق الآمنة، وهو ما تؤكده أيضا الوثائق الإسبانية، منها الرسالة المرسلة من حاكم هنين، إلى الإمبراطور الإسباني سنة941/ 1534، جاء فيها « أن القافلة القادمة من تلمسان، إلى هنين، هوجمت من قبل العرب وقتل خمسة وأربعون من المرافقين للقافلة، وقد استولوا عليها لأنها لم تكن مرافقة من قبل الحراس كالعادة».

مما يجعلنا نستنتج أن فترة موضوع الدرس المتميز بكثرة الحروب واستبداد القبائل العربية، لم تؤثر على الطرق المتجهة نحو الجنوب فقط، بل إلى موانئ الدولة الزيانية كهنين، وهران، ومستغانم ففيما يتعلق بالعلاقة بين وهران وتلمسان فقد تأثرت هي الأخرى، لأن القوافل التي تنتقل بين المدينتين كانت تتعرض للإغارة من القبائل، وحتى شيوخ الزاويا، كالملياني[2] لم ينج من هذه الغارات، فقد تعرض مرار إلى النهب والسلب، نتيجة لهجوم الأعراب

1–الحسن الوزان: المصدر السابق ج2، ص 11.

2– الصباغ: البستان، ورقة 16 .

على مواشيه ومحاصله وفي رسالة السلطان الزياني مولاي أحمد لفليب الثاني يصرح له بأنه لا يستطيع أن يرسل الأسرى المسيحيين بمفردهم، إلى وهران لأن الطرق غير آمنة، ولذلك لا بد أن يكونوا مرافقين بمجموعة من الجند[1].

كما كانت القبائل الموالية للإسبان تُغير على القبائل التي توجد مضاربها في المنطقة الممتدة ما بين تلمسان، ومستغانم فهذا يؤثرعلى حركة القوافل[2].

كما تذكر المصادر الإسبانية، أن القراصنة الإسبان كانوا يأتون في الليل، ويختفون وراء الصخور في انتظار مرور القوافل التجارية ثم يغيرون عليها، فكانوا يأخدون من وجدوه في القافلة، لا يتركون الأطفال ولا النساء لمواجهة أخطار الإغارة على القوافل التجارية فعمد سلاطين الدولة الزيانية منذ العصر الذهبي لهذه الدولة إلى تكليف القبائل المجاورة لطرق القوافل، كالمعقل بحراستها[3] يضاف إلى ما سبق أنه كان لهذه الدولة حراس يقومون بحراسة التجار، أنفسهم كالشرطة، التي تقوم بمراقبة البدو الرحل والقيام باستخبارات سريعة ومسبقة، لإبلاغ القافلة بهذه التحركات حتى تحضر نفسها للدفاع.

كان هذا النظام الأمني موجودا في المناطق الأكثر خطورة لكن عندما أصبح الضعف يدب في الدولة الزيانية، لم تعد توجه العناية الكبيرة للمسالك التجارية مثلما كانت عليه خلال عهد السلاطين الأقوياء، مثل أبوتاشفين الأول وأبو حمو موسى الأول والثاني.

1-الرسالة توجد بارشيف سيمنكاس وقد صورنا نسخة منها خلال زيارتنا الاسبانيا وتوجد ضمن مجموعة ملف الشؤون الحربية.

2-أبو راس، الحلل: مخطوط بخزانة سيدي عبد الباقي، بوندي الجمعة، ولاية غليزن ورقة2.

3- أبو راس، الحلل: المصدر السابق، ورقة 2

ثالثا: لعبت هذه الصراعات دورا بارزا في تغيير المسالك التجارية، ابتعادا عن الأماكن الخطيرة فأصبحت القوافل تصل من توات حتى سفوح الأطلس الصحراوي، ثم بعد ذلك تتجه إلى تلمسان[1].

وهناك طريق يتجه من ورجلان نحو الموانئ الشمالية التابعة لإمارة الدولة الزيانية وبجاية.

وهناك طريق آخر يربط تلمسان بالواحات الصحراوية فأصبحت تلمسان مرتبطة بورجلان، وقد أثر على هذا المسلك:

أولا: احتلال الاسبان لكل من وهران والمرسى الكبير، وبجاية ثم هنين، لأن القوافل التى تجتاز هذا المسلك كانت عندما تصل إلى منطقة الحضنة تتوزع فبعض التجار يتوجهون إلى قسنطينة، وبعضهم يتوجه إلى جزائر بني مزغنة بينما البعض الآخر ينتقل إلى موانئ الدولة الزيانية، وهران، المرسى الكبير، مستغانم هنين، أرشقول[2].

ثانيا: اشتداد الصراع بين الإسبان، وباشوات الجزائر، على الطريق الذي يربط جزائر بنى مزغنة، بتلمسان، ومستغانم بتلمسان، وقد وضح لنا الحسن الوزان: « بأن الإسبان كانوا يهدفون إلى غلق الطرق، على الأتراك، حتى لا يستطيعوا السيطرة على تلمسان، التي كانت من بين المراكز التجارية الهامة في المغرب الأوسط».

كما تمكن التجار الأوربيون من مرافقة القوافل التجارية التي تنتقل ما بين توات، وورجلان، وكان الهدف من وراء ذلك تكسير احتكار المسلمين

1- من المناطق التي تشكل خطرا على أمن القوافل التجارية ناحية أنجاد انظر الوزان المصدر السابق، ج2، ص1.

2-الحسن الوزان، نفس المصدر، ج2، ص16-34.

للمبادلات التجارية، والارتباط مباشرة مع تجار إفريقية، ونقل السلع نحـو موانئ المغرب الإسلامي[1].

- مـراكز التجـارة:

مراكز التجارة منها ماهو تابع للدولة الزيانية ومنها ما هو خارجها وتتعامل معها باستمرار هذا فيما يتعلق بالمسالك التجارية فالمراكز التجارية التي يتوافد عليها تجار الدولة الزيانية يمكن أن نقسمها إلى قسمين أولهما:

* الواحات:

من بين الواحات التي كانت تستقبل تجار الدولة الزيانية خلال هذه الفترة مدينة سجلماسة التي اعتبرت من أكبر المراكز قبل القرن10هـ/16م لكن دورها قل عما كان عليه من قبل نتيجة لوصول البرتغاليين إلى سواحل المحيط الأطلسي وتحكمهم في المسالك وتحويل بعضهما إلى المناطق التى أصبحوا يسيطرون عليها، لكن هذا لم يمنع تجار الدولة الزيانية من زيارة أسواقها ونقـل السلع منها إلى أسواق تلمسان وميناء هنين قبل سقوطه بيد الإسبـان سنة 938هـ/1531م.

* تبلبلـت:

ومن بين تلك الواحات تبلبلت التي تحتل مركزا تجاريا هاما لأنها تقع في مفترق الطرق بين توات وسجلماسة والسودان العربي مما جعل أغلب سكانها يزاولون النشاط التجاري وهو ما يؤكده الحسن الوزان بقوله: «أهل تبلبلت

1- L.A. Damaste a le letes / Relation de Voyage Occidentale et l'Afrique 1455-57.P 633.

يتاجرون مع السودان لأنهم فقراء ولأن القبائل العربية التي تتنقل من التلوث بمرافقة القوافل التجارية تفرض أتاوات عليهم».

*** فقــيــق:**

ومن بين تلك المراكز واحة فقيق[1] التي ارتبطت بالدولة الزيانية، فالوزان ذكر أن نساءها ينسجن ثيابا من الصوف على شكل أغطية السرير تتميز بدقتها حتى يظن الناظر بأنها حرير لذلك تباع بثمن مرتفع في مدن بلاد البربر كفاس وتلمسان أما الرجال من فقيق فكانوا يتعاطون التجارة في بلاد السودان الغربي».

*** تســبايت:**

يضاف إلى فقيق تسبايت[2] التي لها هي الأخرى علاقة تجارية مع الدولة الزيانية لوقوعها على الطريق التجاري الذي يربط مدينة تلمسان بالسودان الغربي لذلك يتواجد بها تجار الدولة الزيانية وهو ما يؤكده الحسن الوزان بقوله: "تسبايت على الطريق المؤدية من فاس وتلمسان إلى مملكة اندز ببلاد السودان".

أما في إقليم توات فنجد تبكرارين[3] التي تعتبر حلقة وصل بين السودان الغربي والدولة وقد توصلنا من خلال مجموعة من النوازل الفقهية بمكتبة زاوية البكرنين أن تجار تبكوراين وتوات وعلى الخصوص تمنطيت كانوا على علاقة بالدولة ومن بين السلع التي نقلت إلى تلمسان العبيد والحنة بينما

1-الحسن الوزان: المصدر السابق، ص132 .

2-الحسن الوزان: المصدر السابق، ص133.

3- نفسه:ص133 انظر Barges (J.J.L): Mémoire sur les relations commerciales du Tlemcen avec le Soudan Sous le règne des Beni-Zeiyan en Revue de l'Orient. de l'Afrique et des colonie 1853 p557.

زود هؤلاء تجار تبكورارين بالسلع الأوربية والمحلية وعلى الخصوص اللحم المجفف لانعدام تربية المواشي بهذه الواحات الصحراوية وفي هذا الصدد يقول الوزان: "يباع بها اللحم المجفف والشحم المملح الذي يأتي به تجار فاس وتلمسان ويجنون منه أرباحا طائلة".

- الواحات الشرقية

*** ورجلان:**

هذا فيما يتعلق بالواحات الصحراوية الغربية أما الشرقية فكانت هي الأخرى على علاقة بالسودان ومن أبرزها ورجلان[1] ووادي ميزاب التي عرف سكانها نشاطا تجاريا مع المناطق الشمالية للمغرب الأوسط ومنها أراضي الدولة الزيانية حيث توافد هؤلاء على تلمسان ووهران وجزائر بني مزغنة التي كانت من أملاك الدولة الزيانية وهو ما يؤكده الوزان[2] بقوله: "ميزاب سكانها أغنياء وهي رأس خط تجاري يلتقي فيه تجار الجزائر وبجاية بتجار أراضي السودان".

- السوادن الغربي:

أبرز المراكز التجارية في السودان الغربي.

السلع:

فإذا قارنا تجارة الحبوب مثلا أو الذهب والجلود والذهب أو العبيد بين القرن8هـ/14م و10هـ/16م وجدنا الفرق كبير لأن قوة الدولة وتحكمها في القبائل ومراقبتها لمسالك التجارة أدى إلى إزدهار الحياة الإقتصادية، لكن خلال

1- الحسن الوازن: المصدر السابق، ج2، ص133.
2- نفسه : ج2، ص 136.

فترة موضوع البحث استمرت المبادلات التجارية إلا أنها لم تكن كما كانت عليه في عمر الدولة الذهبي ومن بين السلع التي نقلت لأسواق الدولة الزيانية.

- الـــذهب:

من أهم السلع التي اشتد طلب تجار الدولة الزيانية عليها خلال هذه المرحلة مايلي:

وعلى الرغم من سيطرة البرتغالين على الموانئ التابعة للمغرب الأقصى وتحكمهم في تجارة الذهب فإن هذا لم يحل دون وصول القوافل المحملة بالذهب إلى موانئ الدولة الزيانية، ففي سنة 859هـ/1454م وصلت قافلة تجارية من ودان إلى وهران محملة بالذهب[1] وفي السنة الموالية أرسل البرشلونين سفنهم إلى مدينة وهران حاملة السلع الإسبانية ليتم تبادلها بالذهب وقد مكثت تلك السفن مدة في وهران في انتظار وصول القافلة القادمة من السودان الغربي[2] ومما يوضح لنا ازدهار تجارة الذهب في المرحلة الأخيرة فإنه خلال سنة865هـ/1462م نقل التجارالجنوبيون كمية من الذهب من موانئ الدولة الزيانية نحو ميورقة وبرشلونة.

- الـعبـــيد:

يضاف إلى الذهب تجارة العبيد التي ساعد ازدهارها الموقع الاستراتيجي للدولة الزيانية وهو ما يؤكده الحسن الوزان بقوله: " أنها محطة بين أوربا واثيوبيا".

1- HEERS (J): Gênes au XV^e siècle l'Afrique du Nord et le monde Ibérique, Paris, 1961, p476

2- Ibid P480.

فكانت تستقبل العبيد من الدول الأوربية ومن السودان وقد حدد الحسن الوزان[1] بعض أسعار العبيد من مدينة تمبوكتوا فقال: "بأن العبد الواحد يساوي خمسين فرنكا يباع بأربعمائة أو خمسمائة بأراضي الدولة الزيانية".

ومن بين الذين حددوا لنا أسعار العبيد الرحالة ابن بطوطة الذي ذكر بأنه اشترى مجموعة من العبيد من تيكدة وهي من أهم أسواق السودان المصدرة للعبيد ثمن العبد الواحد خمسة وعشر مثقالا.

أما ديجان اوجان فكانت في عهد الحسن[2] الوزان تصدر منها العبيد نحو بلدان المغرب الإسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية حيث تم نقلهم من وهران وهنين إلى الدول الأوربية وأسعار العبيد تبدو زهيدة اذا ما قورنت بأسواق الدول الأوربية في الشمال مما مكن التجار من شراء الأعداد الكبيرة فقد كان الحصان في بورنوا يساوي ما بين خمسة عشر إلى عشرين عبدا وتباع الجارية ذات الخمسة عشر في جار بستة دوكات زيادة على الرقيق والذهب الأحجار الثمينة والشب والعنبر وريش النعام.

- السلع المصــدرة:

هذا من ناحية الاستيراد، أما من ناحية التصدير فتأتي سلع الملح في المرتبة الأولى، لأن ندرتها وتعذر الحصول عليها جعل منها سلعة عزيزة مع تزايد طلب السودانين عليها فارتفع ثمنها فأصبح تجار الدولة الزيانية يحصلون من بيعها على أكبر كمية من الذهب واشهر المناطق التي ساهمت في انتاجه تغزة وفي هذا الصدد يقول الوزان: فقد وصلت إلى هذه المدينة في وقت كان

1- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص23 .
2- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص126 .

حمل الملح فيها يقدر بثمانين دوكات وارتفاع الثمن جاء نتيجة تعرض التجار الداخلين إلى بلاد السودان للمشقة والأخطار.

تلمسان لا تليق بحالنا، ولكن لطف الله، فكيف يرجى الخير ممن يسوسه يهودي وفجار ومن ليس بتراضى[1]. ومن بين السلاطين الذين اعتمدوا على الجالية اليهودية أبو حمو موسى الثالث الذي قال في شأنه السليماني: "وزاد من اضمحلال دولة ابن قلمون منذ أن قدم اليهود للديوانة واعتمدهم في حالة شؤون الجبايات وتحديد الضرائب ومدخولات البضائع الموانئ البحرية على الصادر والوارد، وكان قدم لوهران منصرفا من أغنياء اليهود يدير حكامها وجبايتها فعقد هذا المتصرف اتفاقا تجاريا مع الإسبان المترددين على مدن الساحل تمكنوا بسببه من التصرف في المرسى ومراقبة المراكب الواردة والصادرة[2]".

الذي يستخلص من هذا النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن الدولة الزيانية كانت تملك مجموعة من الموانئ مخصصة لتصدير السلع واستيرادها من الدول الأوربية وتلك السلع يدفع أصحابها ضريبة تعرف بالضريبة الجمركية وهي تختلف باختلاف السلع، حسب قيمتها، والدول التي تتعامل معها الدولة الزيانية لأن كل دولة من تلك الدول تدفع نسبة حسب المعاهدات المبرمة بينها وبين هذه الدول وهي تترواح بين5%و10%[3] وقد لجأ هذا السلطان إلى اليهود لعلاقتهم بهذه الدول لأن بعض المهاجرين اليهود

1--المقري نفح الطيب، ج5، 156 .

2- السليماني ،المصدر السابق ،ج3، ورقة 100،ابن زرفة، المصدر السابق ، ج2 ، ورقة 42 ، أبوراس، المصدر السابق ، ورقة 37 .

3- عن موضوع الديوانة انظر . MAS (LATRIE) (L.de): Traités de paix pp226-357.

في أراضي الدولة كانوا يعيشون في تلك الدول قبل طردهم منها ولذا فهم يحسنون لغاتها.

ثانيا: إن تفضيل اليهود عن غيرهم كان له دور سلبي على أحوال الدولة فكانوا يحتكرون تجارة هذه الدولة ويتصرفون في عائداتها من الضريبة الجمركية لمصالحهم الذاتية فهم لا يصرحون بكل المداخيل التي تأتي من السفن القادمة لتلك الموانئ كما عقدوا اتفاقيات سرية مع تلك الدول وكان من بين نتائجها المؤامرة التي دبرها هؤلاء لصالح الاحتلال الإسباني[1].

ثالثا: في السابق كانت الدولة الزيانية هي التي تحدد ثمن الضريبة حسب ما ورد في المعاهدات التجارية[2] لكن في هذه الفترة أفراد الجالية اليهودية هم الذين يحددون أسعار الضريبة الجمركية على السلع الصادرة والواردات من تلك وإلى الموانيء وهذا يعتبرا تدخلا مباشرا في شؤون الدولة.

- علاقة اليهود بالإسبان :

كما استغل هؤلاء اليهود العلاقة التي ربطتهم بالمراكز الإسبانية في كل من المرسى الكبير ووهران للإستفادة منها وفي هذا الصدد يقول أبوراس «إن يهود وهران كانت لهم صولة عظيمة على بنى عامر لكون الجباية كانت على يد اليهود دون الإسبانين فكان اليهودي لعنهم الله يخرج من محلته لقبض ضرائب بنى عامر فيضرب جباؤه بواسطة دواوير بنى عامر من أولاد عبد الله وغيرهم ثم يتصرف فيهما تصرف الملك في رعيته بما شاء يأمر

1- السليماني: المصدر السابق ، ج3، ورقة 100

2- MAS LATRIE, Op cit, P 358; Dufourcq .(ch.E.)L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIII^{e} et XIV siecles .Paris 1966 .P.P.176-228

وينهى فيصادف هذا في الأغلال ويضع على رجل هذا الأكيال ويجلد هذا ويتجلى سبيل هذا إلى غير ذلك دون معترض له[1]».

الشيء الذي يستخلص من هذا النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن الإسبان بعد سيطرتهم على كل من المرسى الكبير ووهران احتاجوا إلى أموال لسد مصاريف الحاميات العسكرية بها لأن اسبانيا كانت تعاني أزمات اقتصادية نتيجة لكثرة مصاريفها في مستعمراتها بالعالم الجديد لذلك فإن تغطية تكاليف الحملة على المرسى الكبير ووهران كان بفضل أموال الكنيسة الإسبانية لذا لابد من إيجاد مجال للحصول على الأموال ولذا لابد من فرض الضرائب على القبائل المعادية لهم والموالية مثل بنى عامر وبنى راشد وأحسن من يقوم بهذا الدور اليهود لعلاقتهم بالسكان.

ثانيا: إن هؤلاء هم الذين يقومون بجباية الأموال لصالح الإسبان حيث يخرجون إلى مضارب بنى عامر ويمكثون بين ظهرانهم فترة زمنية حتى يسددوا لهم الضرائب المفروضة عليهم وكل من يرفض ذلك يكون جزاؤه القتل أو الأسر[2]».

- دورهم في جبي الضرائب من القبائل الموالية للإسبان:

كانت القبائل العربية في عهد قوة الدولة مضطرة إلى دفع ضرائبها للدولة فقد تعرض ابن خلدون إلى دفع الجباية من قبل هؤلاء فذكر بطون قبيلة سويد

1- أبوراس: المصدر السابق، ورقة 39 ، المشرق بهجة الناظر ، ورقة الرحلة القمرية ، ج1 ، ورقة 43.

2- المشرفي ، المصدر السابق ، ورقة 16 .

في عهد يغمراسن[1] بن زيان كانوا يقدمون ضرائب لصالح الدولة وهم محسن بن عمارة وأخوه سويد بضواحي وهران[2] صاروا من أعداد الرعايا أهل الجباية، وكذلك عكرمة من بني يزيد الذين عجزوا عن الطعن فنزلوا بجبل كربكرة.

- اعتماد سلاطين الدولة على اليهود في الإقتصاد:

عرفت الدولة الزيانية في هذه المرحلة سيطرة العنصر اليهودي، على الوضعية الإقتصادية للدولة لاعتماد سلاطينها على هؤلاء اليهود، ونجد هناك نصوصا تشير إلى ذلك منها:

«كان للسلطان الزياني، أعوانا من اليهود لجباية الأموال وقبض الأعشار، العامرين من الإسبان، وغيرهم من المتوافدين للتجارة على سواحل المغرب الأوسط، فاستطالوا على الرعايا بظروف الشغل وأخذ الأموال بغير حق وتوظيف الضرائب المتنوعة[3]» يستفاد من هذا النص مايلي:

أولا: أن الدولة الزيانية في هذه المرحلة عرفت ضعفا نتيجة لانفصال بعض بطون قبيلة بني عبد الوادي عن الأسرة الحاكمة ومعارضة علماء الدولة لهؤلاء السلاطين جعل الناس يرفضون وظائف الدولة وعلى الخصوص جباية الأموال التي تتنافى بعض قوانينها مع الشريعة الإسلامية التي تجدد الضرائب لكن في هذه المرحلة حسب النص «توظيف الضرائب المتنوعة»[4].

1- تولى يغمراسن الحكم ما بين سنة 633هـ/1236إلى 681هـ/1283، انظرابن خلدون العبر، ج7، ص164-165

2- نفسه ، ج7 ، ص164

3-السليماني كتاب الشماريخ ، ج3 ، ورقة 99

4- ابن زرفة الرحلة القمرية، ج 1، ورقة 42 .

ثانيا: إن الاعتماد على الجالية اليهودية لم يكن حديث العهد بـــل ذكـــر ابـــن مرزوق في كتابه المسند بأن القوافل التجارية التى تدخل تلمسان كانـــت تفتش من قبل أفراد من الجالية اليهودية نساء ورجالا بالأبواب الرئيسية لهـــذه المدينة وعلق أحد المرازقة على هذه الوضعية بقوله: التي كان تجار الدولـــة يتعاملون معها.

- مملكة غينيا:

كانت هذه المملكة محل اقبال تجار الدولة الزيانية الذين كانوا يحملون إليها السلع القادمة من الدول الأروبية والمتمثلة في المنسوجات والخردوات والأسلحة ويأخذون مقابل ذلك العبيد والتبر والملابس القطنية الغانية وفـــي هـــذا الصدد يقول الوزان : "يحقق أهل مملكة غينيا أرباحا هائلة في تجارة قماش القطن مع تجار بلاد البربر الذين يحملون إليهم الكثير من الثياب الأوروبية والنحاس والسلاح كالخناجر".

مملكـــة مـــالي[1]:

لم تكن تجارة الدولة مقتصرة على مملكة غينيا[2] فقط بل شملت مملكة مالي وعلى الخصوص تمبوكتو حيث تنقل اليها الأقمشة، من الدول الأوروبية التي كانت تزود بها أسواق الدولة الزيانية والجياد وهو ماجعل الوزان يعلق على ذلك بقوله: "تمبكتو تصل إليها أقمشة أوروبا" [3].

1-كتب في الأصل (ملى) وكذلك يكتبها السعدي وغيره من المؤرخين السودانين و هي المملكة العظيمة التي كونها شعب الماند نيغوا وبلغت أوج عظمتها في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ،انظرالوزان الهامش رقم 11،المصدر السابق، ج2،ص162.

2- الحسن الوزان: المصدر السابق ،ج2،ص162 .

3- نفسه، ج2 ، ص165 .

- **أثر الجـالية اليهودية بموانـئ الدولـة:**

لم يكن تأثير الجالية اليهودية مقتصرا على الواحات الصحراوية فقط بل امتد إلى الموانئ الساحلية للدولة الزيانية بمدينة وهران التي لم تكن في الفترة الأولى من العصور الوسطى ضمن المناطق التي تتميز بوفرة أفراد من الجالية اليهودية إلاّ أن توافد هؤلاء بدأ مع ازدهار الحركة التجارية بين الدولة الزيانية والدول الأروبية، والمضايقات التي تعرض لها اليهود في الأسواق الأوروبية مما جعلهم يفضلون الهجرة إلى أراضي الدولة الزيانية، ومن أكبر حاخمات وهران سيمون بن سماح وكانت العلاقة نشيطة بين اليهود الذين هم من أصل مغربي والوافدين على وهران منذ القرن 8هـ/14م[1].

كذلك نجد أن هؤلاء كانوا يزاولون النشاط التجاري مثل إخوانهم الذين هم من أصل مغربى، فالاختلاف بين القدماء والوافدين كان في اللغة والجوانب الاجتماعية[2].

بعد سقوط مالقة[3] وغرناطة[4] وميورقة[5] انتقل يهودها إلى أراضي الدولة الزيانية حيث وجدوا بها المساعدة، كما زاول بعضهم النشاط التجاري مع إسبانيا وإيطاليا عندما كان تجارها يتوافدون على وهران.

كما تعرضت الوثائق الإسبانية إلى الجالية اليهودية التي هاجرت من الأندلس بعد سقوط القواعد الإسلامية بها فذكر بأن يهود وهران من أصل

1- من أهم الهجرات هجرة 1392 ،انظر: Dufourcq (Ch .E) Op cit P266 .
2- Ibid P 227.
3- سقطت مالقة سنة 886/1490 ، انظر المقرى نفح الطيب ، ج5 ، ص ص 266- 267 .
4- المقري: نفح الطيب ، ج5 ، ص237 .
5- نفسه ، ج5 ، ص239 .

اندلسي توافدوا عليها بعد سقوط غرناطة1492/887م وكونوا بها مؤسسات تجارية احتكروا خلالها النشاط التجاري بها.

وخلال الاحتلال الإسباني لوهران915هـ/1509م كانوا يشرفون على مؤسسة الديوانة ويتحكمون في القوافل الآتية والمبارحة لوهران وكان هؤلاء يدفعون ضريبة عند دخولهم إلى وهران وما عدا سكان المدينة الذين كانوا يعانون من تلك الضرائب لذلك كان التجار المتوافدون على وهران يكلفونهم بإدخال سلعهم إلى المدينة حتى تكون معفاة من دفع الضريبة وقد أشار إلى ذلك عبد الباسط خليل عند زيارته لوهران[1].

لم تكن وهران هي الوحيدة التي تتواجد بها الجالية اليهودية بل نجد مستغانم ومزغران ولعل تنس أيضا كانت بها جالية يهودية تزاول النشاط التجاري.

تحتوى الوثائق الإسبانية على مجموعة من المعلومات تتعلق بالجالية اليهودية ومن بين تلك الوثائق معاهدة سنة924هـ/1535 التي أبرمت بين الإسبان والدولة الزيانية وقد نصت على أن اليهود كانوا طرفا في تلك المعاهـدة فأغلب البنود الواردة فيها أشارت إلى تجار اليهود إلى جانب التجار المسلمين.

كما تذكر تلك الوثائق بأن اليهود تعاملوا مع الإسبان بعد احتلالهم لمراكز الدولة الزيانية ومن بين تلك الوثائق وثيقة ترجع إلى سنة 946هـ/1539م نصت على التعاون بين هؤلاء وحاكم وهران الكوديتي[2].

1- ABD AL BASIT, Op cit p 143

2- عن هذه المعاهدة انظر رسالة مولاي محمد المؤرخة في 5/ 9/ 1535 سمنكاس legajo F 138 -19 B

وخلال الصراع الذي حدث بين الإسبان والأتراك على أملاك الدولة الزيانية كان لليهود دور أساسيى في أغلب المدن وقرى الدولة الزيانية سابقا. فكانوا يعملون كعيون لصالح الإسبان.

ومما يؤكد ذلك مجموعة من الوثائق الإسبانية تبرز ذلك الدور الذي لعبه اليهود وعلى الخصوص ما يتعلق بتقديم المعلومات للإسبان عن الأتراك لأنهم كانوا في كل من وهران وتلمسان والجزائر كما كانت العلاقة بينهم حسنة للغاية.

ولم يكن الأمر مقتصرا على الأتراك فقط بل امتد نفوذهم إلى المغرب الأقصى ففي سنة1550 عمد أحد اليهود ويدعى يعقوب إلى تقديم معلومات هامة عن الحالة السياسة للمغرب الأقصى فقد تناول في تقرير كيفية دخول السعديين لفاس وتوسعهم على حساب ما تبقى من الدولة الوطاسية. يتوافدون على المدن والقرى المزاولة للنشاط التجاري ويرافقون القوافل التي تتجه إلى كل النواحي كما قدم معلومات عن التلمسانيين الذين هاجروا من تلمسان إلى فاس وموقفهم من الدولة السعدية.

ومما سهل مهمة هؤلاء اليهود أن علاقتهم بالأهالي كانت جيدة عكس الجالية المسيحية فكانوا بالمغرب الأقصى وتونس وحتى السوادن الغربي ومما يؤكد قولنا هناك مجموعة من النوازل تتعلق بالجالية اليهودية الموجودة بأراضي الدولة الزيانية والدور الخطير الذي أصبحو يقومون به[1].

ففي هذا الصدد يقول الونشريسى: «ورد علينا يهودي اشتغل بأعمالهكأمثاله من اليهود ثم استقر أمره أنه شاعر وساحر ومهين للمسلمين مشيئة المتجبرين

1- العقباني، المصدر السابق، ص171

والمتكبرين فانتهى أمره إلى سب المسلمين بأن لا أصل لهم ولا حسب ولا نسب وأن يهود الهربين رؤساء شرفاء».

نستخلص من النازلة مايلي:

أولا: إن الونشريسى يحدد لنا أن صاحب السؤال من قلعة بني راشد التي كانت من بين المراكز التجارية حيث كانت تأتيها القوافل التجارية من مدن الدولة الزيانية، وقد زاد في ازدهار ذلك النشاط غنى أراضيها بالمحاصيل الزراعية وتربية المواشى مما أدى إلى ازدهار الصناعة النسيجية، ولعل اليهود كانوا يشرفون على تجارة القلعة وورشاتها الصناعية.

ثانيا: إن المكانة التي أصبح عليها اليهود في هذه المرحلة من حياة الدولة الزيانية جعلهم لا يكتفون بعدم تقديم الجزية فقط، بل أساؤا إلى المعتقدات الإسلامية ودخلوا في جدل مع المسلمين يتعلق بقواعد الإسلام.

- الدول الأوروبية:

*** اسبانيا:** ففي هذه المدة كانت مالقة تحتكر المبادلات التجارية في البحر المتوسط لصالح التاج الاسباني فكان تجارها يتوافدون على سواحل المدن المطلة على البحر المتوسط، ومن بينها المراكز التي استولى عليها الاسبان.

ومن بين الوثائق التي تخص أراضي الدولة الزيانية الوثيقة المؤرخة في أفريل من سنة 914هـ/1508م، جاء فيها: " أن أحد التجار الإسبان كان يحتكر المبادلات التجارية، ويربط علاقات في الأراضي الممتدة مابين جبل طارق، وتنس، حيث يبيع لهم السلع الاسبانية ويشتري منهم السلع المحلية الآتية من السودان الغربي".

وفي سنة 916هـ/1510م، وهي السنة التي عرفت نجاحا للسياسة الإسبانية، باستيلائها على كل من وهران، وبجاية، والجزيرة المقابلة لجزائر بني مزغنة، فاستفاد من هذه الوضعية واحتكر تجارها المبادلات التجارية، في كل من وهران، وتنس، وتلمسان، ومن بين هؤلاء التجار الذين كانوا يتوافدون على تلك النواحي سانشو ألفونسو[1] وأصله من مدينة مالقا أرسل كمية من السلع إلى أراضي الدولة الزيانية من مدينة مالقة، وقبله كان تجار اسبانيا لا يتوقفون عن زيارة نواحي عمارة، والأراضي المجاورة لمليلة، وهنين، للقيام بالمبادلات التجارية.

كما تذكر الوثائق الإسبانية، أن حاكم المرسى الكبير، بعد احتلاله المدينة عمد إلى إقامة سوق بخارج أسوارها، كانت القبائل تتوافد عليه لشراء ما تحتاج إليه من السلع الإسبانية وبيع منتوجاتها الفلاحية وعلى الخصوص الحبوب، والجلود، والاصواف[2].

ومن القبائل التي كانت تتجر مع الإسبان، قبيلة قيزة التي قيل عنها، ولم يكن أحد أشد اعتناء بالاسبان وتحقق ما يحتاجون إليه من التبن والحشيش، والحطب والسمن، واللبن والعسل، والضأن والمعز، والبقر، والخيل والإبل، والبغال، والحمير، من جميع الاعراب الداخلين تحت حكمهم، فكانوا لا ينقطعون عنهم ليلا ونهارا رغبة لما لهم في ذلك من الثمن الكثير.

Gabllerllama Liezar , Malaga el commercia norte fricana , Micalas -1 Madrid 1969 op cit , p188 Sources inédites d histoire du ,1517-1551,p183 Maroc t III , p5

2- انظر التقرير المرسل من قبل جون لوسا Juan Losa للامبراطور فرناندو الرابع Fernando IV مؤرخة في 1506 انظر ارشيف سيمنكاس Secretaria de estada lezajos .3 n232 F8

فهذا النص يوضح لنا بأن ازدهار المبادلات التجارية، بين هذه القبائل، والمراكز الاسبانية، تعود بالدرجة الأولى، إلى ارتفاع أسعار المواد التـــي كانــوا يتجرون بها، وعلى الخصوص إذا كانوا في أشد الحاجة إليها.

وما يقال عن قيزة، نجده بالنسبة لتجار مزغران، الذين كانوا يتوجهون إلـــى وهران، لبيع منتوجاتهم الفلاحية، في حالة السلم لكن عندما يتخلون عــن هــذه المعاملة يتعرضون للغارة من قبل الحامية الاسبانية في وهران.

أما أهل قلعة بني راشد: فيقول عنهم المشرفي[1] حدثني بعض أهل المعسكر أنهم كانوا يأتونه لحاكم وهران، بالزرع المضروب عليهم، فيرده وكيله في وجوههم ويتعلل بعدم صفائه، ويلزمهم تبديله بما هو أصفى منه، فيأتونه له مرة أخرى وربما فعل بغير ذلك مرارا ولا يقبله منهم بعد ذلك حتى يرشون».

فهذا النص الذي أورده المشرفي نستخلص منه مايلي:

أولا: أن مدينة معسكر، والأراضي المجاورة لها من أغنى الأراضي فـــي إنتاج المحاصيل الزراعية، لذلك يكون هناك فائض في الإنتاج يتطلـــب تصديره، ومن أقرب المناطق وهران، التى يتوافد عليها تجار أوروبا لحمـــل هذا المحصول .

ثانيا: إن معسكر، وقلعة بنى راشد، من بين المناطق تعتبر علاقتها بين القوى المتصارعة في المنطقة، لذلك فهم مع العثمانيين ومع السعديين وأحيانا مع الإسبان، مما جعل موقف هؤلاء منهم يختلف عن موقفهم من القبائل العربية، وعلى الخصوص بنى عامر لذلك يختلفون لهم مشاكل عندما يأتون لبيع محصولهم الزراعي.

1– عن مزغران انظر رسالة أهالي مستغانم و مزغران و يهودها و المؤرخة في 1511/05/28 نشرها La Primaudaie IV 17-19 XIX 74-66.

ومن بين الذين يتجرون مع وهران: سكان أغبال الذين قال عنهم مرمول: " الأراضي المجاورة لأغبال، مسكونة من الأعراب فهم أغنياء بأراضيهم، ومواشيهم، وأن تجارتها مع وهران، ويتوقف استمرارالنشاط التجاري، على حفظ العلاقات الحسنة مع وهران".

والقبائل التى كانت تتعامل مع المراكز الإسبانية في كل من وهران، والمرسى الكبير، كانت تتحصل على رخص من الادارة الإسبانية، تسمح لها بمزاولة النشاط التجاري والدخول إلى المدينة، في حالة الحرب التى كانت تقوم بها الحامية الإسبانية، على القبائل المعارضة لها والقوة العثمانية لم تتوقف إسبانيا عند هذا الحد فقط بل كانت تعمل من أجل إحتكار تجارة المنطقة لصالحها مما جعلها تدخل في صراع مع الدول الأروبية التى كانت لها مصالح وفي924هـ امضيت ببلاد الوليد من قبل كلانصخوا ثم الملك كارلوس والملكة خوانة والكاتب العام للبلاط الملكي أما المناطق التى من هذه العلاقة هي قادس ونواحيها وبذلك قام مجلسها البلدي بمكاتبة الإمبرطور موضحا له خطر هذه العلاقة على التجارة وهو ما جعله يتصل بالدولة البرتغالية لاعادة إحياء المعاهدة التى أبرمت بين الدولتين حول تجارة التوابل والتى حررت بمدينة طليطلة قبل سقوط مملكة غرناطة في 885 هـ/1480/6/26.

كذلك توضح الوثيقة بأن نشاط البرتغاليين في موانىء المغرب الإسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية قد أزعج المدن الإسبانية مثل قادس نتيجة للمعاهدة التى أبرمتها البرتغال مع دول المغرب الإسلامي .

وفي سنة 1528، عمد شارل الخامس إلى تشجيع المبادلات التجارية، بين موانىء تجارية في المنطقة كجمهوريات إيطاليا وفرنسا و البرتغال.

فيما يتعلق بالبرتغال نجد ضمن وثائق مالقة نص المعاهدة التى أبرمت بين

البرتغال ودول المغرب الإسلامي الذين أطلق عليهم اسم مورو[1] وكان لها تأثير على تجارة إسبانيا وهو ما أدى بهذه الأخيرة إلى الاتصال بالبرتغال وإمضاء معاهدة مؤرخة في **1518/2/4/** بين إفريقية وإسبانيا، وعلى الخصوص في المنطقة الممتدة من غمارة إلى تنس[2].

المبادلات التجارية بين إسبانيا، والدولة الزيانية تأثرت بالحروب التى كانت تتخبط فيها الناحية، وهناك أمثلة كثيرة منها: أن قلعة بنى راشد[3] كان لها دور في تموين وهران «لأنها من أغنى بلاد الله زرعا وضرعا تعطى الميــرة «أي الطعام» لكل ناحية وهران، فكانت الحبوب تنتقل منها إلى كل مــن المرسى الكبير، ووهران[4] إلا أن هؤلاء التجار توقفوا عن تمويل المراكز بعد سيطرة الحامية التركية على قلعة بنى راشد، وهو ما يؤكده صاحب كتاب غزوات عروج وخيرالدين « فلما تمكن عروج من مملكة تلمسان منع أهل القلعة من امداد النصارى بما كانوا يمدونهم فضاقت أحوال النصارى واشتد عليكم الأمر»[5].

ولعل وقف تموين وهران كان من أبرز الدوافع التى أدت بالسلطان الزيــاني أن يجد قبولا من قبل ملك اسبانيا بتزويده بما يحتاج إليه من الجيش،

1- عن هذا انظر: F - Archivo de Simancas diversos de castilla numero 975 .16 - 18

2- انظر التقرير الخاص بالمجلس البلدي لمالقة والمؤرخ في 8/6/ 1529، و خاصة الفقرة المتعلقة بتشجيع المبادلات التجارية و تزويد وهران بما تحتاج له من المتطوعة و المواد الغذائية تحمل الوثيقة .A . E . Co R.el no 129 Co 7064 - 129

3- مؤلف مجهول: غزوات عروج و خير الدين، ورقة 29.

4- يذكر الحسن الوزان الذي زار المدينة خلال بداية القرن 10هـ/ 16 ان وهران تتزود بالحبوب من المناطق القريبة منها، انظر، وصف إفريقية، ج 2، ص 386.

5- لمؤلف مجهول: نفس المصدر، ورقة 29 .

لأن أبا حمو قال للإسبان لو بقي الأتراك بقلعة بني راشد فستكون النهاية للإسبان بأراضي الدولة الزيانية.

وأحيانا نجد هؤلاء الإسبان يعمدون إلى الإغارة على مضارب القبائل، والقرى أو المدن عندما يكونون في أشد الحاجة إلى المواد الغذائية، ونستدل على ذلك من خلال إحدى الرسائل التي ترجع إلى سنة( )[1]، ذكر صاحبها "بأن شيوخ أغبال لم يتقدموا إلى بيع وهران، لبيع منتوجاتهم الغذائية، ولهذا لا بد من إرسال الجند للسيطرة على الأعمال، لأن المدينة تحتاج إلى أكثر من خمسين ألف Fanogus حبوب[2].

ووهران تحتاج إلى المواد الغذائية، لأن القبائل العربية لم تصدر لها تلك المواد منذ ثمانية أيام، وأن المدينة تعيش ضائقة اقتصادية وإذا استمر الأمر على هذا الحال فإننا لا نجد ما نأكله، لايوجد إلا مائة ثور، وخمسمائة رأس من الأغنام، ولم يبق لنا من الحبوب إلاّ 244 Fanogus وهو ما دفعهم إلى أن يهاجموا تلك المدينة ليستولوا على ما فيها من المواد الغذائية.

كما نجد النشاط التجاري تأثر أيضا في سنة 1532/938 عندما استولى خير الدين على حصن البنيون وزيادة نفوذ الدولة الجزائرية بقيادة خير الدين، وهو ما تؤكده هذه الرسالة التي وجهت من قبل الكوديتي، إلى ملك إسبانيا المؤرخة في سنة 1534، طلب منه تزويده بثلاثة عشر ألف Fanogus من الحبوب، ومن مالقة، حيث توجد كمية لابأس بها عند أحد تجارها،

1- عن هذا انظر الوثيقة المتعلقة بتمويل وهران بالمواد الغذائية والمعاهدات العسكرية من مدريد والمتواجدة بـ:
A.M.M. Provissiones, Vol, XIV. F231- 232.L.A. FRCE RES 120 CO 70-64

2- هو نوع من المكاييل المستعملة من قبل الاسبان خلال تلك الفترة Fanogus.

وكذلك ثلاثة آلاف كيل، لأن وهران في حاجة إلى الحبوب لضمان تموين الجيش الذي سيكلف بمحاربة القبائل المعارضة للاسبان[1].

وفي نفس السنة وبالتحديد في941هـ/1534،9،11 أخبر الكونت الكوديتي أنه توصل إلى حل مشكلة تموين وهران لأنــه تحــصل علــى ثلاثــة آلاف وخمسمائةFanogus من القمح ومــائةFanogus شعير من عنابة.

فهذه الرسالة توضح بأن المبادلات التجارية لم تتوقف في موانئ الجزائــر خلال هذه الفترة موضوع البحث، كما يبدو أن الحامية الاسبانية في عنابة التي انتقلت منها السفن المحملة بالحبوب دور في توجيهها لوهران[2].

كما أن تغير موالاة سلاطين الدولة الزيانية للاسبان كان له تــأثير ســلبي على المبادلات التجارية.

ففي رسالة للكوديتي المؤرخة في1536/942، والمرسلة للملك الاســباني، ذكر له فيها أن تموين وهران في السنة الماضية كان ضعيفا على الرغم مــن أن هذه السنة عرفــت إبــرام المعاهــدة التجاريــة بــين الدولــة الزيانيــة، والامبراطورية الاسبانية، وأن هذه الضائقة دفعت بالجند إلى المطالبة بــالعودة إلى قشتالة وأن ما يوجد في وهران لا يكفي حتى الضيق، لأن القبائل لاتصدّر محاصيلها الزراعية إلا بعد حصاد المحصول، ومما زاد الأمور خطــورة أن القبائل المحيطة بالمدينة كانت عليها[3].

1- A.M.M. Privissions vol Xiv f 234- 235AFR. C rel 147 CO7064147

2- Arch de SimancasEstado Legafa 462

3- Lettre du conte d' Alcaudetea sa majestéOran -5 / 1536
Arch de Simancas Estado Legafa p462

وهكذا نجد على الرغم من نجاح شارل الخامس في السيطرة على تونس فإنه يؤثر على وضعية الاسبان في كل من وهران والمرسى الكبير بزيادة نفوذهم في المنطقة.

ففي نفس السنة أرسل الكوديتي رسالة مؤرخة في943هـ/1536/06/5م جاء فيها أنه يوم934هـ1536/05/25م وصلت سفن من عنابة إلى وهران محملة بالحبوب اشترى من تجارها Fanogus 3700 ثم كمية أخرى تقدر بـ300 من نفس الكيل و500 شعير[1].

وهناك رسالة من الدكتور ورنيخا لملك اسبانيا يقول فيها: أنه ذهب إلى تلمسان تماشيا مع طلبه، وأنه يتوجه إلى الأمير عبد الله باسم ملك إسبانيا، لشراء سلعة تقدر بـ30000 دينار منها Fanogus 40000 من القمح بنفس الكيل، و60000 من الشعير بنفس الكيل ، وأنه سيقدم للأمير الزياني الأموال المتعلقة بتموين وهران[2] وفي رسالة من شارل الخامس إلى ما كسيملان المؤرخة في957هـ/ 1550/10/20م أخبر شارل الخامس بوفاة مولاي عبدالقادر، وذكر بأن مولاي محمد والمنصور بن غانم قدما لتلمسان ووافقا على تموين وهران بما يحتاج إليه من المواد الغذائية، لأن الحروب الدائرة في المنطقة أثرت على وهران كما أثرت على مليلة، وأن منطقة تسالة وقلعة بني راشد اللتين تمولان وهران والمرسى الكبير، توقفت القوافل التجارية القادمة منها إلى وهران، لأن انعدام الأمن في الطرقات نتيجة للحروب أثرت على المبادلات التجارية[3].

1- هذه الرسالة توجد بأرشيف سيمانكاس Arch de Simancas Estado Legafa

2- Ibid, le Gafa 462

3- Casteies Srie Espagne T I P

أثرت فترة الحروب بين السعديين والعثمانيين سلبيا على العلاقة التجارية بين الاسبان وتجار الدولة الزيانية فالدارس لهذه الوثائق يجد معلومات قيّمة ضمن تقارير التجار الاسبانين المتوافدين على أراضي الدولة الزيانية فهناك تقرير من التاجر جون[1].

يذكر فيه بأن الأهالي كانوا يمنعون المعاملات التجارية مع المسيحين، على اختلاف جنسهم، وفي بعض الحالات يكون المنع مقتصرا على تجار اسبانيا فقط، وعلى الرغم من هذه العوائق التى كان من ورائها أعداء الأسبان، وعلى الخصوص العلماء ورجال الزوايا، الذين[2] قادوا المقاومة فإن النشاط التجاري قد استمر بين موانئ الدولة الزيانية، والاسبانية، مقابل دفع الضريبة الجمركية فالتجار الاسبان لا يزالون يتوافدون على النواحي المجاورة للمراكز البرتغالية، في المغرب الاقصى، وميناء هنين، وارشقول من موانئ الدولة الزيانية[3].

وهناك تاجر آخر يدعى بأن النشاط التجاري لم يكن ممنوعا، وأن السفن الاسبانية والفرنسية تتوافـــد على موانيء الدولة الزيانية، وفي بعض الحالات فإن السفن التجارية ترافقها سفن عسكرية للدفاع عنها في حالة تعرضها إلى عملية القرصنة، وعلى الخصوص عندما تكون تلك السفن موجهة نحو وهران، وهنين والمرسى الكبير، لتواجد الاسطول الجزائري بالبحر

1–عرفت فترة العصور الوسطى اشتداد الصراع بين العالمين الاسلامي و المسيحي و كان وراءها رجال الكنيسة بالنسبة للدول المسيحية و الفقهاء بالنسبة للدول الإسلامية مما جعلهم يصدرون فتاوى تتعلق بمنع بيع الاسلحة و الجياد و كل ما يستعمل في الحرب ، انظر العقباني ، المصدر السابق.

2– ورد في أرشيف ، سيمنكاس وثيقة هامة تقدر عدد مداخيل وهران ب 9900 دينار archiv C.S.negaciode setada n 461

3– nicalas Calrillam Ciegar : malaga el Comercio nort a Fricane 1517-1551 P 183 .

المتوسط فكان يعترض تلك السفن ويأسر تجارها، ويأخذ سلعها لتباع في ميناء الجزائر، وغيرها من موانئ الدولة الجزائرية.

وهناك تاجر آخر يدّعي في تقرير له: "بأن النشاط التجاري مع الأهالي كان ممنوعا على كل المسيحيين، ولكن ذلك المنع لم يطبق لأن النشاط التجاري استمر بين تجار الدولة الزيانية والمسيحيين، فالسلع تباع وتشترى في كل موانئ الامارة[1]". وأن المبادلات التجارية مع الأهالي كانت تجد معارضة من طرف المعارضين للدول المسيحية، لكن لهذه التجارة فوائد من ناحية تموين الجند عندما لا يستفيد تجار الدولة الزيانية بالمطالب التي تدعو إلى المقاطعة وعلى الخصوص السلع التي تستعمل من قبل الجند، مثل الجياد، والأسلحة وغيرها، وهو ما تؤكده مجموعة من النوازل الفقهية أوردها المازوني[2] والونشريسي ويؤكد هذا المنع التاجر فقد ذكر في تقرير أن التجارة ممنوعة عامة.

أما رحلة هؤلاء التجار في أراضي المغرب الاسلامي فيقول عنها أن التجار الذين يتنقلون من المغرب الأقصى يزورون سانتاكروز، وكذلك أراضي إمارة بني زيان، ثم بعد ذلك يتجهون إلى وهران، ومنها إلى قرطاجنة الاسبانية، كما يتوافد تجار بني زيان على موانئ اسبانيا الجنوبية[3]، ربما وحتى الموانئ الفرنسية والايطالية والبرتغالية. وفي بعض الأحيان كان

1- المازوني الدرر المكنونة ج2 ورقة.

2- الونشريسي، المعيار.

3- Fands Laget Maget Mari 465 F 415- 464 - 493

الاسبان يمنعون المبادلات التجارية مع الدولة الزيانية، ففي اكتوبر 1550 وصلت قافلة من تلمسان إلى وهران محملة بالسلع، وعند عودتها رفض حاكم وهران أن تعود محملة بسلع من وهران، بالرغم من أن حركة التجارة كان معمولا بها، والسكان يتنقلون إلى وهران للبيع وشراء السلع كما نقل تاجر آخر ويدعى غليروس Galers ألف Fanagas dtugas من مالقة ثم أراضي الدولة الزيانية ونفس البضاعة نقلها التاجر Fernandg Fedra وقدرت الكمية بـــ800 Fanagos.[1]

كما نقل تاجر آخر ويدعىantanie في13 أوت ثلاثمائة من نفس السلعة[2] هذافيما يتعلق بالسلع التى نقلت من مدن جنوب إسبانيا، أما بقية الدول الأروبية فيلاحظ أن تجار فرنسا كانوا يتوافدون على موانىء الدولة الزيانية لشراء العبيد المجلوبين من السودان الغربي مقابل الخمور التى كانت تتوفر في الفنادق وكذلك المنسوجات الحريرية والأغطية التى تأتي من باريس Paris ونربونnorbone ومنتبولىmantpellier ومرسيلية marasseille)[3].

كما كان تجار ميورقة يستوردون بدورهم العبيد من أراضي الدولة الزيانية فقد ذكرت إحدى الدراسات التى تناولت الوجود المغربي في ميورقة بأن حوالى ستمائة مسلم من أبناء المغرب ومنها أراضي الدولة الزيانية يتركون ميورقة ويعودون إلى بلدانهم بعد تحريرهم سواء بالموانىء المسيحية أوالإسلامية. واستمرت تجارة العبيد في المرحلة الأخيرة ففي سنة 896هـــ/

1- nicalas Calrillana CP CIT P186 .

2- Ibid P187

3- Felix Reynaud: Histoire du commerce de Marseille t 2. de 1291- et1430 . Paris 2 P256

1495 بيع أحد الأطفال وعمره أربع عشر عاما من وهران لتجار ميورقة[1].

وفي مالقا وجدت مجموعة من العبيد المسلمين من الدولة الزيانية منهم واحد من تلمسان وعمره خمسون سنة والآخر أربع عشرة سنة وثالث من وهران وعمره ثلاثة وعشرون سنة بيع لتجار البندقية[2] فتواجد هؤلاء العبيد في الأسواق الاوروبية خلال هذه المرحلة بالذات يرجع بالدرجة الأولى إلى كثرت الحروب التى عرفتها الدولة والتى أثرت سلبا على سكانها فبيع بعضهم إلى تجار أوروبا لكن هذا لم يكن يحدث في العصر الذهبي للدولة الزيانية حيث لم يكن يسمح بالاتجار بالمسلمين وقد طرح علماؤها نوازل تتعلق بالاتجار المسلمين وقد اتفقوا على تحرير تجارتهم.

يضاف إلى العبيد الذين نقلوا من أراضي الدولة الزيانية وأصلهم من أراضيها نجد مجموعة من العبيد نقلوا من الواحات الصحراوية والسودان الغربي.

من كل ما سبق يتضح لنا أن تجارة العبيد كانت متبادلة مع افريقيا طوال عصر الدولة الزيانية والدليل على ذلك أنه في سنة900هـ/1495م قام القرطاجيون بإبرام معاهدة تجارية مع الدولة الزيانية تتعلق بتحديد هذا النوع من التجارة مع الدولة.

- تجـــارة الـــذهب:

لم تكن تجارة العبيد هي التى تحتل المكانة الأولى بالنسبة إلى المبادلات التجارية مع الدول الأوربية بل نجد الذهب الذي علق السلطان الزياني عليه أهمية فقال لولا الذهب لم ينزل بلادي تاجر من غير تجار الصحراء الذيــن

1- nicolas Calrillana: OP CIT P89 .

2- Ibid P97 .

يذهبون، بحيث يأتون بالتبر.

- **الأصـــواف:**

ومن بين السلع التى تنقل إلى الدول الأروبية الأصواف و على الخصوص من المناطق التى اشتهرت بتربية المواشي كوهران وتنس وشرشال ومستغانم وأسعارها تختلف حسب النوعية والجودة.

يضاف إلى الاصواف الجلود[1] التى اشتهرت بها الدولة الزيانية نتيجـة لعاملين أساسيين :

أولا: ان الدولة الزيانية عرفت ازدهار دباغة الجلود[2] سواء في عاصمة الدولة تلمسان أو المدن الأخرى كوهران وهنين وقلعة بى راشد.

- **الحنابل:** كما نجد من بين السلع الحنابل التى اشتهرت بها بلدان المغرب الإسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية وتتميز بإختلاف ألوانها الزاهية منها ذات اللون الأحمر والأخضر والأزرق والأبيض وهذه الحنابل من مدينة وهران وتنسب للدولة الزيانية فكان تجار البرتغال يتوافدون على وهران للحصول على الحنابل من تجارها.

وحرية المبادلات التجارية مع وهران شجعها أمير تلمسان لأن القوافل التجارية القادمة من الواحات الصحراوية وجدت صعوبات في الدخول لتلمسان، نتيجة للحصار الذي فرضته القوة السعدية عليها، وحتى لا تتوقف الحركة التجارية أمر السلطان الزياني بتوجهها إلى المراكـز الاسبانية لبيـع

1-عن تجارة الصوف، انظر، DuFourcq de , L' Espagne catalane et le Maghreb . P 554

2- عن صناعة الجلود ، انظر العقباني: المصدر السابق، ص126.

ما تحمله مع سلع، حتى لا تتعرض للسلب، والنهب والمصادرة من قبل السعديين[1].

- المبادلات بين اسبانيا والقبائل العربية والبربرية:

هذا فيما يتعلق بالعلاقات التجارية مع الدولة الزيانية، لكن هناك مبادلات بين اسبانيا والقبائل، المتواجدة بأراضي الدولة، حددتها بعض المعاهدات التجارية بين شيوخها وحكام وهران.

نجد هناك مجموعة من الوثائق تتعلق بالمبادلات التجارية بين وهران والقبائل العربية، مثلما هو الحال بالنسبة لهذه الوثيقة التى يعود تاريخها إلى سنة 1494/900 التى تتعرض إلى توافد تجار اسبانيا على القبائل المجاورة لكل من هنين، وهران، والمرسى الكبير، وتنس وأنهم كانوا يشترون السلع من تجارها، ويدفعون لهم السلع الأروبية، ويؤكد هذا الوزان عند تعرضه لبنى بوسعيد المجاورة لتنس.

- الاحتكار الاسباني لتجارة الدولة الزيانية:

عرفت أراضي الدولة الزيانية خلال فترة موضوع البحث احتكار الاسبان لتجارتها الخارجية، وهذا ما نتوصل اليه من خلال الوثائق الاسبانية التى ذكرت لنا وجود علاقات تجارية بين موانىء اسبانيا، وبلدان المغرب الإسلامي ومن أبرز الموانىء الاسبانية، مالقة، التي كانت تحتكر النشاط التجاري:

تحتوى تلك المدينة على مجموعة من الوثائق تغطي فترة موضوع البحث: فالفترة الممتدة مابين1517/922-1518/923 عرفت مجموعة من الرحلات

1- عن الحصار الذي فرض على تلمسان من قبل الدولة السعدية ، انظر تكملة بغية الرواد، ليحي بن خلدون مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 2217 ورقة 96 ، و انظر ايضا الفصل الثالث من الباب الأول من هذه الرسالة ص 113-114.

للأسطول الإسباني، في اتجاه موانيء الدولة الزيانية، مثل ارشقول[1]، وهنين، ومستغانم[2]، وتنس[3]، وغيرها من موانيء الدولة.

ومن بين التجار الذين كانوا يتوافدون على هذه الموانيء جورد انجيلوا jord angule، لم يكن دوره مقتصرا على زيارة الموانيء، بل ربط علاقات بتجار الدولة للحصول على ما يحتاج إليه من السلع التى كان عليها الطلب في إسبانيا وهنين وهي السلع الآتية من السودان الغربي كالعاج والذهب والعبيد.

وهناك وثيقة يعود تاريخها إلى 1551/9/7/959[4] جاء فيها «إن التاجر غارسيا Garcia كان يقوم بنشاط تجاري مع أراضي الدولة الزيانـــية، وعلى الخصوص وهران التي اشترى منها مائة وخمسون[5]"Cahices de trigo".

وهناك وثائق ترجع لنفس السنة1551/901 ذكر فيها أن تجار اسبانيا كانوا يشترون الزنوج القادمين من إفريقيا بواسطة القوافل التجارية القادمة إلـــى موانيء الدولة ومنها وهران، ومن هذه الأخيرة يُنقلون إلى الموانيء الجنوبية الاسبانية، ومنها إلى الأسواق الاسبانية، حيث يباعون لأصحاب الأراضي أو الأعيان الذين يستعملونهم للعمل في قصورهم. كما توجد مجموعة من الوثائق لبيع العبيد في أراضي الدولة الزيانية ومن بين هؤلاء الزنوج الذين نقلوا من هنين، مستغانم وارشقول إلى مالقا[6].

---

1 - عن أرشقول ، انظر الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ج ، 2ص .

2-نفسه، ج 2ص، يعلق عليها خلال الهجوم الاسباني سنة 1543 بأنها من أغنى مدن الدولة الزيانية .

3 - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2 ، ص.

4- Ibid P 264

5 -Catillana Nicolas OP .CIT .P266

6- Catillana :Op cit, P 266 .

وهناك من أصل وطني أي من أقاليم الدولة الزيانية من بينهم الأطفال والنساء، يؤخذون من أسرى الحروب التى كانت تتخبط فيها الدولة بين أمرائها وقبائلها وبين القوتين المتصارعتين على أراضيها، الاسبان والعثمانيين.

وضّحت لنا تلك الوثائق أسعار هؤلاء الأسرى فتقول: "هناك عبدة تعرف باسم فاطمة عمرها ما بين12و13 سنة بيعت إلى أحد الإسبان وتعرف باسم نلونمسا nlomsa بثمانين دينارا"[1].

وفي سنة 1551/11/27/958 بيع أحد العبيد من أراضي الدولـــة عمره ما بين خمس وعشرين وثلاثيـــن سنة مع بنت له بمائـــة وعشريـــن دينار[2].

وهناك عبد عمره خمسة عشر من وهران، وفي سنة 959/ 1515، نجد تجارة العبيد تحتل أهمية كبرى في تجارة اسبانيا، وعلى الخصوص وهران والأراضي المجاورة لها، والقريبة من تلمسان، التى عرفت خلال هذه المدة مواجهة كبيرة بين السعديين[3]، والعثمانيين، وكانت سببا في إنهزام القوة السعدية في نواحي تلمسان، مما أدى إلى أسر عدد كبير من أفرادها، ولعل بعضهم بيعوا لتجار من الجالية اليهودية الذين احتكروا تجارة العبيد، فأخذوهم إلى وهران والمرسى الكبير، حيث بيعوا لتجار اسبانيا بها.

ولم يكن نقل هؤلاء لمالقة فقط، بل نجد المرية تحتوى على مجموعة مـــن الوثائق تتعلـــق بالمبادلات التجارية ومنها تجارة العبيد، لكن هذا لا يقلـــل

1- Catillana :Op cit, P 269 .

2- Ibid P 267 .

3-عن هذه المواجهة، انظر الافرني : المصدر السابق رقم 17 .

مـــن مكانة مالقة التى كان دورها يشـــبه جنوة والبندقـــية في عصرهما الذهـــبي أي في العصور الوسطى[1].

ومن بين التجار الذين كانوا يتوافدون على أراضي الدولة الزيانية، جون مرتنا غنزالوا، ففي إحدى الوثائق ترجع إلى جون 1520/927 أهم ما جاء فيها أن مدينة مالقا يوجد بأحد مراكزها ستة عشر عبيدا نقلوا من أراضي الدولة الزيانية، وهناك واحد وثمانون شخصا أسروا من أراضي الدولة الزيانية، فنقلوا من وهران، بواسطة الأسطول الاسباني إلى مدينة مالقا وبيعوا في أسواق العبيد بالمدن الاسبانية[2].

هناك واحد وثمانون من العبيد نقلوا من وهران وأغلبهم من أسرى الحرب.

- دور سلاطين الدولة الإسبانية في تشجيع الحركة التجارية:

كان لملوك إسبانيا دورا في تشجيع المبادلات التجارية، بين أراضي الدولة الزياينة، والمراكز الاسبانية، في كل من وهران والمرسى الكبير، وهدفهم من وراء ذلك محاربة التهديدات العثمانية، حيث عمد الأسطول الجزائري إلى مراقبة حركة التنقل بين وهران والمرسى الكبير ومدن جنوب إسبانيا وإيطاليا.

كما عمد هؤلاء إلى محاربة القبائل التي كانت تتعامل مع الاسبان، بالقتل كل من يكتشف أمره بأنه يزود الاسبان بما تحتاج إليه من المواد الغذائية ونجحت هذه السياسة في بعض السنوات ونستدل على ذلك بمجموعة من

1- Catillana (Nicolas) OP .CIT .P 192 .

2- Ibid . P 193.

الرسائل والتقارير التى كانت ترسل من حكام وهران، إلى الامبراطور الاسباني منها.

وفي1551 أخذ تجار إسبانيا من وهران مائة وخمسين شابا، ومن هؤلاء الذين يتوافدوان عليها التاجر sante Podr.

ومن بين الذين كانوا يحتكرون المبادلات التجارية غنزالواGonz her وعلى الخصوص بين موانىء الدولة الزيانية وميناء مالقا، وكذلك لويس مونداز غريسا Geacea louis mendz وقد قام بنقل الحبوب من موانىء هذه الدول إلى مالقا.

- المــواد الغــذائيــة:

تعتبر تجارة المواد الغذائية من أبرز السلع التى كانت تنقل إلى اسبانيا خلال القرن السادس عشر وعلى الخصوص الحبوب، عندما تكون إسبانيا فـــي أشد الحاجة إليها لأن هجرة الأندلسين إلى دول المغرب الإسلامي قـــد أثـــر على الإنتاج الفلاحي في الجهة الجنوبية التى كانت ضمن أملاك دولـــة بنى الأحمر[1].

لكن بعض الحالات كانت اسبانيا تقوم هي الأخرى بتصدير الحبوب إلـــى أراضي الدولة الزيانية عندما تتعرض لكوارث البقول الجافة والخمور التـــى كان عليها الطلب في أغلب أسواق الدولة.

1- Catillana (Nicolas) Op .cit .P194 .

فكان الخمر ينقل من مالقة إلى المغرب الاوسط خلال هذه الفترة، كما نجـد أحد التجار ويدعي دون ماري القرضـي donmari cardola نقل حوالـي 14.50 Foneges de trig.

الباب الثاني

الأحوال الثقافية

الـفـصـل الأول

الحالة العلمية والثقافية

يمكن تقسيم الحركة الثقافية التي عرفتها الدولة الزيانية في مرحلة انهيارها إلى فترتين.

تمثل هذه الفترة مجموعة من العلماء نقتصر على البعض منهم:

محمد بن مرزوق المعروف بالكفيف[1] ولد بتلمسان يوم الإثنين واحد ذي القعدة 824هـ/ 1427م و توفي بها سنة 901هـ/1495م.

من أبرز الشيوخ الذين تتلمذ عليهم أبو الفضل بن الإمام[2] وقاسم العقباني[3] ومحمد العبادي[4] وأبو زيد بن مخلوف الثعالبي[5] وعبد الله المتولى، كما أجاز ابن حجر بالمراسلة.

درّس في تلمسان وتخرج على يديه مجموعة من علماء المغرب الإسلامي والاندلس، يأتي في مقدمتهم احمد بن دلود والبلوي وابن عباس الصغير[6] وابن غازي[7] وأبوالعباس الونشريسي[8] الذي روى عنه مجموعة من الفنون، لكن يبدو لي أنه لم يكن في مستوى ابن مرزوق

1- ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص75 والمرازقة كثيرون:منهم ابن مرزوق الخطيب.

2- ابن مريم: البستان، ص 64 والحفيد لعبدواو وكبيرا في الحركة الفكرية في تلمسان

3- نفسه، ص 147.

4- نفسه، ص 147.

5- التمبكتي: نيل الابتهاج ، ص .

المقري: نفح الطيب ، ج 5 ، ص 419.

6- ابن عسكر: دوحة الناشر ، ص 45.

7- نفسه، ص 47.

8- نفسه، ص 27.

الخطيب[1] والحفيد[2] اللذان عرفا كثيرا بغزارة الانتاج، أما هو فلم يترك لنا غير عمل واحد هو كتاب الحاوي[3].

ومن بين العلماء الذين عاصروه أحمد بن يحي بن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن الشريف قاضي الجماعة[4]. ترجم له السخاوي في كتابه "الضوء اللامع"، لكن ما يعاب على هذه الترجمة أنه لم يتعرض لمولده والعلوم التي تلقاها في تلمسان وكذلك الشيوخ الذين أخذ عنهم وتأثر بهم بل اكتفى بقوله: " أنه تولى القضاء وما هو معروف لدينا أن هذا المنصب لا يتولاه إلا من كان بارعا في العلوم الفقهية وهذا يوضح لنا بأنه زاول دراسته في تلمسان قبل انتقاله إلى المشرق وبرع في العلوم الفقهية والحديث والتفسير.

كما زاول بمصر دراسته وخاصة على السخاوي[5] الذي قال بأنه: " تتلمذ عليه وأنه أحبه كثيرا"، كانت وفاته886هـ/1461م-1462م أما مؤلفاته فتمثلت في شرح الجمل للخويخي، وشرح البردة وشرح خليل علي بن الحاجب الأول وعلى العقيدة البرهانية، يضاف إلى هذا العالم الجليل ابن زكري[6] الذي اكتشف نجاحه ابن زاغو عندما كان يتعلم المهنة بإحدى ورشات الحرفيين بتلمسان.

لم يكن ابن زكري من العائلات ذات المجد العالي التي اشتهرت بكثرة علمائها، بل ينسب إلى الطبقة الفقيرة التي كانت ظروفها لا تسمح لها بمزاولة

1- ابن مرزوق: المصدر السابق، ص 68.
2- نفسه: ص 297.
3- ابن مريم: البستان، ص 97.
4- السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 12ج القاهرة 1353 مجا1 ص 193
5- السخاوي: الضوء اللامع ، مجلد1 ، ص 166
6- ابن مريم: البستان ، ص38.

التعليم، لأن كل فرد من أفرادها كان يقوم بعمل ما، كـــي يحصـــل علـــى مـــا تحتاجه العائلة.

كان بين ابن زكري وبين السنوسي محاورات ومباحثات في علم الكلام. والشيخ ابن زكري يعتقد أن السنوسي من تلامذته فقيل ذلك للسنوسي، فقال والله ما حدثت عنه سوى مسألة واحدة.

وعلى الرغم من الاختلاف بين العالمين فإنه عندما توفي السنوســـي رثاه ابن زكري بقصائد على ما كان بينهما.

أما عن مكانة ابن زكري بالنسبة لعصره فقد قال التمبكتي[1] : "سألت شيخـــنا أبا عبد الله محمد بن هبة الله[2] عنه فقلت له: "ما تقول في الشيخ ابن زكري ومقامه من العلم. فقال: " أما ابن زكري فلا يضار تحت جناحه".

وتبرز مكانته العلمية من خلال الدروس التي كان يلقيها على طلابه فعندما ينعقد مجلسه ويتصدر فيه للتدريس وحل المسائل التي كانت تستعصي على طلابه، ينقل ما ذهب إليه الأوائل فيها ويتعرض للرّد والقبول وبسط الأدلة والتصويب والتخطي ولا يقتصر على العقائد لتمكنه من آلات الترجيح والاجتهاد وبالجملة، فهو أحد أعلام المائة التاسعة ممن يقتدى بهم في المشارق والمغارب وتحمل إليه الرحلة، توفي بالطاعون سنة906هـ/1455-1456م[3].

ومن المعارضين له محمد عبد الكريم المغيلي، ولد في الثلث الأول مـــن القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي.

1- التمبكتي: نيل الإبتهاج، ص 340.
2- ابن عسكر: نفس المصدر، ص 116-117.
3- ابن مريم: البستان، ص38، ابن عساكر: نفس المصدر ، ص 117.

درس في مسقط رأسه على علماء تلمسان، فبرع في مجموعة من المعارف ثم برح *تلمسان قاصدا الواحات الصحراوية، فتوقف بتوات التي كانت لها* علاقة تجارية نشيطة مع تلمسان لارتباطها معها بواسطة القوافل التجارية، لذا لم تكن هذه الناحية مجهولة عن تلمسان.

أما فيما يتعلق بدوافع خروجه من تلمسان إلى الواحات الصحراوية فلم يتعرض لها الذين ترجموا له، لكن يبدو لي أن سوء أوضاع الدولة الزيانية وموقف سلاطينها كان سببا في خروجه من تلمسان، وكذلك موقف أمرائها المتأخرين من زيادة نفوذ الجالية اليهودية التي استبدت بشؤون الدولة لا في عاصمة[1] الدولة فقط، بل حتى بالواحات الصحراوية وقد خرجوا عن العلاقة التي حددها الإسلام لهم.

فاغتنم هؤلاء الضعف الذي أصبح يسود دول المغرب الإسلامي ومنها الدولة الزيانية لصالحهم فاحتكروا التجارة وشيدوا المعابد والقصور وارتداء الملابس الفاخرة وامتطوا الجياد التي تزين لجومها وسروجها بالذهب، وهو ما دفع المغيلي وغيره من علماء الدولة الزيانية أن يقفوا موقفا معارضا لليهود[2].

ويأتي في مقدمة الوسائل التي لجأ إليها، الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، فعارض يهود توات[3] وألزمهم الذل وقاتلهم وهدم كنائسهم مما جعل بعض أعلام توات وعلى رأسهم الشيخ العصنوني يوجهون له نقدا.

1- السليماني: الأعرج، زبدة الشماريخ ، ج3 ، ورقة 136.

2- الونشريسي: المعيار، ج2 ، ص 198-199.

3- التوات: تقع بالجنوب الغربي على ضفاف وادي الساورة بوسط الصحراء الجزائرية و أهم مدنها الآن أدرار عاصمة الولاية كما تضم عدة قصور و لمعرفة دور الجالية اليهودية بها، انظر الباب الأول للفصل الثالث من هذه الرسالة.

أما في تلمسان فقد وقف علماؤها إلى جانبه ومنهم، أبو عبـــد الله التنـــسي[1] الذي ردّ على المغيلي بكتاب مطول لخّص فيه جوابه للمغيلي ووافقه على ذلك الإمام السنوسي[2] الذي أرسل رسالة أهم ما جاء فيها:" من عبـــد الله محمـــــد بـــن يوسف السنوسي إلى الأخ الحبيب أيده في عمله واعتبره في نطاق مبادئ الشريعة الإسلامـــية وأن الزمان تميز بالفساد وهو ما ســـهّل بـــروز اليهـــود وتخليهم عن ما كان يربطهم بالمسلمين".

كذلك يلاحظ السنوسي صاحب الرسالة بأن هذا الوقت تميز أيضا بسكوت العلماء عما يحدث في حواضر المسلمين وانعدام الغيرة عن الإسلام وقلـــة إيمان الناس[3].

وعندما وصل جواب التنسي ورسالة السنوسي، أمر المغيلي أتباعه فتسلحوا وقصدوا معابد اليهود وأمرهم بقتل من يعارضهم فتمكنوا من تهديم أغلب تلـــك المعابد ومنح لكل من قتل يهوديا مثاقيل من الذهب[4].

لم يتوقف عمل المغيلي على توات فقط بل توجه إلى إمارة مالي وبالتحديد نكدة فاجتمع بصاحبها الذي كان معتنقا للإسلام وساعده في نشر تعاليم الإسلام، مما جعل الناس ينتفعون به ويتخرج عليه مجموعة من طلبة العلم، تركهم بنكدة ينجزون ما بدأه هو. ثم توجه إلى بلاد كنورش التي اجتمع فيها بأمراء المسلمين في تلك النواحي وقد استمع هـــؤلاء إليه واستفادوا منـــه

1- عن جواب التنسي، انظر الونشريسي: المعيار، ج2، ص: 189، التنسي نظم الدرر العقباني، ص 32-33.

2- التمبكتي: المصدر السابق، ص 356.

3- ابن مريم: البستان، ص 223.

4- الونشريسي: المعيار، ج2، 188-201.

فـــي تسيير أمور المسلمين وهو ما دفع به أن يكتب لهم رسالة تتعلق بشؤون الدولة، استمدها من مبادئ الشريعة الإسلامية[1] .

لم يتوقف عند بلاد كنورش بل توجه *إلى* تكرور، وهي من *المراكز* التجارية فاجتمع بسلطانها محمد الحاج وجرى على طريقته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ألّف له رسالة أجاب فيها على مسائل طرحت عليه، وهناك بلغه مقتل والده بتوات من طرف اليهود الذين استعادوا مكانتهم بها بعد خروج المغيلي وزيادة نفوذ أنصارهم. تأسّف المغيلي من أهل توات الذين وقفوا موقفا سلبيا ولم يقدموا على حماية عائلته بعد معاقبة تجار توات بإمارته والقبض عليهم[2] .

لكن عمله هذا وجد معارضة من علماء تكرور وعلى رأسهم العالم محمــد بن عمر لأن هؤلاء في رأيه لم يفعلوا أي شيء يعاقبون عليه، فرجع عن ذلك وأمر بإطلاق سراحهم ثم ترك تكرور[3] عائدا إلى توات.

ثم توجّه إلى المشرق وعندما وصل إلى برقة وصله نبأ زواج أحد رؤسائها بربيبته فبلغ ذلك المغيلي، فتوجه إليه فلما رآه وبّخه وقال: " يا ملعون خالفــت الكتاب والسنة و إجماع الأمة فيما بيده"، فأشار إليه الشيخ بأصابعه فسقط رأسه عن جثته بمجرد إشارته إليه.

والشيء الذي يمكن التوصل إليه من خلال هذه الرواية أن المغيلي استمر في قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى في أصعب الظروف.

---

1 الرسالة: مخطوطة، بالخزينة العامة بالرباط، رقم 1130.

2 التمبكتي: المصدر السابق، ص 130.

3 عن تكرور: انظر، رسالتنا الأحوال الإقتصادية و الإجتماعية للدولة الزيانية ، ص 297.

أما فيما يتعلق بإتصاله بالشيخ عبد الرحمن السيوطي[1] فإن صاحب هذه الورقات يقول: "بأنه دخل على السيوطي في مسجده فقال له: "ما معك من العلوم يا عبد الرحمن، فقال له: "أنا أحفظ أحاديث النبي(ص) من أولها إلى آخرها".

فقال له: "لعلك تكذب، فإن كنت صادقا فإني أسألك عن الأحاديث التي صحّ ورودها على الرسول فجعل ينص له على الحديث فيقول له: "لم يبلغني ثم يقوم حتى يحاور سارية من سواري المسجد ثم يقبل إليه ويقول حديث حتى أفاده بخمسمائة حديث وقد أقرّ السيوطي للشيخ عبد الكريم المغيلي بالفضل والعلم والولاية فأخذ منهما عن صاحبه الأوراد.

وعندما رجع من حجه هو والشيخ[2] اعمر وجد الشيخ عبد الكريم قرية من أهل التوات قد تعدّوا على ابن له فقتلوه وكان يجلّ الشيخ عبد الكريم ويخدمه فأخبره بقتل أهل تلك القرية لولده فقال له: "أقتل قاتله"[3].

ولكن المغيلي فضّل فيما بعد الاستقرار بتوات حتى توفي بها سنـــة 909هـــ/ 1503-1504م.

وهكذا نجد بأن علماء الدولة الزيانية لم يكن تأثيرهم في أراضيهم فقط، بل إمتدّ أيضا إلى أجزاء كبيرة من أراضي العالم الإسلامي، وعلى الخصوص السودان الغربي الذي له علاقة بالدولة الزيانية وهذا منذ عصرها الذهبي حيث نجد العائلات العلمية بتلمسان وهي عائلة المقري التي اهتمت بالنشاط التجاري بين المنطقتين. لكن يبدو كان لها دور في نشر الثقافة الإسلامية بهذه المناطق

1- عن عبد الرحمن السيوطي: انظر الزركلي الأعلام مجلد ، ص 167.

2- تمبكتي: المصدر السابق، ص 130.

3- يوجد بزاوية كنتة أحد القصور يذكر سكان تلك الناحية أنه ممر و لم يعد تعميره لدعوة المغيلي عليه لأن سكانه هم الذين قاتلوا ابن المغيلي.

النائية، ومما يؤكد ذلك أن الرحالة ابن بطوطة يذكر من بين الذين رافقوه في توجهه نحو السودان الغربي أحد علماء الدولة الزيانية.

أما عن أثر المغيلي فالدّارس له يلاحظ عليه اهتمامه بأوضاع المسلمين والقضاء على الأخطار التي كانت محدقة بهم وعلى رأسها اليهود الذين أصبحوا يحتكرون كل شيء، وقد تحالف معهم بعض علماء الأمة أمثال قاضي توات الشيخ العصنوني وكذا أمراء بني زيان الذين تهمهم المصالح الذاتية بالدرجة الأولى، وقد أشار إلى التنسي في الإجابة التي أرسلها إلى المغيلي في توات ردا على رسالته.

من أبرز مؤلفاته "البدر المنير في علم التفسير" وهو خاص بتفسير القرآن وكتاب "مصابح الأرواح في أصول الفلاح[1]" وهو كتاب عجيب في كراسين أرسله إلى السنوسي وابن غازي كما شرح مختصر خليل سماه "النيل"، وله قطع أخرى من البيوع وغيرها، كما أنه قيل أنه شرح "ثلاثة أرباع المختصر وحاشية".

كما شرح بيوع الآجال من ابن الحاجب وسماه " فهام إلى الحال" وتأليف في الهيئات، ومختصر تلخيص المفتاح، ومفتاح في علم الحديث به أبحاث على النوري وشرح الجمل في المنطق ومقدمة فيه ومنظومة سماها "فتح الوافيات وثلاثة شروح عليها"، ومن المناصرين له محمد بن عبد الجليل التنسي[2] الفقيه العلامة الحافظ، قدرة الأدباء العالم الجليل، درس في البداية على علماء عصره

1- عن العصنوني: انظر التمبكتي، المصدر السابق، ص356.

2- المقري. نفح الطيب، ج2، ص574، وج195، ابن مريم ، البستان، ص208-22، السخاوي الضوء اللامع مجلد 8، ص120.

ومن أبرزهم أبي الفضل العقباني[1]، وابن مرزوق[2] الحفيد ومحمد النجار[3] والولي إبراهيم التازني[4]. والإمام أبو العباس[5] تولى تدريس التفسير والحديث والفقه والعربية، ولمكانته العلمية وصِف من قبل معاصريه السنوسي بالشيخ الإمام القدوة، عالم الأعلام الحافظ المحقق التنسي.

وبلغت شهرته المشرق، لأن ابن داود الذي سبق له أن زار تلمسان قبل أن يتوجه لزيارة الأماكن المقدسة سئل من قبل علماء المشرق عن علماء تلمسان فقال: العلم مع التنسي والإصلاح مع السنوسي والرياسة مع ابن زكري.

ومن بين علماء هذه الفترة محمد بن محمد بن أحمد بن أبي العيش الخزرجي التلمساني الذي اشتهر في علم الأصول والفقه والفتوى، نقل عنه المازوني والونشريسي مجموعة من النوازل تتناول قضايا مختلفة.

أما إنتاجه الفكري فتمثل في كتاب له يتعلق " بالأسماء الحسنى" يتألف من سفرين.

لكن أشهر علماء تلمسان في هذه الفترة التي سبقت القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي: محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي[6]، الصالح حسن[7] أبركان الذي انتفع به كثيرا وخاصة في ميدان التصوف كما، تتلمذ

1- ابن مريم، البستان، ص 82.

2- نفسه: ص 27-30.

3- نفسه: ص 143.

4- نفسه: ص 58.

5- نفسه: ص 134.

6- ابن مريم: البستان ، ص: 252.

7- نفسه: ص 329.

علــى محمد بن توزرت[1] والقلصادي[2] الذي أجازه في جميع ما يرويه.

وعلم القراءات عن الشريف بن أحمد وعلم الأسطرلاب عن العلامة الحباك، والأصول والمنطق عن أبي العباس، والفقه عن الجلاب وأخيه التالوتي[3] وعلم التوحيد عن أبي الفتح الكناشين والصحيحين وغيرها عن الإمام عبد الرحمن بن حمو مخلوف الثعالبي والسلسلات وأشياء كثيرة عن الولي الصالح العلامة إبراهيم التارني.

وعن شخصيته، فهو آية في العلم والإصلاح والزهد والورع وكان يكره الكتابة للأمراء فإذا طلب إليه، كتب لهم حياءا، وأما أخوه التالونــــي فــقــال: "لا تكتب لهم، فيجيبه: كلفت به. ثم يعلن له الحياء فيقول له السنوسي[4]: "لا تستح من أحد وإذا دخل النار بالحياء دخلها".

وأما عن إنتاجه الفكري فإن أول مؤلفاته، شرحه "المستوفي على الحوفي"، ولم يبلغ من العمر سبعة عشر سنة، مما جعل الشيخ أبو الحسن أبركان[5] يتعجب منه ثم أمره بإخفائه حتى يكمل سنة ثلاثين لئلا تأخذه العين وقال لــه لا نظير له[6].

ومن أبرز مؤلفاته أيضا " المختصر في المنطق" الذي توجد منه مجموعة

1- ابن مريم: البستان ،
2- نفسه: ص 60-73.
3- نفسه: ص 232.
4- ابن مريم: البستان ، ص 232.
5- نفسه: ص 240.
6- توجد المخطوطة بالخزانة العامة بالرباط في مجموعة تحت رقم417-249. و273 من ورقة1 إلى37.

منه في مكتبات وطنية وعالمية ومنها الخزانة العامة بالرباط[1] .

كما توجد في نفس الخزانة شرح "للمختصر في المنطق"[2] لنفس المؤلف ولعل الهدف من هذا العمل هو تبسيط عمله الأول، المختصر في المنطق، لكي تكون الإفادة جماعية. وفي ميدان التصوف ألّف كتابا على أبي الحسن الصغير، كما شرح السنوسي الأمية الجزائرية في التوحيد المسماة "كفاية المريد" لأحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي. كما ألّف السنوسي في تفسير القرآن من بين أعماله في هذا الميدان تفسير الفاتحة.

ومن بين مؤلفاته البرية عن غامض أسرار الصباغة المعدية وهذه الرسالة تبحث في أسرار الحديث الشريف المعدة بين الداء والحمية رأس الدواء[3].

كما كتب أيضا العقيدة الصغرى[4] والمقامات السنوسية، أم البراهين في العقائد وهي عبارة عن مختصر مفيد يحتوي على جميع عقائد التوحيد ختمه بكلمتي الشهادة.

ولعل من أبرز من اهتم بهذا الكتاب الشيخ أبو العباس أحمد بن الأنصـــار أم البراهين[5] بعنوان "شرح بهجة الناظرين في محاسن أم البراهين".

1- المخطوط بالخزانة العامة بالرباط في مجموعة تحت رقم 427-249د، و2347-1966د، 2375-1072د.

2- يوجد المخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 863د، انظر التمبكتي، المصدر السابق، ص 329.

3- ابن مريم: البستان ، ص 245-249.

4- مخطوط بالمكتبة الوطنية ، تحت رقم 682.

5- ابن مريم: نفس المصدر ، ص 245.

ومن مؤلفاته: توحيد أهل العرفان والمعرفة بالله ورسله بالدليل والبراهين[1] و" العقد الفريد في حل مشكلة التوحيد" وهو شرح الأمية الجزائرية، يضاف إلى ذلك "العقيد المختصر"، وشرح أسماء الله الحسنى.

كما ذكر لنا الهلالي أن عقيدة أخرى فيها دلائل قطعية رد فيه على من أثبت تأثير الأسباب العادية ومختصر حاشيته التفتراني على الكشاف وشرح مقدمة الجبر والمفاصلية لابن الياسمين وشرح جمل الخوجي وشرح مختصر ابن عرفة في المنطق ومن بين الكتب التي شرحها: شرح رسالة ابن سينا في الطب لم يكمل، وغاية المحاسن ومختصر الروض الأنف ومختصر بقية السالك وشرح المرشدة وشرح الأجرومية وشرح الخوجي في الكلام[2]

هذا فيما يتعلق ببعض مؤلفاته، أما فيما يتعلق بتلامذته فنجد منهم ابن الصعد[3] وبلقاسم الزواوي[4] وابن يحي ابن محمد وابن الحاج وأبو عبد الله بن العباس وأبو محمد القلعي، يضاف إلى السنوسي محمد بن أحمد بن النجار التلمساني، يجهل تاريخ مولده وحياته الأولى، لأنه يبدو أنه ولد بتلمسان وزاول بها دراسته على كبار علمائها مما جعله يبرع من المعارف.

ومن بين الذين ترجموا له، القلصادي الذي زاول دراسته عليه في تلمسان حيث قال عنه في رحلته: شيخنا وهذه الإشارة تؤكد على أنه كان حيا خلال زيارة الرحالة الأندلسي لتلمسان وأنه من بين مدرسيها حيث أخذ عنه مجموعة من المعارف.

1- مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 2231د، ضمن مجموعة من ورقة 27 إلى 38.

2- التمبكتي: المصدر السابق ، ص 230.

3- ابن مريم: البستان ، ص 251-252.

4- نفسه: ص: 247.

وفي نص آخر، يذكر القلصادي معارفه التي تتمثل في العلوم الشريعة مما سهل مهمة تولي الافتاء والإمامة بأحد مساجد تلمسان لأنه لا يمكن لأي عالم أن يتولى هذه الوظيفة إذا لم يكن بارعا في الفقه والتفسير و وصل إلى مرحلة الإجتهاد.

أما الكتب التي درّسها لطلابــه فتتمثــل في "مختصر خليــل" و"أصــول ابن الحاجب" و"إرشاد إمام الحرمين" و"تنقيحة الأليفة للمرادي" و"الجمل" وهــي من المدونة.

ومن المعارف التي تلقاها القلصادي عنه، علم الحديث وخاصة حديث المشابكة وحديث الصيام وحديث الرحمة وهو ما يوضح لنا بأن علماء الجزائر في عصره كانوا يدرسون مواضيع معينة تتعلق بالأحاديث.

يضاف إلى ابن النجار، العالم الجليل ابن صعد. ولد ابــن صـــعد بتلمــسان ودرس بها على إبراز علمائها أمثال عبد الجليل التنسي والسنوسي.

- الهيئة العلمية بتلمسان وانتشار حركة التأليف العلوم الإنسانية:

* **الأدب:** من أبرز الفنون التي عرفتها تلمسان خلال هذه فترة موضوع البحث، العلوم الإنسانية وعلى الخصوص فنون الأدب، وأن الدروب التي عاشتها الدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة أثّرت على الحياة الأدبية فنجد بروز الشعر الشعبي الذي خلد بعض الأحداث كاحتلال الإسبان لكل من وهران والمرسى الكبير والتنبؤ بسقوط تلك المراكز تحت ظل الإحتلال الإسباني، وكذلك الشعر الحر الذي كان امتدادا لما عرفته الدولة في عصورها الذهبية وعلى الخصوص في المناسبات الدينية كالاحتفال بالمولد النبوي[1] الــذي كــان

1- التنسي، المصدر السابق، ص 185، انظر، أيضا رحلة ابن عمار مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 706.

يحتفل به أهل تلمسان وبقية المدن التابعة لها احتفالا كبيرا وتلقى فيه القصائد الشعرية وأحسن مثال على ذلك ما حدث في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني وأبنائه من بعده[1].

كما أن الرسائل الموجودة بدور الوثائق الإسبانية وعلى الخصوص التي أرسلت من قبل أمراء الدولة الزيانية تدل على المستوى الأدبي الذي وصلته تلمسان عكس الرسائل التي أرسلت من قبل شيوخ القبائل البربرية والعربية نجد بها بعض الكلمات العامية التي كانت متداولة في تلك الفترة.

وكان للأندلسيين دورا بارزا في هذه النهضة الفكرية التي عرفتها تلمسان لأن أغلب الرسائل يغلب عليها الخط الأندلسي عكس الرسائل التي بعثت من قبل شيوخ القبائل البربرية والعربية، نجد أغلبها يغلب عليه الخط المغربي.

كما نجد من بين المواضيع التي أعطى لها الشعراء أهمية كبرى التصوف، فهناك مجموعة من القصائد تتعلق بالتصوف ومدح كبار المتصوفة في هذا العصر أمثال عبد الرحمن الثعالبي[2] ومحمد الهواري[3] وإبراهيم التازني[4] والشيخ السنوسي[5] ومحمد بن يوسف الملياني[6].

إضافة إلى التصوف نجد علماء اهتموا بفن جديد يتمثل في المنظومات، فكانوا يؤلفون كتبا في شكل قصائد شعرية يسهل على الطالب حفظها

1- قمنا بتصوير مجموعة من هذه الرسائل خلال آخر زيارة لنا لإسبانيا سنة 1919.
2- ابن مريم: البستان، ص 145.
3- نفسه: ص 53-85.
4- نفسه: ص 245.
5- نفسه: ص 74-57.
6- الصباغ: زهر البستان، ورقة 176.

مثل الأذكار[1] وقواعد اللغة العربية والفرائض والفلك وغيرها من الفنون.

كما توجد بعض القصائد الشعرية خصصها أصحابها للتغني بمناظر تلمسان الخلابة وبالخصوص شلالة الوريط وبعض المآثر العمرانية وقد تغنى بها الشعراء وعلى الخصوص العين الموجودة بداخلها.

وهناك قصائد تتعلق بأمراء الدولة الزيانية وبعض مواطني الدولة الذين كانوا بعد وفاتهم كالونشريسي أبي العباس وابن زكري وعمر السنوسي وغيرهم من علماء تلمسان.

والطابع السائد في تلمسان ومدنها وحتى قراها خلال هذه الفترة أن هناك من الشعراء من تغلب عليه الجانب العقائدي فكان يتغنى بالميلاديات والمدائح النبوية[2] والتضرعات والابتهالات والتوسلات[3] والحكم والمواعظ[4] لعل الدوافع في ذلك يرجع إلى عاملين أساسيين.

أولا: تأثير الحركة الصوفية في المجتمع الزياني التي شملت الجانب السياسي بقيادتها للمقاومة ضد الاحتلال الأجنبي ومعارضتها للذين يتعاملون مع القوة الأجنبية، وقوفها إلى جانب الفئات المحرومة في الأرياف التي تتعرض إلى الاضطهاد من قبل القوىالمتصارعة واستبداد شيوخ القبائل وامتد تأثيرها إلى الجانب الثقافي[5] فكثرت المدائح الدينية والنبوية وكرامات الأولياء أو ما يعرف بعلم المناقب والاهتمام بالآخرة.

1- نفسه : ورقة 175.
2- رحلة ابن عمار ، ورقة 136.
3- نفس المصدر ، ورقة 137.
4- نفسه : ورقة 138.
5- عن هذه الأمراض ، انظر ، ابن مريم البستان ، مجموعة كبيرة من الصفحات.

ثانيا: أن الظروف السياسية التي عرفتها الدولة خلال هذه المرحلة جعلت الناس يتخذون نوعا ما الشعر الغزلي والإكثار من الابتهالات والتساؤلات إلى الله لعله يخرجهما من هذه الحالة المزرية التي زادت في شدتها كثرة الأمراض المعدية التي كانت تأتي على الأخضر واليابس[1].

ومن أبرز الأدباء الذين عرفتهم تلمسان خلال هذه المدة، محمد بن عبد الرحمن الحوفي[2] العالم الأصولي الشاعر أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الحوفي الفقيه التلمساني من أدباء النصف الثاني من القرن التاسع الهجري وأوائل العاشرة 15-16[3].

كان شاعرا لا يستهان به. توفي في شهر ذي القعدة 910هـ/1505م مدح السلطان أبا عبد الله محمد السابع بن أبي ثابت الثاني بقصيدة مطلعها:

أصبح الحزن من عطائك يحكى «» يوم الاثنين لا نام عطاء[4]

ومن شعره قصيدة يتغزل فيها ومطلعها:

إزداد النرن من عين نزل «» ودموع الشوق إن راق الغزل
أيغي ديمة و كافة «» أم تستعيب للنبوي منها النزل
لا بكت عيني و لا بغى البكاء «» ضرورتنا من فعلها إن لم تزل[5]

1- ابن مريم : نفس المصدر السابق ، ص 167.
2- ابن مريم : البستان ، ص 148-199-205.
3- حكم أبو عبد الله، محمد السابع، ابن أبي الثابت الثاني، ما بين سنة873-911/ 14688-1505، انظر Barges op cit P.
4- ابن مريم ، المصدر السابق ، ص 199.
5- نفسه : ص 148.

هذا وللحوفي قصيدة جليلة رثى فيها إمام أهل التوحيد محمد بن يوسف السنوسي الحسني:

ما لمنازل أظننت أرجاؤ ها ... والأرض رجت خاب رجاؤ ها
وأني عليها النقض من أطرا فها ... وتراكمت وتعاطلت أزوار ها
وزر عظيم خطبه و مصيبة ... لم تدرك بالقوم كف غراؤ ها
فقد السنوسي الإمام محمد ... وهو ابن يوسف هذا منها خلاؤ ها
فقد كان بحر المعارف زاخر... فإنجاز عنها حين بث عطاؤها
دعا إلى التوحيد دعوة مخلص ... وإلى الشريعة قادرنا خباؤها
يا أيها النفس المقدسة التي ... لبقائها المحمود كان بناؤها
يا واحد العلماء بعلمائه ... كل العلوم بدت لنا إتخذوها

ومن بين الذين اشتهروا في ميدان الشعر أيضا حدو بن الحاج الذي اهتم بالمدح، فألف منظومات في مدح النبي(ص) وتوسلات سور القرآن من أوله إلى آخره.

*** علم التوحيد:**

من أشهر العلماء الذين ألفوا في علم التوحيد والذين تأثر بهم علماء تلمسان أو عاشوا على مؤلفاتهم ولم يأتوا بجديد، محمد بن يوسف بن عمر شعيب السنوسي قال عنه الملالي: " كبير علمائها الإمام العلامة المتفاني الصالح الزاهد ولي الله بن الشيخ الصالح الزاهد الخاشع أبي يعقوب[1]، أخذ علم الحديث عن أبي الفاتح الكناشي"[2].

1- الملالي: مناقب السنوسي مخطوط بخزانة ، محمد البشير ، بالبرج ولاية معسكر ورقة 6.
2- نفسه : ورقة 6.

يتعرض السنوسي إلى الدوافع التي جعلته يؤلف في ميدان التوحيد. فقد كتب عقيدته المسماة بعقيدة أهل التوحيد ثم وضع لها شرحا عرفه باسم عمدة أهل التوحيد[1]. وفي مقدمة هذا الكتاب يربط ضعف التعليم بضعف الدولة الزيانية فيقول: "والملكة في زماننا هذا قد تمكنت من القلوب حتى.. من حسن الاستماع عن أنفسهم والإنتفاع لما تراكم عليها من ظلمات الفتن[2]".

كما أن السكان في عصره كانوا يلجؤون إلى الوسائل المادية وهو ما جعله يعلق على ذلك بقوله: والعوائد التي قادت إلى كل بلية وإنما الذكي اليوم مثالا في الغالب يحب الدنيا يسعى إليها وعدم الامتثال للآخرة وليس أهل لأن يتقيدون أو يقاد شيئا من نفائس العلوم الفاخرة[3] فالضعف الذي عرفته الدولة الزيانية نتيجة للاضطرابات هو الذي دفع بالناس إلى الاهتمام بالجانب المادي أكثر من الجانب الروحي. عندما ألف السنوسي عقائده أنكرها كثير من علماء وقته وعلى الخصوص في تلمسان فتكلموا بما لا يطاق فكثر تغيره لذلك.

وعقيدته الكبرى[4] أول ما صنفه في التوحيد وشرحها في ثلاثة عشر كراســة والصغرى شرحها في ستة[5].

والهدف من التأليف والشرح هو أن يستفيد منها أغلب الناس وأن لا تكــون حكرا على كبار العلماء أو من لهم درايــة في علــم التوحيــد[6] كما شــرح

1- توجد نسخة، منها مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم630-632.

2- نفسه: ورقة 4.

3- السنوسي: عقيدة أهل التوحيد، ورقة 3.

4- الملالي: المصدر السابق، ورقة9.

5- الملالي: المصدر السابق، ورقة 10.

6- نفسه : ورقة 11.

السنوسي الأمية الجزائرية في التوحيد المسماة كفاية المريد لأحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي، ت 884هـ/1472م[1] وعرف هذا الكتاب "بالعقد الفريد في حل مشكلة التوحيد" ومن بين مؤلفات السنوسي في هذا الميدان "كتاب أم البراهين" في العقائد وهو عبارة عن مختصر مفيد يحتوي على مجموعة عقائد التوحيد ختمه بكلمتي الشهادة.

وهناك رسالة تتعلق بالموضوع سماها "توحيد أهل العرفان ومعرفة الله ورسله بالدليل والبرهان"[2]، وقد اهتم الذين جاؤوا بعد السنوسي بما كتبه في ميدان التوحيد ومن بين هؤلاء تلميذه الملالي الذي قال عنه: "وله عقيدة أخرى فيها دلائل قطعية رد فيها على من أثبت تأثير الأسباب العادية ومختصر حاشية التقراني على الكشاف وشرح مقدمة الجبر والمفاضلة لابن ياسين من الذين اهتموا بعلم الفلك قبل هذه الفترة من التلمسانيين محمد بن أحمد أبي يحي التلمساني عرف بالحباك[3]".

من أبرز مؤلفاته بغية الطلاب وقد شرح السنوسي هذا الكتاب وألف مقدمة اعتنى العلماء قديما وحديثا بهذه الصناعة ورتّب كل واحد ما لديه فيها من بضاعة فألفوا فيها رسائل كثيرة وقد اختلفت أغراضهم بين الإيجاب والإطناب وربما كان من بعضهم حشو أو سباب[4].

1- يوجد الكتاب مخطوط بالمكتبة الوطنية ، تحت رقم 1846.

2- الملالي : المصدر السابق، ورقة 11.

3- ابن مريم: البستان ، ص 141.

4- توجد مخطوطة بغية الطلاب في المكتبة الوطنية و قد علمت من محمد بغلي أنه بتحقيقها لنشرها.

فهذا النص يوضح لنا أن خزائن تلمسان كانت تحتوي على مجموعة مـن المؤلفات في هذا الموضوع ولعل بعضها كان يدرس من قبل الحباك الـذي أخـذ منه السنوسي هذا الفن.

ولعل من أبرز ما كتب في الموضوع هو كتاب ابن الحباك "بغية الطلاب" الذي قدم له السنوسي شرحا عرفه باسم "عمدة ذوي الألباب ونزهة الحساب"[1] في شرح بغية الطلاب في علم الأسطرلاب وقد علّق عليه بقوله: "وأحسن رسالة رتبها في هذه الطريقة الجليلة وأقربها للحفظ وأجمعها للمعاني الكثيرة في الأحرف القليلة الرسالة المسماة ببغية الطلاب في علم الأسطرلاب التي ألقاها أبو عبد الله محمد بن الحباك[2] وقد جعلها منظومة ليسهل حفظها".

يبدو أن هذه الكتب من أبرز الكتب في علم الفلك المتداولة، أما في الميدان اللغة العربية فنجد من بين التلمسانيين الذين كانوا يدرسونها سيدي حدو بن الحاج بن سعيد المناوي الذي درس الأجرومية وألفية ابن مالك[3].

وأما زيان أحمد بن يوسف فقد قال عنه ابن مريم: "اشتهر باليد الطولى فـي العربية منفردا بمعرفة كتاب الرضى على الكافية كما درس اللغة العربية فـي مدارس تلمسان عمر الراشدي.

يضاف إلى هؤلاء محمد بن محمد التلمساني الذي كتب أبحاثا في النحو ومن بين مدرسي العربية أيضا محمد بن الحاج المكي أمزيان الذي درس ألفية مالك والأجرومية[4].

1- ابن مريم: المصدر السابق، ص 141.

2- التمبكتي: نيل الإبتهاج ، ص 47.

3- ابن مريم: البستان ، ص 256.

4 نفس المصدر: ص 284.

* التفسيـــــر:

أما فيما يتعلق بتفسير القرآن فنجد من بين المفسرين أحمد بن عبد الرحمن الشهير بابن زاغو المغراوي التلمساني الذي ألف كثيرا في هذا الميدان ومنها تفسير سورة الفاتحة في غاية الحسن ومقدمة في تفسير الفاتحة.

ومن بين المفسرين التلمسانيين محمد بن أحمد ابن مرزوق الذي فسر القرآن لتلامذته خلال دروسه.

* الفـــرائـــض:

إضافة إلى التفسير نجد علم الفرائض الذي عرف تطورا ومن أبرز المؤلفات في هذا الميدان فرائض ابن التلمساني الذي شرح من قبل الإمام العضوني.

كما ألف في هذا الميدان حدو بن الحاج ومحمد بن الحاج، كما ألف كتبا عديدة تعلق معظمها بالفقه المالكي أصوله وفروعه ومن أبرزها "المنهج الفائق والسهل الرائق والمعني اللائق بأدب الموثق وأحكام الوثائق"[1]، "غنية المعاصر والتاسي في شرح فقه ووثائق عبد الله القشتالي"[2] "إيضاح السالك إلى قواعد الإمام مالك"، "وعدوة البروق في تلخيص ما بين المذاهب من الجمع والفروق". خصص بعض المؤلفات لكبار علماء الفقه المالكي من التلمسانيين أمثال المقري الجد الذي أطلع عليه أبو العباس صاحب كتاب نفح الطيب كما أكمل وفيات ابن قنفذ القسنطيني[3] التي خصصها لعلماء المذهب المالكي حتى نهاية

1- ابن مريم: البستان ، ص 262.

2- التمبكتي: نيل الإبتهاج، ص 259.

3- حقق وفيات الونشريسي حاجي بالرباط.

القرن التاسع الهجري/الخامس العشر الميلادي، أي قبل وفاته بفترة زمنية قصيرة.

ومن بين العلماء الذين أنجبتهم تلمسان في ميدان الفقه المالكي أبو عبد الله محمد بن موسى الوجديجي التلمساني علق عليه ابن مخلوف فقــال عالمــها ومفتيها ومن أكابر أوليائها وصدور فقهائها الإمام الذي لا تأخــذه فــي اللــه لومة لائــم[1].

من أبرز شيوخه السنوسي وطبقته وبذلك يكون قد تأثر بالفكر الصوفــي لأن ابن مخلوف يقول من أكابر أوليائها(تلمسان)[2]. كما أخذ عن عبد اللــه بــن جلال وهو من علماء تلمسان.

*** العلــوم الــدينيــة:**

من أبرز العلوم الدينية التي عرفت شهرة في تلمسان خلال هذه المرحلة والتي كانت امتدادا للمرحلة التي سبقتها.

- أولا: الفقــه:

من أبرز علماء تلمسان في هذا الميدان أبو العباس الونشريسي الذي كان ابن الغازي يعترف له بالتفوق في الفقهيات وقد مر به يوما في مجلسه بالقرويين فقال لمن حولــه من الفقهاء: " لو أن رجلا حلف بطــلاق زوجتــه إذ أن أبــا العباس الونشريسي أحاط بمذهب مالك أصوله وفروعه، لكان بارا في يمينه"[3].

1- عن المقري: انظر ، أبو العباس ، المقري ، نفح الطيب ، ج7 ، 129-221.
2- عن ابن مخلوف: انظر مريم ، ص 154.
3- ابن عساكر: دوحة ، الناشر تحقيق حجي ، 1397-1977 ، ص 47.

أما المنجور[1] فقال عنه في فهرسته: " أنه لما لازم تدريس الفقه يقــول من لا يعرفه أنه يعرف غيره وكان فصيح اللسان والقلم ولم يكن مكثرا لما قاله الذين سبقوه بل أضاف إلى أرائهم ويتجلى لنا ذلك في مؤلفاته التي يتقدمها كتابه المعيار الفتاوي[2] علماء إفريقية والأندلس والمغرب وقد استفاد فيه من خزانة قاضي فاس ولا سيما فتاوى فاس والأندلس"[3].

أما فتاوى إفريقية والمغرب الأوسط فنقل بعضها من كتاب أستاذه المغيلي[4]، كما أخذ عن البرزلي وله تعليقات وإضافة على تلك الفتاوى وهناك أسئلة أجاب عنها بنفسه وهذا يوضح لنا المستوى العلمي للونشريسي في ميدان الفقه المالكي[5].

أما الذين تخرجوا عنه فهم أحمد البجاوي ومحمد بن يحي المديوني ويحي بن عمران الزواوي ويحي الونشريسي ومحمد عبد الرحمن بن حلال ومحمد بن شقروان ابن هبة وأغلب هؤلاء التلاميــذ من الذين اشتهروا في ميدان الفقــه وكان حيا سنة 950هــ/ 1543م[6].

ومن بين الذين يشار لهم في ميدان الفقه المالكي أبو جمعة المغراوي الوهراني الذي أصدر فتوى تتعلق بالجالية الأندلسية تدل على كثرة اطلاعه بعلوم الدين وعلى الخصوص الفقه وأصوله[7].

1- نفس المصدر: ص 27.
2- ابو العباس الونشريسي: المعيار، ج1 ، ص 9.
3- يحي المغيلي: الدرر المكنونة، ج 2، ص 237.
4- توجد هذه الإجابات في أغلب أجزاء كتاب المعيار.
5- ابن مريم: البستان، ص 54-280.
6- نفس المصدر: ص 82.
7- الزياني: المصدر السابق، ص 37.

كما ألف كتابا عنوانه: "الجيش الكمين في الرد على من يكفر المسلمين"[1] ومن بين هؤلاء الفقهاء الذين عرفتهم تلمسان خلال هذه المرحلة محمد بن العباس التلمساني عرف بأبي عبد الله كان من الفقهاء نحويا عالما وهو ابن الإمام المحقق العلامة ابن العباس[2].

تتلمذ عن الإمام السنوسي وابن مرزوق الكفيف والحافظ التنسي وابن زكري وغيرهم، وبفاس درس عن ابن غازي[3].

من مؤلفاته مجامع وفوائد، رواية وأبحاث ـ كان حيا 920هـ/1519م ـ ومن بين الذين اشتهروا في ميدان الفقه أبو الحسن علي بن محمد التاولوني الأنصاري التلمساني الفقيه العالم الجليل.

ومن بين هؤلاء محمد بن أحمد بن أحمد ابن أبي العيش الخزرجي التلمساني الفقيه الأصولي له فتاوى بعضها في المعيار وتأليف كبير في الأسماء الحسنى في سفرين سنة911هـ/1505م[4] يضاف إلى هؤلاء ابن زكري الذي شرح ورقات إمام الحرمين أبي المعالي في أصول الفقه وله فتوى منقولة في" المعيار والدرر المكنونة في نوازل مازونة".

يضاف إلى هؤلاء الذين اشتهروا في ميدان الفقه سليمان بن الحسن البوزيدي الشريف التلمساني أبو ربيع الذي قال عنه القلصادي في رحلته كان سليمان البوزيدي فقيها إماما عالما بمذهب مالك وبفقهه[5] وذكر ابن غازي

1- يوجد الكتاب مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 700د.

2- ابن مريم: نفس المصدر السابق، ص 259.

3- نفسه: ص 159.

4- نفسه: ص 252-253.

5- نفس المصدر: ص 105.

في فهرسته بأنه الفقيه العالم المحقق، الشريف الحسب والنسب، قال عنه الونشريسي شيخ شيوخها الفقيه المحصل المحقق له ابتكارات في الفقه.

كما اهتم بالفقه محمد بن أبي العيش الخزرجي[1] التلمساني الفقيه الأصولي أبو عبد الله من فقهاء تلمسان الأجلة وعلمائها الأهلة له فتاوى نقلها الونشريسي في معياره.

ومن ألّفوا في الفقه محمد بن عبد الرحمن بن جلال[2] الوهراني قال عنه المنجور: " كان فقيها علامة مشاركا في كل فن موحدا مكتبا خطيبا استفدت منه في العقائد والفقه والحديث".

- علم الأصول والحديث:

يعتبر هذا العلم من بين العلوم التي عرفت إقبالا من قبل التلمسانيين وقد أدخل علم الأصول إلى المغرب الإسلامي الذي تلقى شطرا من تكوينه على علماء الأصول، فنقل العلم إلى مراكز المغرب الإسلامي عند عودته من المشرق.

ومن أبرز المدارس التي كانت تدرس في مدارس الدولة الزيانية ومساجدها جمع الجوامع لتاج الدين عبد الوهاب السبكي771هـ/1370م وكذلك ابن عرفة ت 803هـ/ كما اهتم علماء تلمسان بعلم الحديث ومن بين هؤلاء أحمد بن محمد بن يعقوب العجسي منها شرح مختصر خليل وله تعليق لطيف على البخاري في نحو عشرين كراسا اقتصر فيه غالبا على ضبط الألفاظ وتفسيرها[3].

1- نفسه: ص 106.
2- نفسه: ص 253.
3- ابن مريم: البستان، ص 210-207.

وقد ألف الونشريسي أبوالعباس في الحديث وله تعاليق على ابن الحاجب الفرعي ثلاثة أسفار[1].

أما سيدي حدو فقد درس رسالة أبي زيد القيرواني ومختصر ابن الحاجب الفرعي كما اهتمّ بالحديث في تلمسان زيان بن حمد بن يونس الذي أخذ مختصر الشيخ خليل والمطول وحاشيته وشرح المحلبي على جمع الجوامع للسبكي[2].

كما اهتمّ بالحديث محمد بن أحمد بن مرزوق الذي درس تفسير صحيح البخاري[3].

يضاف إليه محمد بن الشرقي الذي حفظ مختصر ابن الحاجب الفرعي ورسالة ابن أبي زيد القيرواني[4] كما اهتمّ بالحديث محمد بن عبد الله بن الحاج بن سعيد الناوي[5] الذي ألف مختصر لأبي زيد القيرواني.

ومن بين الذين درسوا الحديث محمد بن الحاج المكنى أمزيان حفظ ابن الحاجب ورسالة ابن أبي زيد القيرواني.

ومن بين هؤلاء ابن زاغو[6] الذي قال في شأنه القلصادي قرأت عليه صحيح البخاري كله من أول صحيح مسلم.

1- ابن عساكر: دوحة ، الناشر ، ص52.
2- ابن مريم : البستان ، ص 95-267.
3- نفسه : ص252.
4- نفسه : ص201.
5- نفسه: ص 284.
6- ابن مريم: البستان ، ص 42-43.

يضاف إليه عبد الجليل التنسي[1] الذي له تعليق على ابن الحاجب كما اهتم بالحديث محمد بن محمد بن أحمد بن مرزوق الكفيف[2] الذي شرح المختصر لابن الحاجب ودرس صحيح مسلم والبخاري، كما أعطى أهمية لمختصر ابـــن الحاجب الأصلي والفرعي والتهذيب وبعض الخوخي وغيرها.

- **التصـــوف:**

يعد التصوف في هذه الفترة من أهم العلوم الدينية التي حظيت بأراضي الدولة الزيانية باهتمام كبير وعلى الخصوص التقاليد والرسائل والدراسات المتنوعة.

وبالرغم من كثرة هذه المصادفات في خزائن أمراء الدولة الزيانية فقد كان إقبال الناس على كتب التصوف من أعز ما يقتنيه الدارسون والهواة من جامعي الكتب ولا سيما من أنصار الطرق الصوفية.
وفيمايلي نذكر بعضا من المؤلفين والمؤلفات في التصوف.

أولا: أحمد زروق 899هـــ/1493م[3] الذي اعتبر ركيزة من حيث الإقبال عليه من قبل الدارسين وعلى الخصوص عندما استقر ببجاية فتوافد عليه مجموعة من طلبة العلم وفي مقدمتهم محمد بن يوسف الملياني[4].

ثانيا: محمد بن علي الخروبي[5] سنة 956هـــ/1557 عاش في الجزائر وكان مغرما بجمع الكتب واقتنائها وقد تأثر بن مزروق وعلى الخصوص

1- نفسه: ص 221-284-249.
2- المقري: نفح الطيب ، ج2 ، ص 693 ، و ج4 ، 320 ، و ج5 ، ص 418-419.
3- التمبكتي: المصدر السابق ، ص 84.
4- الصباغ : المصدر السابق ، ص 14 ، و أبعدها.
5- لمزيد من المعلومات انظر، أبو القاسم سعد اللهتاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص504.

فـــي كتابه" الدرة الشريفة" في الكلام على أصول الفقه.

كما ألف في الطريقة الشاذلية التي هي في نظره تعتمد على ثلاثة أصول:

أولا: أن يلتزم بسلوك الطريقة والتمسك باليقين والابتعاد عن مخالطة الناس والافتناء بشيوخ الطريقة العارفين واتباع تعاليم السنة قولا وفعلا والابتعاد عـــن مخالطة الناس في سرائه-الرضا مما قسّم الله قليلا أو كثير- الاستنجاد بالله فـــي الشدّة.

ومن بين الذين تأثر بهم في ميدان التصوف أحمد بن يعقوب العجيسي الشهير بالعبادي[1]، قال في شأنه ابن مريم، له فوائد عديدة وتحقيقات مفيدة لاسيما في التصوف فقد نظر بمعرفته وبجودة التأليف فيه.

ومن بين ما ألف شرح المراصد في التصوف لشيخه أحمد بن عقبة وكتاب "النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية: ومختصر إعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح والتمكن"، وكتاب "القواعد في التصوف وكتاب "عدة المريد الصديق من أسباب المقت في البيان الطرق وذكر حوادث الوقت" وهو كتاب جليل في موضوعه به مائة فصل بيّن فيه البدع التي يفعلها فقراء المتصوفة وشرح نظم ابن البناء في التصوف.

ومن بين الذين اهتموا به أحمد التمبكتي الذي قال عنه أنه آخر أئمة الصوفية المحققين الجامعين بين الحقيقة والشريعة، كما ألف في التصوف أحمد بـــن محمد بن محمد بن يحي المعروف بابن حيدة المديوني الوهراني، أخذ التصوف عن ابن تاغزوت.

1- ابن مريم: البستان، ص 200.

أضاف إليه سعيد بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمن بن بلعيش المقري الذي أخذ عن حاجي الوهراني لباس الخرقة الصوفية كما أخذ التصوف عن علي بن يحي السلكستني.

ومن بين الذين أثروا في ميدان التصوف عبد الله المناوي الذي أخذ عن محمد بن بلال القراءات السبع والتصوف وأخذ عنه اليعقوبي التصوف، وكتب ابن عطاء الله كلها.

وذكر ابن مريم بأن محمد بن بلال قال: "وجد في يوم بالجامع الأعظم من تلمسان يقرأ كتاب التنوير أسقاط التدبير فقال لي: "من أمرك أن تقرأ هذا الكتاب؟، فقلت له: تبركاته، فقال: نعم، قرأته أنا على سيدي أحمد بن الحاج فقرأت عليه شيئا من التنوير، ثم قال لي: قد أجزتك قراءته، ودعا لي بالخير ففتح الله لي، ثم قرأت الحكم فحفظتها كالفاتحة وجعلتها وردا أقرأها كل يوم صباحا ومساءا ففتح الله لي في ابن عباد، وكتب ابن عطاء الله كلها وكتب أحمد زروق الإثني عشر".

- الهجرة الخارجية لعلماء تلمسان:

هذا فيما يتعلق بالحركة الثقافية التي قامت على إنقاذ الفترة التي عرفت فيها تلمسان ازدهارا فكريا وأنجبت فقهاء العصر الذين أشاد بهم العلماء المعاصرون لهم شرقا وغربا وترجمنا للبعض منهم لكي نبرز الخسارة التي عرفتها تلمسان.

فقد تعرضت خلال الفترة الممتدة من بداية القرن العاشر إلى منتصفه/ السادس عشر، إلى الاضطرابات نتيجة للصراع الذي قام بين أفراد الأسرة الزيانية ثم تدخّل الإسبان وباشاوات الدولة الجزائرية والسعديون زيادة

على شيوخ القبائل من بني راشد فاشتدت المؤامرات وانعدام الأمن فأثر ذلك على الحياة الفكرية بعاصمة الدولة الزيانية ودفع بعلمائها إلى تركها والخروج منها نحو فاس عاصمة الوطاسيين والواحات الصحراوية كما حدث مع الشيخ محمد بن عبد الكريم الذي سبق لنا التعرض له.

*** الهجـرة إلى فاس:**

ففيما يتعلق بمدينة فاس فإنها لم تكن مجهولة لدى علماء الدولة الزيانية فقد سبق لبعضهم الانتقال إليها خلال عصر قوة الدولة مثل الونشريسي وأبناء الإمام والمقري والأبلي كما عاش فيها فترة من الوقت أبو عبد الله الشريف التلمساني وأحمد المقري.

من بين عوامل انهيار الدولة الإسلامية بالأندلس ضعف المسلمين ونجاح حركة الاسترداد المسيحية، ثم الهجوم الإسباني على السواحل الجزائرية وخاصة وهران التي كانت من بين المراكز الثقافية للدولة الزيانية فهاجر بعض علمائها إلى فاس، يضاف إلى ذلك قيام الدولة الجزائرية[1] الحديثة وانحسار نفوذ بني زيان عما كان عليه من قبل[2].

ومن ناحية أخرى فإن فاس قد اختصت بمميزاتها القديمة المركزة على التألق في دراسة الفقه المالكي والعناية الفائقة بعلوم الدين بعد تأسيس جامع القرويين[3] الذي كان قبلة للعلماء.

1- عن احتلال وهران، انظر، الباب الأول الفصل الأول، ص.

2- تأسست الدولة الجزائرية على يد خير الدين سنة1518، انظر للمؤلف مجهول غزوات عروج و خير الدين، ورقة 37.

3- عن تأسيس مسجد القرويين من فاطمة أم التقتاني القروينيه، ج1، ص20-21، دار الكتاب 1979، انظر، محمد العابد الفاسي فهرس مخطوطات.

يضاف إلى كل ما سبق أن سلاطين المغرب كالوطاسيين والسعديين رحبوا بهجرة علماء الدولة الزيانية وخاصة القادمين من تلمسان لأسباب سياسية تتعلق بموقفهم من الدولة العثمانية عموما والجزائرية على الخصوص.

كما حدث خلال الحملة السعدية[1] على تلمسان أن رافقت القوة السعدية مجموعة من علماء الدولة الزيانية بينما التحق ما بقي بعاصمة بني زيان زملائهم بفاس بعد نهاية دولتهم و ربط تلمسان بالجزائر. فالعلماء كثيرون لكننا سنكتفي ببعضهم لأن بحثنا يتعلق بانهيار الدولة الزيانية ونترك الأمر للذين يريدون دراسة الحياة الثقافية للمغرب الأوسط في عصر الدولة الزيانية.

ولعل من أبرز العلماء الذين أثّروا في الحركة الفكرية بفاس بعد أن فقدتهم الدولة الزيانية هو أبوالعباس أحمد بن يحي بن محمد عبد الواحد الونشريسي[2] وابنه عبد الواحد[3] نجهل تاريخ مولده ومسقط رأسه هل كان بتلمسان أو بالونشريس[4] لأن الذين ترجموا له لم يتعرضوا لهجرة عائلته إلى تلمسان والظروف التي دفعتها لهذه الهجرة بل اكتفوا بمرحلة استقراره بفاس.

أما رحلته من تلمسان لفاس فكان السبب فيها، موقفه من أمراء بني زيان لم يكن مؤيد لسياستهم عكس بعض علماء عصره وقد صرح في كتابه المعيار أن شر العلماء هم الذين يتقربون من سلاطين الدول.

1- عن الحملة السعدية على تلمسان سنة انظر، الباب الأول، الفصل الثالث من هذه الرسالة.

2- التمبكتي: المصدر السابق، ص، ابن عسكر المصدر السابق، ص47.

3- نفسه: ص 54.

4-جبل الونشريس يشكل جزء من سلسلة الأطلس التلي يقع غرب الجزائر ضمن ولاية الشلف، لمزيد من المعلومات عنه، انظر، حايمي عبد القادر جغرافية الجزائر، ص36 .

كما أورد نازلة تتعلق ببناء جدار وحصن على أحد المقابر المجاورة للمدينة بعد حفرها، وقد عارض وجاء ببعض الأحاديث النبوية الشريفة وأقوال أئمة علماء المالكية التي تؤكد احترام مقابر المسلمين وفند تلك الآراء التي تؤكـــد عكس ذلك ولعل هذا كان أيضا من بين عوامل خروجه من تلمسان لأن الذين ترجموا له لم يوضحوا لنا الأسباب التي دفعت السلطان الزياني المتوكل إلـــى نهب داره بعد خروجه من تلمسان متسترا حتى لا يكتشف أمره فوصل إلـــى فاس حسب ما ذكره أحمد بابا التمبكتي في شهر المحرم من سنة 834هـ/ 1469م بمفرده لأن الأسرة لم ترافقه ويبدو لي أنها التحقت به بعد فترة وجيـــزة من استقراره بفاس.

أما عن دراسته فقد بدأها بتلمسان، وتخصص في العلوم الدينية تتلمـــذ علـــى الشيخ الإمام قاسم بن سعيد[1] العقباني وولده القاضي العالم أبو سالم[2] العقباني وحفيده الإمام محمد[3] بن أحمد قاسم العقباني، كما درس على الشيخ أبي عبد الله ابن جلال وابن مرزوق الكفيف ومحمد بن العباس.

ويبدو أن هؤلاء العلماء أجازوا الونشريسي مما جعله يتولى مهنة التدريس بعد وصوله إلى فاس بالمسجد المعروف بالشراطين قبل أن تسند إليه الكراسي الوقفية بأهم مساجد ومدارس فاس.

وقد أشاد علماء المغرب بتفوقه ومن بين هؤلاء ابن غازي الذي اعترف للونشريسي بالتفوق في الفقهيات وعندما مر به يوما بمجلسه في القرويين قال لمن حوله من الفقهاء: " لو أن رجلا حلف بطلاق زوجته إذ أن أبا العباس

1- تمبكتي: المصدر السابق، ص 101.
2- نفسه: ص 58.
3- نفسه : ص 35-55.

الونشريسي أحاط بمذهب مالك أصوله وفروعه لكان بارا في يمينـــه"، أمـــا ابـــن غازي فقال في فهرسه: "واكب على تدريس المدونة وابن الحاجب. وكان مشاركا في فنون العلم إلا أنه لما لـــزم تدريس الفقـــه قـــيل: " كأنـــه من لا يعرف غيره وكان فصيح اللسان والقلم"[1]. درس أيضا بالقرويين الذي يعتبر أكبر مساجد فاس ومراكزها العلمية.

أما فيما يتعلق بتلامذته فقد تخرج عليه مجموعة من العلماء بلغوا درجة عليا في التدريس والقضاء والإفتاء في كل من فاس وفقيق وجبال الأطلس أشهرهم ولده عبد الواحد الونشريسي ومحمد بن عبد الجبار الذي عمر زاوية أبيه المشهورة في فقيق والحسن ابن عثمان بتاوردانت بواسطة هؤلاء امتد علم أبي العباس إلى ربوع المغرب الأقصى.

كما تولى وظيفة الإفتاء وهي من أبرز الوظائف التي لا تتحصل عليها لأمن من كان نابغا في العلوم الفقهية هذا فيما يخص تلامذته أما إنتاجه الفكري فهو مرآة لعصره ومن أشهر مؤلفاته كتاب المعيار في فتاوى علماء إفريقيا والأندلسية والمغرب نقل فتاوى الأندلس وفاس من خزانة قاضي فاس.

وأما فتاوى إفريقيا والمغرب الأوسط نقل بعضها من كتاب يحي المغيلي صاحب كتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة كما أخذ عن البرزلي وله تعليقات وإضافة على تلك الفتاوى وهو ما يوضح لنا المستوى العالي له.

كما ألف إلى جانب المعيار كتبا عديدة تتعلق معظمهـــا بالفقـــه المـــالكي أصوله فروعه منها: «المنهج الفائق والسهل الرائق والمعنى اللائـــق بـــأدب الموثق وأحكام الوثائق»[2] «غنية المعاصر والتاسي في شرح فقه ووثـــائـــق

1- ابن مريم: البستان ، ص 170.
2- توجد منه في الخزانة العامة بالرباط نسختان تحت رقمين 1609-1354.

عبد الله الفشتالي»[1] «مختصر أحكام البرزلي» «إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك» «عدة البروق في تلخيص ما في المذاهب من الجمع والفرق» «القصد الواحد في اصطلاح ابن الحاجب» وله تأليف في ترجمة المقري الحد، ووفيات العلماء، شرح الخرزجية في الغرض والولايات والخطط الشرعية. أما وفاته فكانت سنة 914هـ/1508م-1509م.

هذا فيما يتعلق بالونشريسي ابي العباس أمّا ابنه عبد الواحد فقد زاول دراسته في فاس على والده وعلماء الدولة الوطاسية.

وفي سنة 911هـ/1505م وجه أباه فلما عرس أطلق القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد بن عبد الله الفيرني قاضي فاس بدأه على الشهادة لعبد الواحد الونشريسي وقال له: «هذه هديتي لهذا العرس لأن الشهادة عند هذا القاضي عزيزة عليه فكان يقول: "من طلبها كأنما طلب ابنتي".

ولما توفي أبوه قيل أنه لا يحسن درس أبيه فجلس على كرسيه بالمدرسة الصانجية، فدرس المدونة وحضر الناس دروسه يختبرونه في مقدمة هؤلاء ابن الغازي الذي قبّله بين عينه بعد نهاية درسه وقال لو لم يحسن الدرس لقمت مقامه حتى يحسنه ويأخذ مرتّب أبيه.

كما كان يأتي مجلسه مجموعة من علماء المغرب الأقصى، أما عن الوظائف التي تخلى عنها إلى الفتوى بعد موت الشيخ بن هارون[2] كان شاعر مجدا، له أزجال وموشحات مع رقة طبعه، واهتزازه عند سماع الألحان واعتدال مزاجه، وقوام طبعه.

1- توجد تحت رقم 1610-889.
2- ابن عسكر: المصدر السابق، ص 47.

هذه المميزات التي تميّز بها جعلته مقربا من الوطاسيين حيث كان السلطان أبو العباس معتقدا في الصلحاء وأرباب الأحوال ومن فوقهم من أهل العلم كما كان وقف عند إشارته الفقهية أي مالك عبد الواحد الونشريسي.

وأما موقفه من ملوك عصره فهو يختلف عن أبيه وربما أكثر شدة منه من ملوك عصره ومما يؤكد ذلك أنه ذات يوم خرج الناس لصلاة يوم العيد ينتظرون السلطان وطال انتظارهم وعندما انتقل عبد الواحد إلى المصلى فرقى المنبر وقال ذلك بحضور السلطان الوطاسي ولم يكن كعادة بعض العلماء.

وهو الذي كتب عقد الصلح بين الوطاسيين والسعديين سنة 940هـ/ ثم بموجبه أن يكون للسعديين من تادلا إلى السوس وبني وطاس من تادلا إلى المغرب الأوسط. وحضر الصلح قاضي فاس أبو الحسن علي بن هارون المطغري التلمساني.

وأما أحمد فقد بدأ عهده بالقضاء على أبي حسون علي بن محمد الوطاسي وأشهد عليه فجعله من ملكه وكتبها الشيخ أبي محمد بن الواحد الونشريسي وعليه خطوط جماعة من الفقهاء.

وفي هذه الفترة أصبح المغرب في حالة غير مستقرة لاشتداد النزاع بين السعديين والوطاسيين فأثر على العلماء الذين كانوا في مقدمة وقوع هذا الصراع لتأثيرهم على المجتمع، مما يجعل كل واحد من هؤلاء الأمراء يريد التأييد والنصرة منهم لإصباغ عمله بالشرعية.

يضاف إلى الونشريسي الذي كان مفتيا في فاس محمد بن هبة الذي حاضره السلطان أبوعبد، لم يذكر الذين ترجموا له متى ولد ولكن يبدو

لــي مولده في حدود سنة 908هـ/1502م لأن المترجمين له ذكروا بأنه في حدود سنة 983هـ/1575م. كان عمره يناهز خمس وسبعين سنة[1] أما عن شيوخه فنجد في مقدمتهم أحمد بن طاع الله والشيخ أي مروان وعبد المالك الذي أخذ عنه علم الكلام كما درس في تلمسان عن مجموعة من العلماء خاصة تلامذة الإمام السنوسي[2] وأبو العباس ابن زكري[3].

هذا فيما يتعلق بشيوخه، أما معارفه فيذكر عنه أنه كان عارفـا بعلم الأصول والبيان والمنطق والفرائض والحساب أما عن انتقاله من فاس فيذكر أنه في سنة967هـ/1559م اتصل بسلطانها الذي أكرمه وولاّه الفتوى بحضره[4] مراكش، ثم بعد ذلك انتقل إلى فاس عاصمة دولة السعديين فوجد ترحيب من سلاطين هذه الدولة فقلدوه مهنة التدريس وهي من الوظائف ذات الشأن الأكبر في الدولة، كما تولى الخطبة بجامع الأندلسيين لفاس وهو أكبر مساجدها إلى جانب القرويين واستمر ذلك في عهد أبناء محمد الشيخ أي يزيد وعبد الرحمن الذي يحتل تلك المكانة التي أعطاها له محمد الشيخ، ثم نقل إلى جامع القرويين إماما مدة ثلاثة عشر سنة واعتبر من قبل صاحب كتاب" سلوة الأنفاس" إمام الأئمة.

وأما الذين تتلمذوا عليه فهم النوارحي ابن مروان بن عبد المالك وأبي عبد الله السنوسي وأبي العباس أحمد بن يوسف الراشدي الملياني.

1- التمبكتي: المصدر السابق، ص 112.

2- ابن مريم: البستان، ص 263.

3- نفسه: ص 237.

4- مراكش مدينة مغربية أسسها يوسف بن تاشفين ، لمزيد من المعلومات عنها انظر ياقوت الحموي: المصدر السابق: ج ، ص 116.

ومن بين العلماء التلمسانيين الذين أثروا على الحركة الفكرية بفاس العالم الجليل محمد بن المقدم الخوار التلمساني الذي درس بمسجد القرويين المختصر وغيره من المؤلفات الفقهية.

كان من الجوار حسن الخلق مائلا إلى تواضع، قرأ على فقيه الحاج محمد الكنور وغيره. توفي في أوائل العشرة الثانية من القرن العاشر الهجري.

يضاف إليه الفقيه العالم العلامة مفتي فاس وخطيب جامعها الأعظم وعميد علمائها وشيخ الجماعة بها أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن جلال المغراوي التلمساني.

ولد بتلمسان سنة908هـ/1504م ثم رحل منها إلى فاس سنة958هـ/ 1551م أيام السلطان أبي عبد الله الشيخ، ولما استقر بها قلده السلطان المذكور الفتوى والتدريس والخطبة بجامع الأندلس ثمان سنين في حياة أبي زيد عبد الرحمن بن إبراهيم وولده الشيخ أبي شامة، ثم بجامع القرويين ثلاثة عشر سنة فكان إمام الأئمة وخير من أخيار الأمة.

وتنافس في علومه الناس والاقتباس من علومه عارفا بالمنطق والعقائد والبيان والفقه والحديث والتفسير وغير ذلك مرجوحا إليه في تحرير عقائد التوحيد أما عن شيوخه، فقد أدرك المشايخ بتلمسان. فأخذ عنهم وانتفع بهم ومن هؤلاء الفقيه الصالح المفتي أبو عبد الله محمد بن موسى فقيه تلمسان والفقهاء المتقنين لصالح المفتي أبي عثمان سعيد المقري وأبي العباس أحمد بن طاع الله من تلامذة الشيخ بن غازي كما أخذ عن أبي مروان عبد المالك البرجي التفسير وغيره، كما أخذ عن جماعة من أصحاب عبد الله السنوسي وأبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي الملياني لأن ابن جلال كان يزور الملياني مع والده فتأثر به في ميدان التصوف.

أما تلامذته فإن من بينهم حسب رواية التمبكتي أبا المحاسن الذي لازمه كثيرا فقرأ عليه التفسير والأصول والفقه والكبرى والصغرى للسنوسي وهــو مــا يؤكده التمبكتي بقوله: "أحمد الشيخ أبو المحاسن عنه عقائد التوحيد فكان ماهرا في ذلك بشهادة العامة والخاصة.

وقال في شأنه ابن عسكر: "لقي المشايخ وأخذ عنهم بتلمسان وطالت أيام رئاسته بفاس أين أثقله الهرم، وانتفع الناس به" وتوفي سنة **981**هـ /**1573**م.

أما المنجور فذكر في فهرسته: "قدم على فاس من فقهاء تلمسان وأخذ عنــه هو الفقيه الموحدي كثير الأذكار وقراءة القرآن".

كما عرف عنه بأنه من بين الذين يلازمون قراءة العلم والتصنيف والتدريس والتأليف يشارك العامة والخاصة من هذه الأمة إنارة الخلوة وإجابة الدعوى.

ومن علماء تلمسان الذين عاصروه أحمد بن محمد يعقوب العبادي نجهل كل ما يتعلق بتاريخ مولده الأول، لكن يظهر أنه ولد بتلمسان ودرس بهــا دراسته الأولى في الكتاتيب التي خصصت لحفظ القرآن ومعرفة مبادئ اللغة العربية، ثم بعد ذلك اتّصل بكبار علماء عصره فزاول دراسته بمدارسها وكان يشارك في حلقات الدرس التي تقام بمدارس تلمسان ومساجدها.

يعتبر العبادي من بين العلماء الذين وقفوا ضد الوجود التركي في تلمسان مما جعله يرتحل إلى فاس مع مجموعة من العلماء الذين كانوا معه في نفس لذلك عندما وصل إلى فاس وجد ترحابا من قبل سلاطين الدولة السعدية حيث ذكر المراكشي فأمرهم الأخبار ونقلهم إلى فاس وأوصل كل عالم على قدرته.

وعندما وصل هؤلاء العلماء إلى فاس وجدوا ترحابا من قبل السعديين فقدمت لهم الهدايا وهو ما يؤكده العبادي بنفسه حيث ذكر أن الأموال التي قدرت بألف مثقال من الذهب كما أمر لهم بكساء وإقامة جليلة.

والهدف من وراء ذلك أن الدولة السعدية تريد استغلال علماء الدولة الزيانية للدفاع عن سياستها التوسعية والوقوف في وجه الدولة الجزائرية.

وبما أن بعض هؤلاء العلماء كانوا يؤيدون هذه السياسة وسبق لهم مكاتبة محمد الشيخ ولعل من بين هؤلاء العبادي الذي عين من قبل السلطان السعدي للتدريس بفاس مما جعل علماء الدولة السعدية يقبلون على حلقات دروسه لإعجابهم بحسن عبارته وتحقيقه.

لم يبق تأثيره مقتصرا على علماء فاس فقط بل امتد لأغلب مراكز الدولة، فقد رحل من فاس إلى مراكش ويظهر لي أنه زاول بها التدريس قبل أن يعود إلى تلمسان، لن يتعرض الذين ترجموا له سبب عودته لتلمسان، لكن يبدو لي أن سلاطين الدولة السعدية بعد مقتل محمد الشيخ وزيادة نفوذ الدولة الجزائرية الحديثة بعد سقوط الدولة الزيانية 962هـ/ **1554**م[1] لم يفكروا في توسع تجاه هذه الدولة.

ومن بين علماء تلمسان الذين عاصروه محمد بن موسى الوجد يحي التلمساني وهو مثل علماء عصره نجهل تاريخ ميلاده ومعارفه الأولى التي تلقاها عن شيوخه ماعدا إشارة ابن مخلوف الذي قال في شأنه عالمها ومفتيها ومن أكابر أوليائها وفقهائها الإمام الذي لا تأخذه في الله لومة الإمام لائم، أخذ عن عبد الله بن جلال.

1- عن سقوط الدولة الزيانية: انظر الفصل الثالث من الباب الأول.

وأما الذين تتلمذوا عليه فنذكر ابنه وأحمد البجاني ومن بين الذين ارتحلوا من تلمسان إلى فاس، محمد بن هبة الوجد يحي الملقب شقرون التلمساني[1].

لم يذكر الذين ترجموا متى ولد، يبدو أنه ولد بتلمسان سنة908هـ/ 1502م، لأن الذين ترجموا له يذكروا بأنه توفي سنة 983هـ/1559م، وعمره خمس وسبعون سنة[2].

ومن بين الذين ارتحلوا إلى فاس أبو جمعة المغراوي الذي سبق أن تعرضنا له عند كلامنا عن علماء وهران، زاول دراسته بعاصمة الدولة الزيانية قبل انتقاله إلى المغرب الأقصى، وهو ما دفع بالذين ترجموا له أن يقولوا عنه الأستاذ المتكلم، القدرة المقوي، العالم العمدة[3].

وفي المغرب الأقصى، درس على ابن غازي وتأثر به، ومن أبرز مؤلفاته "الجيش الكمين في الرد على من يكفر عموم المسلمين"، وله شعر في رثـــاء، ابن غازي توفي بفاس سنة929هـ[4] وعندما حل بفاس، وجد ترحيبا من قبـــل أمراء بني وطاس، فكلف بتدريس الفقه، وأصوله في تلمسان بالمسجد المعروف بالشراطين، قبل أن تستند إليه الكراسي الوقفية في أهم مساجد، ومدارس بفاس[5].

1- ابن مريم: البستان، ص 64-284.

2- ابن القاضي: درة الحجال ، ص 215.

3- ابن القاضي : المصدر السابق، ص 125.

4-يوجد هذا الكتاب مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1136، ورقة 16 و هو من الكتب التي تحتاج للنشر لأنه يبرز مواقفه من العلاقة بين المسلمين و النصارى خلال عصره.

5- ابن مريم: البستان ، ص 54.

- **الهجرة للمشـــرق الإسلامي:**

لم تكن هجرة التلمسانيين مقتصرة على المغرب الأقصى فقط بل امتدت إلى المشرق الإسلامي وأثر هؤلاء العلماء في الأحوال الثقافية وحتى الإدارية في بلدان المشرق الإسلامي ومن بين هؤلاء العلماء: شهاب الدين التلمساني.

لكن السخاوي لم يذكر لنا المراحل الأولى من حياته بل اكتفى بالفترة الــتي عاشها في المشرق فقد قال عنه أنه تولى القضاء بالأسكندرية ودمشـــق ولا يمكن أن يتولى هذا المنصب إن لم يكن من كبار الفقهاء[1] ومتمكنا من معرفة مجموعة من المعارف فقد قال عنه السخاوي أنه كان يمتاز عن غيره بالترحال حيث وصل إلى مدينة شيــران[2] وشهــد بها وفاة العالم الجلــيل ابــن الجزري[3] سنــة 833هـ/ 1429م.

أما الشيوخ من المشارقة الذين تتلمذ عليهم نذكر من بينهم ابن خلكان فقــد ذكر السخاوي أنه درس عليه صحيح ومسلم وأثناه على مباشرة القضـــاء بالأسكندرية ولعله كان له الفضل في توليه هذا المنصب[4]. وهو من بـــين الذيـــن ترجم لهم السخاوي من التلمسانيين.

قال في شأنه الحمال أبو عبد الله الدمامي، قال في ساعة الحمال فـــي تاريخه: « باشر القضاء مستحفظا في مباشرة الوظيفة ولعل السبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى أنه من العلماء الوافدين الجدد على الإسكندرية»، لكـــن

1- السخاوي: الضوء اللامع ، ج2 ، ص 236.

2- شيران. من بين الأمصار الاسلامية التي عرفت ازدهار الحركة الاسلامية مما جعلها قبلة للعلماء.

3- السخاوي: المصدر السابق ، مجلد 1 ، ص 193.

4- الإسكندرية مدينة ساحلية على البحر المتوسط شيّدها الإسكندر المقري وكانت تحتوي على أهم مكتبة في العالم،لمزيد من المعلومات عنها،انظر ياقوت الحموي معجم،البلدان.ج1،ص167.

هذا التحفظ قد زال بعد أن انتشر صيته وعدله في القضاء التي طرحت عليه.

ومن الإسكندرية انتقل إلى دمشق[1] ولم تتشر كتب التراجم إلى أسباب تخليه عن الوظيفة وانتقاله إلى دمشق إلا أنه يظهر لي بأنه قد عزل من منصبه فأثر ذلك عليه مما جعله يفضل الانتقال إلى بلاد الشام حيث اتّخذ دمشق مستقرا وتولى بها وظيفة القضاء، ثم عزل ولكنه في الأخير تمكن من استعادة منصبه الذي بقي به حتى وفاته سنة **874هـ/1469م**[2]. وصلى عليه بالجامع الأموي ودفن بباب الفراد بين الجهة الشرقية من دمشق[3].

ومن بين الذين ارتحلوا إلى المشرق محمد بن وارث[4] الذي ولد بتلمسان وتلقى علومه بها، وتقرب من سلطانها المنتصرين، أبي حمو ويظهر أنه اختلف معه أو أن أعيان الدولة الزيانية قد دبروا له مؤامرة للتخلص منه، مما جعله يترك تلمسان، نحو المشرق، ومما يؤكد قول السخاوي خادم المنتصر بـــن أبي حمو صاحب تلمسان، أحس بشيء فقدم القاهرة[5].

فهذا النص يؤكد لنا أن من بين الدوافع التي دفعت علماء تلمسان إلى الرحلة إلى المشرق أن أراضي الدولة الزيانية كانت تعيش اضطرابات نتيجة للصراع بين أمراء الدولة الزيانية ودور القبائل العربية والبربرية، التدخل الخارجي وعلى الخصوص محاولة دول المغرب الإسلامي، السيطرة علـــى

1- الإسكندرية مدينة ساحلية على البحر المتوسط شيدها الإسكندر المقدوني و كانت تحتوي على أهم مكتبة في العالم، لمزيد من المعلومات عنها، انظر ياقوت الحموي معجم البلدان ج، ص.
2- دمشق مدينة من المدن القديمة في بلاد الشام اتخذها الأمويون عاصمة من 40هـــ625م ، لمزيد من المعلومات عنها انظر ياقوت الحموي المصدر السابق ، ج3 ، ص 136.
3- السخاوي ، المصدر السابق ، مجلد1 ، ث 167.
4- نفسه: مجلد ، ج1 ، ص 167.
5- نفسه: مجلد ، ج1 ، ص 167.

تلمسان وفي القاهرة اتّصل بأعيان الدولة، وفي مقدمتهم الجمالي[1] ثم سعد الديـــن إبراهيم بن أعراب الذي[2] أنعم عليه واستمر مقربا منه، مدى حياته، كما أكثـــر العبادة و النسك. ومن بين الذين ارتحلوا إلى المشرق مـــن التلمسانيين أبو عبد الله الزياني التلكساني الذي كان من أئمة العربية في عصره تتلمذ على محمد بن منداس، صاحب الجزولي[3] وعلى عبد الرحمن بن الزيات[4] ثم انتقل إلى مصر فاستقر بالإسكندرية، وبها أخذ عن موطنه عبد العزيز عمر بن مخلوف التلمساني[5] ولم يلبث أن تصدر لإقراء العربية، فتخرج عليه جماعة من الفضلاء قال عنه أبو حيان، كان شيخ أهل الإسكندرية.

ومن رحل إلى المشرق، أبو البركات[6] التلمساني يجهل تاريخ مولده والعلوم الأولى التي تلقاها. قبل أن يشارك في حلقات الدرس، ومجالس العلم، والاتصال بعلماء المشرق، وتمكن من الاستفادة، من العالمين محمد بن حيان، ومحمد وبن عبد الرحمن القرويين.

يضاف إلى هؤلاء العلماء الذين أثروا على الثقافة في المشرق من التلمسانيين، أحمد بن سعيد بن إبراهيم التلمساني، الملقب بشهاب الدين[7]، الذين تولى قضاء المالكية ببلاد الشام سنة**845**هـ/**1441**م، بعد عزل سالم الزواوي المالكي.

1- نفسه: مجلد ، ج1 ، ص 168.

2- الجمالي: لمزيد من المعلومات عنه انظر السخاوي ، مجلد2 ، ص 167.

3- سعد الدين إبراهيم بن أعراب.

4- عن محمد بن منداس : انظر السخاوي ، المصدر السابق ، مجلد ، ج3 ، ص 210.

5- محمد بن زيان.

6- ابن حيان السخاوي: المصدر السابق ، مجلد ، ص 197.

7- نفسه: مجلد ، ج2 ، ص 287.

أما عن تاريخ وصوله إلى دمشق، فكان في أول ربيع الأول من نفس السنة، ثم عزل عن منصبه، وتولى مكانه سالم الزواو[1] وبعد سبع سنوات من عزله أعيد إلى منصبه من جديد، فدخل دمشق، في ذي القعدة من سنة852هـ/1448م[2] واستمر إلى أن عزل بسبب سوء التفاهم، الذي حدث بينه وبين الحاجب الثاني، لأن ابن شهاب طالب غريب عند الحاجب المذكور، فامتنع من إرساله إليه فطالبه الحاجب، فلما حضر إليه أهانه، فوقف أمراء دمشق إلى جانب الحاجب، وكتبوا إلى مصر في شأنه فورد عليه مرسوم ينص على أن القضاة لا يطلبون أحدا، عند حكام السياسة لا يأخذون أحدا من مجالس الشرع الشريف ولا يحكمون له هذا فيما يتعلق بالعلاقة بين السلطة المحلية، ورجال القضاء، في الولايات التابعة لدولة المماليك.

أما ابن شهاب التلمساني فقد أبعد من جديد من منصبه وتولى مكانه ابن عامر المالكي. ثم عاد إلى مصر، واتصل بسلاطين دولة المماليك، واستطاع أن يضمن العودة من جديد لمنصبه، الذي تولاه في يوم ذي الحجة سنة895هـ/1491م.

وقد تذكّر كتب التراجم أنه دفع رشوة من إرجاعه لمنصب قضاة المالكية، بدمشق قدرت بخمسمائة دينار والذي سهل هذا المنصب، عبد الرحمن السويدي[3]، أصله من أراضي الدولة الزيانية ينسب إلى قبيلة سويد الهلالية استمر في منصبه إلى أن صرف، وحل الورث مكانه قاضي القضاة محي الدين بن عبد الوارث، واستمر شهاب الدين مصرفا عن قضاة حتى توفي يوم الأربعاء من خامس ربيع الأول من سنة 875هـ/1469م.

1- السخاوي: المصدر السابق، مجلد، ج4، ص 165.

2- نفسه، مجلد1، ج2، ص267.من بين الولايات التابعة لدولة المماليك ولاية الشام -دمشق-.

3- نفسه : مجلد ، ج2 ، ص 167

الفصـــل الثـــانـــي

المـــراكز الأخـــرى

من بين التغييرات التي أثرت على ثقافة الدولة الزيانية في العصور الأخيرة حياتها بروز مراكز ثانوية أصبحت تنافس تلمسان ومن بين هـذه المراكـز على الخصوص مايلي:

وهـران:

عرفت مدينة وهران ازدهارا في الميدان الثقافي، خاصة في القـرن التاسـع الهجري/الخامس عشر الميلادي، عندما استقر بها محمد بـن عمـر الهـواري، سس بها زاوية، وهو ما يؤكده ابن صعد بقوله: « كان لا يخلو مجلسـه مـن ارضة علمية ومحاضرة أدبية»[1].

فالذي يمكن استخلاصه من هذا النص أن الفنون التي كانت تقـدم لطـلاب زاوية، ومريديها، لم تقتصر على التصوف فقط بل شـملت مجموعـة مـن معارف، سبق الهواري أن أخذها عن شيوخه في كل من بجاية، وفاس.

كما نلاحظ على النص نوعا من المبالغة من قبل ابن صعد عند تعرضه هواري في ميدان المعرفة حيث اعتبره من كبار علماء عصره، وهـو مـا يؤكده بقوله: "حدثني جماعة من الأصحاب أنه كان ربما يعرض لطلبة العلم من أهل وهران وتلمسان وغيرها من سائر البلدان كثير من المسائل العويصة، يستفتون فيها شيوخ الوقت فلا يجدون عندهم شفى وعندما يأتون إلى مجلس الهواري ويحضرون في جملة من يحضره من الناس يجدون الجواب لأن الشيخ إذا أخذ في الدرس يصل إلى تلك المسائل"[2].

1- ابن صعد: روضة النسرين، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم 2596، ورقة 49 جـ
2- نفسه: ورقة 49 - 50.

المـــراكز الأخـــرى

من بين التغييرات التي أثرت على ثقافة الدولة الزيانية في العصور الأخيرة من حياتها بروز مراكز ثانوية أصبحت تنافس تلمسان ومن بين هـذه المراكـز نذكر على الخصوص مايلي:

- وهـران:

عرفت مدينة وهران ازدهارا في الميدان الثقافي، خاصة في القـرن التاسـع الهجري/الخامس عشر الميلادي، عندما استقر بها محمد بـن عمـر الهـواري، وأسس بها زاوية، وهو ما يؤكده ابن صعد بقوله: « كان لا يخلو مجلـسه مـن معارضة علمية ومحاضرة أدبية»[1].

فالذي يمكن استخلاصه من هذا النص أن الفنون التي كانت تقـدم لطـلاب الزاوية، ومريديها، لم تقتصر على التصوف فقط، بل شـملت مجموعـة مـن المعارف، سبق الهواري أن أخذها عن شيوخه في كل من بجاية، وفاس.

كما نلاحظ على النص نوعا من المبالغة من قبل ابن صعد عند تعرضه للهواري في ميدان المعرفة حيث اعتبره من كبار علماء عصره، وهـو مـا يؤكده بقوله: "حدثني جماعة من الأصحاب أنه كان ربما يعرض لطلبة العلم من أهل وهران وتلمسان وغيرها من سائر البلدان كثير من المسائل العويصة، فيستفتون فيها شيوخ الوقت فلا يجدون عندهم شفى وعندما يأتون إلى مجلس الهواري ويحضرون في جملة من يحضره من الناس يجدون الجواب لأن الشيخ إذا أخذ في الدرس يصل إلى تلك المسائل"[2].

1- ابن صعد: روضة النسرين ، مخطوط بالمكتبة الوطنية ، رقم **2596** ، ورقة **49** ج.

2- نفسه: ورقة 49 – 50.

فإذا أخذنا برأي ابن صعد، نستنتج بأن الهواري كان يستقبل طلبة العلم من مختلف المراكز الثقافية، وعلى الخصوص تلمسان التي عرفت ازدهارا ثقافيا في عصر الهواري.

أما عن نوعية الدروس التي كانت تدرس بالزاوية فهي لم تكن تختلف عما كان يقدم لطلبة المعرفة في أغلب زوايا الناحية. ولم تتوقف الحركة الفكرية في وهران، بعد وفاة محمد بن عمر الهواري بل زادت ازدهارا في عصر إبراهيم التازي، الذي تولى تسيير شؤون الزاوية، وكان من أقرب المقربين لشيخه لذا لعب دورا مشرفا على تطور الحركة الفكرية وهو ما يؤكده ابن صعد بقوله: «أقام التازي في وهران سوق الأدب، وبنى بها معالم الإسلام، والإيمان ورتب المواسم الشرعية، وركز على الآداب المدنية والدنيوية وفضل أهلها عما كانوا عليه من التدني، في الحضارة فاتسعت وعظمت فيها العمارة، وارتحل إليها كثير من أهل الجزيرة»[1].

فهذا النص الذي أورده ابن صعد يستنتج منه الباحث مايلي:

أولا: إن إبراهيم التازي الذي استقر في وهران، بعد أن درس على محمد الهواري، لعب دورا كبيرا في تطوير الدراسة بزاويته في وهران، وتشييد المدرسة التي كان الطلبة يزاولون فيها دروسهم، والتي تحتوي على غرف الطلبة والغرباء المتوافدين على وهران، لزيارة المدينة فكانوا يتلقون ترحابا. فإقبال هؤلاء على زيارة الزاوية،وعلى الخصوص العلماء،أدى إلى ازدهار التعليم، في وهران، وقد بين ذلك الرحالة المصري، عبد الباسط خليل الذي زار وهران، و حضر حفل احتفال بحفظ أحد الطلبة للقرآن.

1– ابن صعد: المصدر السابق، ورقة 13 .

ثانيا: إن اهتمام التازي بالجانب الفكري جعل مجموعة من العلماء ينتقلون إلى وهران لحضور دروس التازي، وغيره من علمائها الذين قدموا إليها من مختلف أرجاء الدولة الزيانية، مما أدى إلى ازدهار الحياة الفكرية بوهران، وهو ما جعل ابن صعد[1] يعلق على ذلك بقوله: «أقام في وهران سوق الآداب».

ثالثا: أن وهران من بين مدن الدولة الزيانية التي استقبلت مجموعة من المهاجرين الأندلسيين الذين توافدوا عليها منذ سقوط المراكز الأولى للدولة الإسلامية في الأندلس، ومما يؤكد ذلك أن أحد علماء وهران أصدر فتوى[2] في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، تتعلق بالأندلسيين وعلى الخصوص أهل الثغور الذين أصبحوا تحت ظل الدول المسيحية «أرغون وقشتالة» وأن إصداره لهذه الفتوى كان بدافع من علماء هذه المناطق الذين توافد بعضهم على وهران، واستمرت تلك الهجرة بعد سقوط المراكز التابعة لإمارة غرناطة كالمرية، وقرطاجنة، ومالقة، وغرناطة نفسها وقد وجد هؤلاء ترحابا من قبل الوهرانيين، فأصدر في هذه الفترة العالم الوهراني أبو جمعة المغراوي[3]، الذي كان يشغل مهنة الإفتاء بوهران، فتوى تتعلق بالأندلسيين وقد طلب منهم اللجوء إلى التقية للحفاظ على الإسلام، وسنتناول الموضوع بالتفصيل عندما نتعرض للجالية الأندلسية.

1- ابن صعد: نفس المصدر، ورقة 311.

2- الذي أصدر هذه الفتوى هو عبد الرحمن بن مقلاش أحد تلامذة الهواري و هو الذي أصلح سهوه، انظر ابن صعد، المصدر السابق، ورقة 20.

3- فتوى أبو جمعة المغراوي توجد لدينا نسخة منها نأمل في نشرها.

فالازدهار الاقتصادي والثقافي الذي عرفته مدينة وهران قد أثر على سكانها وهو ما جعل ابن صعد[1] يعلق على ذلك بقوله: «أحيا بعض معالم الإسلام والإيمان ورتب المواسم الشرعية ونبه على الآداب الدينية والدنيوية ونقل أهلها عما كانوا عليه من التدني في الحضارة»، لكن هذا الازدهار لم يستمر طويلا لأن مدينة وهران كانت من بين المدن التي سقطت في يد الإسبان وأن سقوطها أثر سلبا على الحياة الفكرية بها فقد نهبت مكتبتها التي كانت بزاوية محمد الهواري والتي كانت تحتوي على نفائس الكتب لعلماء المغرب الإسلامي والأندلس، فنقلت من طرف الكردينال أخسيمانس إلى مسقط رأسه بالقلعة القريبة من مدريد، وخلال زيارتنا لإسبانيا زرنا القلعة وسألنا بعض الأساتذة عنها في قسم التاريخ بجامعة القلعة لكننا لم نتوصل إلى معرفة مكانها ولعل البعض من كتبها نقلت إلى مكتبة الأسكوريال، وأخرى إلى المكتبة الوطنية بمدريد التي وجدنا بها بعض المخطوطات لعلماء جزائريين منها فتوى ابن مقلاش، الخاصة بالجالية الأندلسية.

كما كان الاحتلال سببا في مقتل بعض علمائها في المجزرة التي قام بها الجيش الإسباني عند احتلاله وهران بينما البعض تمكن من الفرار فالتحق بتلمسان ثم بعد ذلك هاجر البعض منهم إلى مدينة فاس وبقية المراكز الثقافية في المغرب الأقصى وقد لعب علماء وهران دورا مشرفا في ازدهار الحياة

1- ابن صعد: المصدر السابق، ورقة 311.
توجد قلعة هناريس مسقط رأس أخسيمانس بالقرب من مدينة مدريد وخلال زيارتنا إسبانيا انتقلنا إليها و اتصلنا بأحد أساتذة التاريخ الحديث بها وسألناه عن مكان تواجد هذه المخطوطات فرفض تزويدنا بمعلومات عنها وربما أنها بإحدى مكتبات هذه القلعة .أبو عبد الله محمد الشريف الحسني، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم760 ورقة6.

الفكرية بالمغرب الأقصى خلال عهد الدولة الوطاسية والسعدية كما تولوا وظائف في الدولة.

وهكذا نرى بأن الدولة الزيانية قد فقدت مركزا هاما من مراكزها الثقافية نتيجة لسقوط وهران بيد الإسبان وتحويل المدينة إلى مركز عسكري مسيحي.

أما فيما يتعلق بعلماء الأندلس، الذين استقروا بوهران، فيبدو أن عددهم كان كبيرا، لكننا لم نتمكن من إحصائهم لانعدام الوثائق المتعلقة بالموضوع، وعدم تشجيع رجال الزوايا وأصحاب الخزائن العلمية للاطلاع على ما لديهم من المخطوطات التي ترجع لهذه الفترة على الرغم من زيارتنا للولايات المجاورة لوهران، وكذلك عدم السماح لنا بالاطلاع على مخطوطات زاوية بطيوة.

وعلى الرغم من هذه النقائص فإن وهران قد تأثرت مثل بقية مدن الدولة الزيانية، بالهجرة الأندلسية، نتيجة لاستقرار علماء الأندلس بين أحضان سكانها، مما جعل العلماء يقبلون عليها للأخذ عنهم ومن هؤلاء محمد الشريف الحسني، أبو عبد الله الذي قال:

«لقيت بوهران سيدي عزوز بجبل المرسى بوهران سنة 852هـ/1448م وقرأت على سيدي محمد بن سعيد الشريف الغرناطي،قاضي وهران عام 860هـ/1455م". فهذا النص الذي أورده الشريف الحسني عندما تعرض إلى رحلته لوهران يؤكد على أن دور الأندلسيين لم يقتصر على الحياة الفكرية فقط، بل امتد أيضا إلى تولي وظائف في الدولة، منها قضاء وهران الذي تولاه محمد بن سعيد الغرناطي، وفي نفس الوقت درس الحديث بوهران ويبدو أنه لم يكن الوحيد الذي انتقل إلى وهران بل هنالك علماء آخرين لم يرد ذكرهم في كتب التراجم التي استطعنا الاطلاع عليها.

ومن بين العلماء الذين نسبوا لمدينة وهران أحمد صبح الذي خرج من وهران مع بناته بعدما احتل الإسبان المدينة فوصل إلى تلمسان ونزل بموضع يقال له أجادير[1] فأتى الناس إليه يأخذون عنه العلم ولعل دروسه كان يلقنها بمسجد أجادير وهو من أقدم مساجد المدينة لأنه شيد من طرف الأدارسة خلال القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي.

والشيخ كان من تلامذة إبراهيم التازي. في مدينة وهران،لهذا كان التصوف أهم الفنون التي درستها بتلمسان ومن بين الذين تعرضوا له سعيد المقري الذي قال عنه كنت آنذاك صغيرا، فحملتني أمي إليه، ومعها حبة من ثمر وإناء من الماء، ثم فتح الله علي وأطال عمره حتى كبرت وعقلت فجودت عليه القرآن.

هذه الوثيقة تبين لنا الدور الذي قام به بعض علماء مدينة وهران، عند انتقالهم لمدينة تلمسان وروح التضامن من قبل سكان عاصمة الدولة الزيانية.

ومن بين العلماء الذين نسبوا إلى وهران إبراهيم التازي الذي لعب دورا مهما في الحركة في وهران حيث شيد مدرسة[2] لطلب العلم، بها غرف مرتفعة، خاصة للموردين، من أهل البيت الكريم، ورتب فيها ما يجب من حق الضيافة. ويعرف هذا البيت ببيت الشرفاء، وقال في شأنه ابن صعد «حضرت يوما بوهران وقد قدم على الزاوية شاب من أولاد الشرفاء، باسم التجارة فتقدم إليه الشيخ المبارك، ينزله بمحل كراء مهم من المدرسة فقال ابن الشريف، أومثلي ينزل في

1- أجادير اسم قديم لمدينة تلمسان و مازال حي أجادير موجودا في شمال شرقي المدينة الحالية، وقد أسس بها إدريس الأول مسجده الذي لم يتبقى منه إلا الصومعة ، انظر محمود بوعياد ، تاريخ بن زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر و العقيان ، ص:281.

2- محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص:37 و ما بعدها، نقلا عن ابن صعد.

المدرسة، مختلطا مع الناس فقال له هذا المنزل هو أفضل منزل بالزاوية[1].

ومن هؤلاء محمد ابن عمر بن عثمان بن عبد الله بن عكاشة الهواري[2] نسبا، نشأ في مضارب مغراوة وكانت دراسته الأولى في مسقط رأسه، ثم رحل لطلب العلم فقصد فاس التي أخذ عن علمائها وفي مقدمتهم الشيخ العبدري والقباب، وهم من أبرز علماء عصرهم في فاس[3].

كما تلقى العلم في بجاية[4] عن الشيخ أحمد بن إدريس والشيخ عبد الرحمن الوغليسي[5]، وقال عنه ابن صعد أنه كان كثير الثناء على أهل بجاية.

من العلماء الذين نسبوا لهذه المدينة، سيدي بختي دفين ناحية غمرة، عرف من قبل الذين ترحموا له بأنه قد جمع بين العمل والعلم، وجودة الحفظ، وتقوية الفهم والفهامة والقريحة والديانة كما تميز بكثرة النصيحة فانتفع بعلمه خلق كثير من طلابه يغلب على ثقافته التصوف، وعلى الخصوص الطريقة الزرقوية[6] لأنه درس على محمد الهواري الذي كان من بين الذين تلقوا دراستهم في التصوف بمدرسة بجاية، التي اعتبرت من أبرز المدارس في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي[7]، كما درس أيضا على خليفة الهواري إبراهيم التازي الذي طور الدراسة الصوفية بمدرسته في وهران.

1- محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص:45.
2- ابن صعد، المصدر السابق، ورقة 3.
3- نفسه، ورقة 16 جـ.
4- نفسه، ورقة 14 جـ.
5- يعتبر أحمد بن إدريس و عبد الرحمن الوغليسي من كبار علماء بجاية في هذا العصر، انظر ابن مريم، المصدر السابق، ص:228.
6- محمد بن يوسف الزياني،المصدر السابق، ص 38.
7- نفسه، ص:40.

وهو ما جعل المترجمين للشيخ بختي يقولون عنه أنه انتفع بعلوم دينية ونال بركاته فكان من المفتوح به في كل شيء وكانت له صحبة جسمية ومحبة مع أحد رجال التصوف في تلمسان، وهو الشيخ أبو علي الحسن[1] بن مخلوف دفين تلمسان الذي يعتبر من أكبر المتصوفة في عصره، حيث أن الأمير الزياني، كان يطلب وده وود محمد الهواري، لأن فترة حكمه عرفت اضطرابات زيادة على محاولة سلاطين الدولة الحفصية السيطرة على مدينة تلمسان[2].

ومن نسب أيضا لهذه المدينة العالم الجليل محمد بن بقي، دفين جبل أبي عروض، عاش في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وقيل عنه بأنه كان له جلالة عظيمة[3].

يضاف لهؤلاء العلماء العلامة سيدي غانم بن يوسف الغمري دفين جبل ماخوخ من بلاد أولاد علي العامري قيل عنه ظهر فضله وكثر يسره وهو من بين الذين عاصروا القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي والعاشر الهجري/16م[4] من بين العلماء الذين تأثر بهم الشيخ محمد بن يوسف الراشدي ثم المليانـي[5].

كما نسب لوهران، أبو العباس أحمد بن أبي جمعة النجار الوهراني المغراوي، كان من أبرز العلماء في عصره له فتوى تتعلق بالهجرة الأندلسية،

1- الحسن أبركان أحد مشايخ السنوسي دفين تلمسان، انظر ابن مريم:البستان،ص:245-252.
2- لمزيد من المعلومات عن هذه الأحداث انظر التنسي، المصدر السابق، ص:243-250.
3- محمد بن يوسف الزياني ، المصدر السابق ، ص:45.
4- نفس المصدر ، ص:37.
5- عن محمد بن يوسف الملياني، نفس المصدر، ص:42 ، انظر أيضا محمد الصباغ ، بستان الأزهار في منابت أحمد بن يوسف الراشدي، مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم1707-1708.

أرسلها إلى الأندلسيين الذين كانوا يعيشون تحت سيطرة الدولة الإسبانية، وحثهم على المحافظة على العقيدة الإسلامية[1].

كما ألف مجموعة من الكتب بعضها لايزال مخطوطا بينما البعض الآخر نشر ومنها كتاب «الاختصار والبيان فيما يعرض من المعلمين وأباء الصبيان»[2] يتناول هذا الكتاب موضوعا مهما يتعلق بالتعليم في الكتاتيب والمشاكل التي كانت تحدث في تلك الكتاتيب كما تناول الطريقة البيداغوجية التي يمكن الرجوع إليها في تربية هؤلاء الأطفال ولذا فهذا الكتاب يحتاج إلى دراسة وتحقيق من قبل المختصين في ميدان التربية. كما تتلمذ على الشيخ غانم بن يوسف الغمري وأخذ منه فوائد جمة ومسائل مهمة.

وظهر خلال هذا العصر عيسى بن موسى الملقب بجمال الدين التجيبي، كان من العلماء العظام والمتصوفة الكبار عاش في القرن العاشر الهجري/ 16م، أخذ عن تلامذة ابن غازي، بفاس في أوائل القرن العاشر، وتوفي في العقد الثامن منه، وقبره معروف بزاويته على شاطئ وادى التاغة من أرض غريس، كان تقيا و وليا وعالما، كما نسبه لبني توجين أبو مهدي صاحب الغوثية كان واسطة عقدهم أخذ بفاس على تلامذة ابن غارني كالملالي وقد اشتهر بغوثيته التي كان السبب فيها مقتل ابنه محمد، والسبب في قتله بنوعبادين محمود إحدى بطون الحشم[3].

فيما يتعلق بعلماء بني راشد، بجبل عمور من بين الذين نسبوا إليه العالم الجليل أبو العباس المعروف بتالوسان من جبال بني راشد قيل عنه أنه من

1- نفسه ، ص:37.

2- أبو جمعة المغراوي، أدب الصبيان، نشر الكتاب رابح بونار. الجزائر 1974ص16

3- أبو راس الناصري: شرح الغوثية مخطوط بالمكتبة الوطنية .

كبار الأعلام وحملة راية الإسلام، فإذا قدم من جبل بني راشد، تلمسان تتعطل الدروس لأجل لقائه، ولم يبق فقيه بها ما دام الشيخ مقيما احتراما لمقامه، ورغبة في الأخذ عنه، مع وفرة العلماء في ذلك الوقت بتلمسان.

توفي رحمه الله في العشرة الثانية من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي. لم يكن هو الوحيد الذي نسب لجبل بني راشد بل نجد أبا العباس أحمد المعروف بأقدار[1] كان شيخا فاضلا وإماما عظيما في علم التوحيد وعلم الكلام، له تأليف وشرح العقيدة الصغرى للسنوسي، انتفع الناس به وبعلومه توفي في أوائل العشرة الخامسة من القرن العاشر الهجري/16م لديه قصائد استغاثة، عن الأخطار التي عرفتها الناحية بسبب الغزو الإسباني لها.

وفي نفس الفن اشتهر الشيخ يحيى بن عبد العزيز[2]، ومن مميزات هذا الفن أن الناس يلجؤون إليه عندما تعجز السلطات الحاكمة في حمايتهم من الأخطار الخارجية، وفرض الأمن، فيتجهون إلى الدعاء والابتهال.

وهناك آخرون نسبوا لقلعة بني راشد منهم عمر بن علي الشهير بالتراري، توفي في قلعة بني راشد، وقد تتلمذ على محمد بن احمد بن غازي، من مؤلفاته "الحسام الصلب في مفسدات القلب"، وقد جعل عليه عثمان القلعي شرحا[3].

وعبد القادر بن سعيد البردعي الذي كان من أبرز علماء القرن العاشر/16م درس بمجاجة على الشيخ محمد بن علي المجاجي، المتوفى سنة1008/1599م.

1- وادي الناغنة لعل المقصود به وادي تافنا الذي يصب في البحر المتوسط.
2- الصباغ، المصدر السابق، ورقة 126
3- نفسه ، ورقة 127.

تتكون خزانته من أمهات الكتب في مختلف الفروع العلمية، وقد استعان على نسخها بعض اللاجئين الأندلسيين، من بينهم العلامة أبي القاسم عبد الملك المعروف بابن بتمكوال، المشهور بالتأليف في الجزائر ابتداء من القران التاسع الهجري/15م وقد سد فراغا رغم اقتصاره على ذكر العلماء[1].

ومحمد بن يحي بن موسى أخذ العلم عن أبيه وعن أئمة تلمسان، ثم أسّس زاوية الزاوش[2] التى تخرج منها كثير من العلماء، الذين نسبوا إلى غريس وكانوا وراء تأسيس أربطة للدفاع عن السكان من الغارات الاسبانية.

قال عنه صاحب عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس بأنه أفقه علماء القرن10هـ/16م، أمّا صاحب البستان فقال: " هو السيد الفقيه العارف بالله الناسك المحقق، المتصوف، الورع، ذو الكرامات والأخلاق المرضية، إمام العلوم الظاهرة وله فيها نصيب جمع من فواصلها وأصولها، لا يتحدث في علم إلاّ ظن معه أنه لا يحسن إلاّ غيره، أسس زاوية بالكرط[3] قبل أن ينتقل إلى وادي فروحة، في حدود سنة900هـ/1494-1495 وأسس هناك رباطا لرواد العلم فقصده الطلاب من جميع الآفاق"، ومن الذين أخذوا عنه عبد الله بن الراوف الادريسي، وعلي بن عومر، وكان له دور في الراشدية حتى صارت كعبة العلماء، وقد توفي في حدود سنة920هـ/ 1541م.

1- أوجدنا خلال زيارتنا لكل من ولاية معسكر وغليزان مجموعة من المخطوطات بزواياها مكتوبة بالخط الأندلسي وناسخيها من أفراد الجالية الأندلسية مما يؤكد على توحيد عدد كبير منهم في تلك الناحية أحد زوايا ولاية معسكر لعبت دورا مشرفا في مقاومة الغزو الاسباني للناحية .

2- الصباغ ، البستان ، ورقة 165 أ

3- الكرط قرية تقع على بعد أربعة كلم من معسكر مقر عائلة المشارقة و القرية القديمة دمرها الاسبان ولا تزال آثارها ماثلة للعيان .

الذين ورد ذكرهم في هذه المنظومة محمد بن يحي[1] الذي كان أول من أوصل التوحيد إلى مضارب بني راشد، وكذلك ولده أبو اسحاق يعقوب المتقدم على شاكلته علما وولاية، اختص بين أهل زمانه بعلوم القراءات، والرسم، والتجويد، فكان رحمة الله تشد له الرحال لأخذ القراءة عنه.

وعبد الرحمن بن مسعود الذي استقرّ في غريس وتولى القضاء بها للدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة، وأنّ قدومه إلى غريس كان من صحراء أبي سمعون وقد سمعت ممن يثق به منهم أنه نسب إلى الأشراف، يشين أهل فحيح.

وهو من أكابر علماء القلعة حسب الذين ترجموا له في القرن التاسع الهجري/15م المعاصرين للإمام عمر السنوسي يبدو أنهم أخذوا عليه خلال زيارتهم لمدينة تلمسان الذين كان لهم الدور البارز في الحركة الفكرية خلال هذه المدة أبو عبد الله المعوفل الونشريسي دفين وادي شلف قرب وادي أرهيو ألف منظومة تحتوي على حوالي ثلاث مائة بيت ضمنها صاحبها علماء مدينة البطحاء و ما جاورها وذكر فيها مجموعة من علماء قلعة بني راشد وقد توفي سنة 923هـ/1517م. والعالم اشتهر كغيره من العلماء المعاصرين له كما عرف بكثرة طلابه وانتشار طريقته، فدخل مع علماء القلعة في مناظرة تتعلق بالتصوف ويبدو أنها تمت بأحد مساجدها وبحضور مجموعة من علماء غريس، والقلعة ونواحيها، وقد أشار إليها الصباغ[2].

وكذلك أحمد بن أحمد الذي يبدو أنه لم يكن من بين أعلام الطريقة في ناحية غريس، بل وصف بأنه من علماء اللغة قد شرح كتاب الألفية، والآجرومية، وهما من الكتب الأكثر تداولا في عصره، كما كان عالما في

1- الصباغ، المصدر السابق، ورقة 68.

2- الصباغ، المصدر السابق، ورقة 157.

التوحيد حيث شرح عقيدة السنوسي، التي كانت تدرس في القلعة وغريس مثلما هو عليه الحال في كل من فاس، ومراكش وتلمسان، وغيرها من حواضر المغرب الإسلامي ومن الذين تتلمذوا عن علماء تلمسان من غريس أبو محمد عبد القادر بن خدة، الذي تتلمذ على يد الشيخ أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي، الذي تأثر به وألف في علم التوحيد، ولعل ما قام به في هذا الميدان لا يزيد عن شرح لإحدى رسائل السنوسي، وكتبه في التوحيد.

أمّا ابنه محمد الكبير فقد انتقل لجبل تسالة، حيث توجد مضارب بني عامر.

- معسكر:

إن ضعف الدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة قد أدى برجال الزوايا إلى إنشاء مؤسسات لها أهميتها العلمية ولها شعاعها داخل أراضي الدولة الزيانية وخارجها فمحمد بن يوسف الملياني أنشأ زاوية في راس الماء[1] وبعد خروجه من مضارب بني راشد إلى يلل[2] عند بني وعد أنشأ زاوية أخرى ثم مجموعة أخرى من الزوايا، فزاد أتباعه وأقام بتلك الزوايا مدارس لتعليم المعارف وعلى الخصوص ما يتعلق بالطريقة الزروقية الشاذلية وقد استقبل الطلاب من خارج أراضي الدولة الزيانية كما توافد عليه مجموعة من العلماء يدرسون بزاويته.

وتعتبر زاوية الملياني من أكبر الزوايا في هذا العصر لنفوذها السياسي وعلى الخصوص بعد الاتفاق الذي تم بينها وبين الأخوين عروج وخير الدين حيث شارك أتباعه وطلابه في محاربة الاسبان وعلى الخصوص معركة قلعة بني راشد التي استشهد فيها بعض طلابه.

1- الصباغ: زهرة البستان ورقة 16.

2- نفس المصدر: ورقة 17.

وهناك بعض الزوايا الأخرى قامت بنفس الدور المتعلق بمحاربة الغزو الإسباني والقيام بالتدريس أمثال زاوية محاجة بوادي شلف وزاوية ابن الأحول على ضفاف وادي الخبر وزاوية محمد بن على بوادي فروحة وروبة سيد يعقوب بندرومة .

والجانب السلبي بالنسبة لهذه الزوايا أنّ المستوى الفكري الذي عرفته تلمسان في عصرها الذهبي ويتصل ذلك بمؤلفات المقري الجد وأبناء الإمام وأبي عبد الله الشريف الحسني وابن مرزوق الحفيد وغيرهم من علماء تلمسان والذي وصل إلى درجة كبيرة من التقدم ومؤلفات أصحاب هذه الزوايا ومستوى طلابهم كان منحطا وأصبح ميزة ملموسة للثقافات التي تتبناها الشعوب في فترات ضعف الدولة وتخليها عن الاهتمام بالتعليم وبرجاله فلم تذكر الوثائق التي اطلعنا عليها أن سلاطين الدولة الزيانية الأواخر قد اقتربوا من رجال الفكر وأشركوهم في مجالسهم أو ساهموا في المجالس العلمية مثل ما كان يحدث في عهد السلطانين أبي تاشفين الأول وأبي حمو موسى الثاني اللّذين أغدقا الأموال عليهم وشجعا حركة التأليف كما حدث في عهد المتوكل.

لذا عرف هذا العصر بمجموعة من المميزات تتمثل في قلة الاجتهاد وكثرة التقليد والاعتماد على الاختصار والشروحات غير مكترثين بالبحث والنقد والتحليل ولكن مع هذا فإن علماء هذا العصر ركزوا على نشر العقائد وتدعيم أخلاقيات المجتمع ونشر المعارف والقيم الحضارية بين الجماهير وتثبيت الرعية انتماءاتهم القبلية الجهوية والقضاء على الأمية فكانت هذه الزوايا في أغلب الحالات أربطة يتكون فيها المجاهدون الذين قادوا المقاومة ضد الاحتلال.

ومما يؤكد ذلك ما ذهب إليه أبو راس[1]، أنّ ظهور المحن مشهور في كلام العلماء، الذين أخذتهم الغيرة على الإسلام، ولما كثرت على المسلمين غاراتهم، وقلّت من أهل البلاد عليهم غيرتهم، واشتدت على المسلمين شوكتهم، خاطب علماء الأفاق على ألسنة الرفاق، بنى عامر وزناتة، محرضين إياهم على الإغاثة يعايرهم بالدخول تحت ذمة الكوافر وافتراش بناتهم الحرائر:

أولا: أن أول من انتبه لخطر الاحتلال الاسباني على الإسلام، والمسلمين، والكفرة في كل من وهران والمناطق المجاورة لها، حتى في جزائر بنى مزغنة؟ فإن الذين طلبوا من ابن التومي النجدة بالأخوين عروج وخيـر الدين، هم علماء الجزائر، وفي بجاية كان لابن القاضي دور في استقدام عروج لتحرير بجاية.

ثانيا: هؤلاء العلماء تأثروا بسوء الوضعية، التي أصبحت عليها البلاد، نتيجة لكثرة الغارات على النواحي القريبة والبعيدة من وهران، والمرسى الكبير.

إن زاوية أحمد بن يوسف الملياني تعتبر من أهم الزوايا في هذا العصر بحيث لم يكن تأثيرها مقتصرا على محيطها فقط بل امتد إلى المغرب الأقصى.

وطريقة أحمد بن يوسف هي الطريقة الزروقية نسبة إلى العالم الجليل الفقيه المحدث الصوفي أحمد بن عيسى البرنسي الشهير بزروق وفي مقدمة الشيوخ الذين تأثر بهم، أحمد بن عقبة الحضرمـي المتوفـي سنـة 854هـ/1450 تتلمذ زروق على مجموعة من العلماء في المغرب الأقصى والأوسط والأدنى كالعلامة ابن زكري التلمساني وقد اعتبر حسب ما ذكر من قبل مترجمه بأنه

1- الجامعي، فتح وهران، ورقة 8، أبو راس عجائب الأسفار، ورقة 16 أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 336.

آخر أئمة الطريقة المحقيقين الجامعين لعلمي الحقيقة والشريعة وعن يده انتشرت الطريقة في المغرب الأوسط بواسطة تلامذته وفي مقدمتهم أحمد بن يوسف الملياني الراشيدي الذي اختص به في بجاية إلى جانب مجموعة من علماء المغرب الأوسط وقد علق عليه صاحب كتاب سلوة الأنفاس فقال: "كان من أعيان مشايخ المغرب العظماء العارفين أخذ أوتاد المغرب وأركان هذا الشأن جمع الله له على الشريعة والحقيقة وانتهت إليه رئاسة السالكين وتربية المرتدين في البلاد الراشدية والمغرب بأسره".

نلاحظ على النص مايلي:

أولا: أنَّ الملياني بعد دراسته على زروق في بجاية والتي استمرت فترة زمنية تلقى خلالها الطريقة القادرية بعد انتقاله إلى بجاية وتوليه التدريس بها ثم وصول الملياني إلى بجاية وأخذ الطريقة عليه.

ثانيا: أنَّ الملياني يعتبر تلميذ التلميذ على الرغم من ذلك فإن الزيتوني اعترف بمكانته وهو ما جعل الصباغ يعلق على ذلك بقوله: "انظر تعظيم أحمد[1] لأحمد بن يوسف الملياني مع جلالة قدره في العلم والدين".

ومن بين الذين تأثروا بالملياني وكان لهم دور نشيط في الحركة الصوفية أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن السهيلي والده الولي الصالح عبد الرحمن الجرجوي نشأ ودرس بالبلاد الجزائرية « جزائر بنى مزغنة » وتولى بها القضاء زمانا ثم انتقل إلى المغرب الأقصى، وقد مر في طريقه بالعلامة أحمد بن يوسف الملياني فأخذ عنه الطريقة ثم انتقل إلى تافيلالت فنزل عند أولاد عبد الحليم وتصدر بها التدريس ثم رحل إلى الزريقية بوادي زيز، فتزوج

1- الصباغ المصدر السابق، ورقة 115.

وولد له عبد الله ثم رحل إلى قصره السهيلي وأسس به زاوية على الطريقة الزروقية ثم أسسوا لهم زوايا في إقليم وادي الساورة.

ومن أتباعه عبد القادر بن محمد والولي الصالح أحمد بن موسى الكزراري ويحي بن صفية، وهكذا نجد بأن تأثير رجال الزوايا في أراضي الدولة الزيانية قد امتد إلى خارج محيط هذه الدولة في عصر الملياني.

- دور طـــلابه:

لعب طلبة الملياني دورا مشرفا في انتشار الطريقة الزروقية في حياته وبعد مماته وكذلك في محاربة الغزو الخارجي المتمثل في الاحتلال الإسباني، فقد تحالف الملياني مع الأخوين عروج وخير الدين، عندما تبين له بأنهم يعملون من أجل إنقاذ الجزائر من الخطر الأجنبي الذي تمكن من السيطرة على الموانئ الساحلية متخذا منها قاعدة للتوغل في الداخل بعد أن وجد تعاونا مـــن قبل شيوخ القبائل وأمراء الدولة الزيانية فوقف إلى جانب الحق ولعب هو وتلامذته دورا مشرفا في مقاومة الغزو الإسباني للناحية فتولوا قيادة الكتائب في المعارك بين المسلمين والاسبان، وقد اعترفت الوثائق الإسبانية بهذا الدور الذي قاموا به، وقد تناول الصباغ[1] بعضهم عند تعرضه لتلامذة الملياني، فذكر من بينهم محمد مقري القلعي قال عنه: " أنه كان صواما قواما مـــن أعظم الأولياء مدح أحمد بن يوسف بأشعار، لم أحفظ منها شيئا لأنه مات شهيدا في معركة الأتراك والنصارى، الواقعة بمحشر السوح من حومة القلعة وتركني صغيرا.

1- الصباغ: المصدر السابق، ورقة 117.

يستخلص من النص مايلي:

أولا: أن محمد بن مغزي القلعي[1] كان شاعرا وقد مدح أحمد بن يوسف الملياني، لكن أشعاره لم تدون لأن صاحبها قد استشهد قبل أن يدون ما قاله فــي مدح الملياني وربما قصائد في غير المدح ترجع إلى هذا الشاعر، يتناول فيها المعارك التي جرت في القلعة وما جاورها.

ثانيا: أنّ محمد بن معزي القلعي وقف ضد الاحتلال الإسباني للقلعة ومــا جاورها ويبدو أنه كان على رأس المجاهدين لمكانته العلمية ولقربه من الملياني، فسقط شهيدا بإحدى المعارك بين الأتراك والإسبان الذين كانوا كثيرا ما يعبرون الأراضي المجاورة للقلعة وعلى الخصوص في عهد الكونت الكوديتي[2] .

ثالثا: إن الصباغ حدّد لنا موقع المعركة ولم يتعرض لتاريخها والنتائج التي أسفرت عليها. ومن هؤلاء العلماء الذين وقفوا ضد الاسبان قاسم بن سعيد القلعي قال عنه: "كان من أهل المكاشفات مات في الملاحم الواقعة بقلعة بني راشد وقت حلول الإسكندر والأتراك بها مع النصارى دمرهم الله مات شهيدا رحمه الله قتله الكفار وكان من الذاكرين".

يستفاد من النص مايلي:

أولا: أنّ قاسم بن سعادة[3] كان من الأولياء الصالحين يأتيه الزوار فيكشف لهم أمورا قبل حدوثها ولم يذكر الصباغ أي علاقة مع رجال العلم بل كان من مريدي أحمد بن يوسف الملياني ولعل استشهاده مرتبط بهذه العلاقة.

1- نفسه: ورقة 117

2- عن عصر الكونت الكوديتي: انظر الباب الأول الفصل الثالث، ص110

3- الصباغ: المصدر السابق، ورقة 149.

ثانيا: إن الكاتب حدد لنا تاريخ استشهاده عكس من سبقه وقد استشهد بعد المعركة التي دارت بين الجيش الجزائري بقيادة الإسكندر والإسبان وحلفائهم من الزيانيين والقبائل الذين وقفوا ضد الإسكندر فعدم تكافؤ القوى حال دون تحقيق النصر من قبل الإسكندر فاستشهدوا وقتل من كان معه من أفراد حامية القلعة وحتى الذين كانوا بداخلها من السكان الذين لم يتمكنوا من الخروج منها قبل سقوطها ومن هؤلاء رجال العلم لأنها كانت من بين المراكز الثقافية التابعة للدولة الزيانية وقاسم بن سعد يبدو أنه استشهد داخل أحد مساجد القلعة في الوقت الذي كان قائما بالذكر يردد ذكر الله عز وجل».

يضاف إلى هؤلاء التلاميذ الذين نشروا طريقته بعد وفاته أحمد بن الأحول، عرف بذلك لنسبه لأمه فكان من بين رجال الطريقة تولى الآذان بجامع الخطبة بقلعة بني راشد[1]، مواظبا على الأوقات، في الليل والنهار، لا يأخذ على الآذان الأجر لما علم من الثواب في الأذان، محبا لأهل العلم مجالسا لهم.

يستفاد من النص:

أ: أن بعض مريدي الملياني وأتباعه نسبوا إلى أمهاتهم عكس ما هو الحال في مناطق أخرى ولعل السبب في ذلك يرجع إلى مكانة المرأة في المجتمع المغربي وعلى الخصوص لدى قبائل زناتة البدوية التي احتفظت ببعض العادات والتقاليد[2].

1- الصباغ: المصدر السابق، ورقة 22.

2- يذكر الصباغ: أن سيدي الشريف، الذي كان ضريحه في مدينة الجزائر وهو من تلامذة أحمد بن يوسف الملياني نسب إليه كرامة تنص على أنه دخل إلى القلعة واتجه إلى مساجدها وقال أن مسجدها شيد من قبل الإسبان، إنظر الصباغ: ورقة 167

ب: أنه كان مؤذنا بأكبر مساجد القلعة، وهو مسجد الخطبة مما يؤكد لنا أن القلعة كانت تحتوي على مجموعة من المساجد أكبرها الذي تقام فيه خطبة الجمعة.

ج: أنّ المؤذنين كانوا يتقاضون رواتب ولعل ذلك كان يأتي من العقارات المحبسة[1] على المساجد مثل ما هو عليه الحال في تلمسان عاصمة الدولة الزيانية.

د: مسجد الخطبة في قلعة بني راشد كانت تلقى به الدروس من علمائها وكان هذا المؤذن يواظب عليها وله علاقة حسنة بالعلماء الذين يتوافدون علـــى المسجد لإلقاء الدروس به.

وعبد القادر بن محمد ولد أبي الربيع سليمان دواد، يلقب بأبي دواد دفين بني ونيف المتوفى سنة 946هـ/1539م درس على أحمد بن يوسف الملياني وكذلك أحمد بن موسى، الذي ولد بفاس سنة 895هـ/1480م ثم تلقى معارفه الأولى بها ومن بين الذين أخذ عنهم فنون المعرفة محمد بن أبي جمع الصوماتي فقد حفظ عنه القرآن ثم أخذ العلوم الأخرى عن عدة مشايخ منهم محمد بن أحمد غازي المكناسي وأبو العباس أحمد بن على المنجور[2] وبعده سافر من فاس إلى سجلماسة وحط ركابه الطريقة الزروقية الذي كان قد تلقاها من أحمد بن يوسف الملياني، ولم يتوقف أحمد بن يوسف عن أخذ العلم عنه بـــل رحل إلى أحمد بن يوسف وأخذ عنه المعرفة.

1- الونشريسي: المعيار، ج2، ص155.

2- ابن عساكر: دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، الرباط 1977، ص38.

- الانتقادات الموجهة للملياني وأتباعه:

على الرغم من النجاح الذي حققه أحمد بن يوسف الملياني فإنه وجد معارضة من قبل علماء غريس وهوارة وبني راشد، وأشار إلى ذلك الصباغ في كتابه البستان، وقد قدم لنا بعض الأمثلة تتعلق بالعلماء الذين كانوا يعارضون الملياني ومن هؤلاء:

1- محمد الزندوي: تتلمذ على السنوسي فكان يتجه إليه بمدينة تلمسان للأخذ عنه، وهو ما يؤكده الصباغ بقوله: أن سيدي محمد الزندوي، كان يقرأ على السنوسي المذكور، وفي ذات يوم وقع بعتاب في سيدي أحمد بن يوسف مع بعض الجهلة، فلما أتى المجلس مجلس السنوسي» بادره الشيخ وقال له: "تقول في سلسلة الذهب، أحمد بن يوسف، اذهب إليه الساعة واطلبه في استغفار، وأن يجعل في كل الذي اعتبته بها، وأخذ عليه من الأسرار التي منحه بها فذهب وفعل ما أمره".

فتجلى الباحث من هذا النص مايلي:

أ: أنّ أحمد بن يوسف الملياني الذي انتشر صيته في قلعة بني راشد وما جاورها وجد معارضة من قبل علماء الدولة الزيانية، وقد اتهم هؤلاء هو وأتباعه بأنهم جهلة لا معرفة لهم بالتصوف وعلى الخصوص ما يقوم به المريدون من حركات فقد قال عنها بعضهم: "بأن تلك الحركات التي يقومون بها لا علاقة لها بالإسلام".

ب: يوضح النص بأن السنوسي ذاع هو الآخر صيته فكان الطلبة يقصدونه من مختلف أرجاء الدولة الزيانية ومنها قلعة بني راشد التي كانت تشكل إقليما إداريا تابعا للدولة الزيانية، فأغلب طلبة هذا الإقليم توافدوا على مدراس

تلمسان، ومساجدها، للأخذ عن كبار شيوخها أمثال ابن زكري والسنوسي، وابن صعد، وابن زاغو[1]، وابن مرزوق[2] والعقباني، وغيرهم من كبار العلماء.

ج: أن النص يشير إلى اعتراف السنوسي بالمكانة العلمية لأحمد بن يوسف الملياني وكرامته، وهذه ربما فيها نوع من المبالغة الهدف من ورائها إبراز دور ومكانة الملياني بالنسبة للمجتمع الزياني، مما جعله يتهم تلميذه ويطلب منه أن يتجه إلى الملياني طالبا العفو منه.

2- أتباعه: لم تكن معارضة هؤلاء العلماء مقتصرة على أحمد بن يوسف الملياني، بل امتدت إلى بقية رجال الطرقية ولعل السبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلاّ أن بعض هؤلاء يقومون بأعمال لا تتماشى مع الشريعة الإسلامية، فقد أشار المازوني إلى ذلك وقال: "سئل العقباني عن رجل ينسب إلى الصلاح، ويزعم أمور لا يدعها لما قبل قال: "نرى جبرئيل ويقول لي: "ونسمع منه، ونرى ميكايل حين يكيل الماء ويقول للطلبة من يشتري لي ضيعة، ويقول للظلمة ننجيه ونعزل مضاده ويقول لمن يراه مريضا خذ هذه العشبة تداوى بها فإنها كانت كما أعطاها لي رسول لله (ص)".

هذا النص يوضح لنا بأن هناك فئة من الدجالين استغلت ضعف السلطة والصراعات المتواصلة بين القبائل لنشر أفكارها التي لا علاقة لها بالإسلام، ولا تزال هذه الظاهرة إلى يومنا هذا.

وعن تمسك السكان بالأولياء ذكر الصباغ أن يحي المغراوي القاطن بمصراته قال: "بأن على الندرومي[3] بلغ منزلة في الولاية ويأتيه الناس في

1- نفسه: ص 142- 148.
2- نفسه: ص 223 - 249.
3- الصباغ: المصدر السابق، ورقة 130.

ندرومة[1]، بالهدايا، والتحف، والظاهرة لا تزال متفشية لحد الآن في أغلب الأرياف التي تنتشر بها الزوايا.

أما الندرومي فقد وجد معارضة من كبار علماء العصر ومن هــؤلاء أبــي الربيع سيدي سليمان بن أحمد سعيد القلعي[2]، الذي اشتهر في عصره بالقوة فكان يحفظ نحو الثمانية عشر كتابا، لذا عرف بالحافظ، كان يتوافد باستمرار على تلمسان عاصمة الدولة الزيانية لتلقي المعرفة من علمائها ومن هــؤلاء ابن زكري، لذا ذكر الصبّاغ أنه ذهب إلى تلمسان نحــو مجلــس أبي العبــاس بن احمد بن محمد بن زكري، وكان هذا الأخير يفضله عن بقية الطلاب، الذيــن يتوافدون على مجلسه لكثرة حفظه فكان يرجع إليه مرارا خلال المجلــس، وتوجيه السؤال إليه عن أشياء ضمن الكتب التي اشتهر بحفظها لأنها من بين التي كانت تدرس من قبل ابن زكري .

وذات مرة خلال ذهابه إلى تلمسان التقى بمحمد بن موسى المازوني، الملقب بالمجدوب وكان من أولياء الله ومن علماء التصوف رجع إليه الصباغ في كثرة من المواضع في كتابه البستان نقل منه فقرات ونصوصا ويبدو من خلال ما جاء في زهر البستان أنه ألف في التصوف كما فعل قريبه المغيلي الذي تعرض الأولياء شلف، ولهذا فأننا نعتقد بأنه ألّف في الأولياء، وكرامتهم مما جعل الصباغ يعتمد عليه وينقل منه فقرات كثيرة في كتابه لأن مكانته تبدو أنها لا تقل عن أحمد بن يوسف الملياني، وأن دعوته مستجابة لذلك عندما التقــى به سليمان بن أحمد وهو بالحناء في يديه والكحل في عينيــه، والسواك

1- نفسه: ورقة 40.
2- نفسه: ورقة 9ب

ونحو ذلك فأنكروا عليه ذلك مما جعل المجذوب يدعو عليه ويقول حسب ما ذكره الصباغ: "تكون مدرسا والله تكون قاضيا والله ثم مشى وتركه[1]".

فالذي يستفاد منه أن الذين كانوا يزاولون دراستهم في تلمسان على شيوخها كانوا عند اتمام دراستهم ويعودون إلى أقاليم الدولة الزيانية يتولون مناصب كالقضاء والإفتاء والتدريس.

وأن دعوة المجذوب أصابت هذا العالم الجليل ومما يؤكد على ذلك أنه عندما عاد إلى تلمسان حضر مجلس ابن زكري، لم يشارك كعادته فيسأله عن ذلك ابن زكري وعندما أخبره بذلك قال له: "نذهب لهذا الولي ونطلب لك الشفاعة منه وعندما اتصل به ابن زكري أجابه المجذوب بأن الحاجة قد انقضت.

ولعل هذا فيه نوع من المبالغة لأن الصباغ يريد أن يبرز لنا كرامات هؤلاء الأولياء المعاصرين لأحمد بن يوسف، لذا فإنه عندما عاد إلى القلعة درس، لكن الطلبة الذين حضروا مجلسه اشتكوا من عدم استفادتهم ومما يؤكد ذلك القاضي علي بن محمد بن معز تحدث مع الصباغ وقال: "ذهبت تقرأ في حال صغرى على سيدي سليمان فلم نستفد منه لدعوة المجذوب له".

- **القلعـــة**:

لم تتوقف المعارضة عند هذا الحد بل امتدت أيضا لفقهاء قلعة بني راشد الذين وجهوا انتقاداتهم إلى المريدين ولكن ربما البعض من هؤلاء من أتباع احمد بن يوسف الملياني وغيره من رجال زوايا أراضي الدولة الزيانية وفي هذا الصدد قال الصباغ: "اعترض بعض الفقهاء على الفقراء الذاكرين لله

1- الصباغ: المصدر السابق، ورقة 9.

فـــي حلق الذكر والدعوى لم يثبت عن الرسول(ص) هذا في اجتماعه مع الصحابة وإنما ورد عليه الصلاة و السلام، الله لا أله إلا لله، سبحان الله والحمد لله[1] ».

لم تتوقف الانتقادات عند هذا الحد فقط بل امتد ت إلى الأماكن التي كانوا يتخذونها في اجتماعاتهم والمتمثلة في المساجد القديمة التي يبدو أنها أضرحة لبعض الأولياء ولا تزال الظاهرة لحد الآن في القرن العشرين وكذلك الزوايا والكهوف فهذه في رأي الفقهاء تعتبر بدعا لا يجوز السكوت عنها، لأن حديث الرسول(ص) قال: " لا تشد الرحال إلا لثلاثة المسجد الأقصى والمسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف".

وقد رد رجال التصوف على هذا النقد بأن الرسول(ص) لم يمنع زيارة مساجد اخرى فكان هو يقوم بزيارة مسجدنا على الرغم من انه لم يكن ضمن الثلاثة المذكورة .

أما البدع التي تتعارض مع الشريعة الإسلامية فقد وجدت معارضة من قبل رجال الزوايا وهو ما يؤكده الصبّاغ بقوله[2]: « وأما أهل البدع فيجب التغيير عليهم ويهون على فعلهم القبيح من مخالفة السنة". فلقد حكي أن الشيخ أحمد بـــن يوسف أحرق عليهم بيوتهم وأمر بصرفهم وتأديبهم غير ما مرة، وكـــان يقول لأصحابه عليكم بكتاب الله وأن علماء السنة اجمعوا علـــى تعظيـــم أحمـــد بـــن يوسف الملياني، فالسنوسي ومحمد بن الجبار والفجيجي[3] وأحمد بـــن عبد الواحد الورغي ومحمد الزيتوني[4] .

1- نفسه: ورقة 51.
2- الصباغ: المصدر السابق، ورقة 51.
3- نفسه: ورقة 63.
4- نفسه: ورقة 115.

فالنص الهدف منه إبعاد شبهات البدع عن طريقة أحمد بن يوسف الملياني الذي بدأ أمره بالدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد رفض البقاء إلى جانب أبيه في دواره عندما رأى الناس يزنون جهارا ،ولم يستطع أن يؤثر على هؤلاء فاتجه إلى قاضي قلعة بني راشد الذي كان موقفه سلبيا[1]، لكن يبدو أن الملياني عندما زادت مكانته وانتشرت طريقته وكثر مريدوه، بحيث أصبحت الدولة الزيانية تخشى من سلطته عمد إلى محاربة البدع التي انتشرت خلال فترة انحطاط الدولة الزيانية وحتى ما نسب إليه فيما بعد يعتبر مبالغ فيه وعلى الخصوص طريقته اليوسفية التي نسبت إليه، ومبادؤها لا تتماشى مع الشريعة الإسلامية.

- انتشار اليوسفية الزروقية:

لم يبق تأثير الملياني مقتصرا على مجموعة الزوايا التي أنشأها بقلعة بني راشد، وما جاورها، بل امتد إلى المغرب الأقصى، والجنوب الغربي الجزائري.

ففيما يتعلق بالمغرب الأقصى فإن العالم الجليل أحمد بن الحاج البيدري[2] قدم من المغرب الأقصى إلى زاوية الملياني، فاستقبله بها ومكث عنده أكثر من ثلاثة أيام، يبدو أنه أخذ عنه المعارف، وعلى الخصوص ما يتعلق بالطريقة الزروقية، التي تلقاها الملياني عن نتيجة زروق الفاسي ببجاية، وقد علق الصباغ على هذا اللقاء فقال: " أنه أخذ، وقرأ عليه واعترف بولاية أحمد بن يوسف الملياني".

1- نفسه: ورقة 13.

2- نفسه: ورقة 115.

وعلى الرغم من العناية العلمية لهذه الشخصية في المغرب الأقصى حيث يعتبر من كبار علماء عصره، وقد علق عليه الصباغ بقوله: «بأنه لم يتمكن أي أحد في المغرب الأقصى من فك رموز أبيات شعرية، لمحمد ابن غازي المكناسي غيره"، مما يؤكد مكانته العلمية ولذا يبدو أن الملياني نفسه قد استفاد منه خلال زيارته للزاوية فأخذ عنه مجموعة من المعارف. كما يظهر أيضا بأن طلبة الملياني قد توافدوا عليه واستفادوا منه لأن الزاوية كان لها دور ثقافي يتمثل في إعطاء الدروس للطلبة والمريدين وقد نبه لذلك الحسن الوزان خلال زيارته للزاوية في بداية القرن العاشر/السادس عشر الميلادي.

ومن بين الذين زاروا الملياني في زاويته، الحافظ الجليل محمد بن عبد الجبار الفجيجي الذي كان من كبار العلماء في عصره، بإقليم فجيج، وله اتصال بعلماء عصره، ومن هؤلاء عبد الكريم المغيلي، الذي أرسله في قبضة يهود توات، وقد أجابه بموافقته على محاربتهم، لأنهم تخلوا عما كان يربطهم بالمسلمين، فرفضوا دفع الجزية التي هي فرض، وقد انتقل محمد بن عبد الجبار من فقيق إلى حوض شلف حيث كان الملياني مستقرا في مكان عرف بالأحرف الحمر ولعله مجاجة التي كانت من أبرز المراكز في عصر أحمد بن يوسف الملياني واستقدمه للزاوية الغرض منها زيارة الملياني، والأخذ عنه، ومحاربته في قضايا تتعلق بالحركة الصوفية، وقد علق على ذلك الصباغ فقال: "تكلم مع الشيخ في العلوم ورجع إلى أهله في نعمة وسرور[1]".

لم يكن الفجيجي هو الوحيد من علماء الغرب الأقصى الذي زار الملياني بل نجد أيضا الولي الصالح محمد الزيتوني[2] حين أتى من المغرب الأقصى

1- الصباغ: المصدر السابق، ورقة 114.

2- نفسه: ورقة 115.

على رأس موكب حجاج المغرب متوجها إلى زيارة الأماكن المقدسة فاجتاز الرشيدية وعندما علم الملياني بوجوده على رأس الراكب انتقل إليه واستدعاه إلى زاويته، وقد سجل لنا الصباغ الحديث الذي دار بينه وبين الزيتوني فقال: "قال له الزيتوني أنت ابن الزروق وهو ابني وأنت تلميذ الزروق وهو تلميذي".

فالذي يستفاد من النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن الزيتوني كان من رجال الطريقة القادرية في المغرب الأقصى وقد تتلمذ عليه زروق الفاسي قبل.

تلقى أيضا على شيخه، معارف أخرى على بعض علماء بجاية، لأن هذه الأخيرة كانت من أنشط المراكز الفكرية، خلال القرن التاسع الهجري، والخامس عشر الميلادي، فقد توافد عليها مجموعة من كبار علماء ذلك العصر أمثال عبد الرحمن بن مخلوف[1] الثعالبي، ومحمد الهواري[2] وحتى عبد الكريم .

ثانيا: أن احمد بن يوسف الملياني بعد حصوله على المعرفة والطريقة انتقل إلى مضارب بني راشد وبالتحديد إلى رأس الماء[3] فأسس هناك زاوية في البداية كان على علاقة طيبة بالدولة الزيانية لكن عندما تبين له بأن الأمراء الزيانيين لا يطبقون الشريعة الإسلامية كما قاموا باضطهاد مجموعة من العلماء الذين وجهوا لهم انتقادات كالونشريسي والمغيلي وتقربوا من الجالية اليهودية مما جعل الملياني يصف الدولة بأنها دولة يهودية، وبذلك أعلن الحرب ضد الدولة مما جعل تصدر الأوامر من أجل القبض عليه وقتله لأنـــه

1- ابن مريم: البستان، ص 250- 260.

2- نفسه: ص 35-60.

3- رأس الماء لا تزال تحمل نفس الاسم تابعة، لولاية سيدي بلعباس الآن.

أصبح يشكل خطرا عليها فترك راس الماء وتوجه إلى يلل طالبا الحماية مــن قبائل الناحية فازداد عدد مريده مما جعل الوزان يعلق عليه بقوله:

تعرض فيها لمجموعة من العلماء نذكر من بينهم العالم الجليــل عبــد الله، الذي كان من تلامذة أحمد بن يوسف الملياني استقر في مدينة تسالة[1]، ضــمن مضارب بني عامر ثم انتقل إلى غريس، ولعل السبب في ذلــك يرجــع إلــى سوء التفاهم بينه، وبين شيوخ بني عامر، الذي كان الــبعض مــنهم مــوالي للاسبان.

ومن الذين ورد ذكرهم في المنظومة سحنون كان إماما في العلم، درس بغريس، وتخرج عليه طلبة العلم بها، ومنهم أيضا سيدي معمر مشهور بغريس، وهو جد عبد القادر بن محمد المعروف بسيدي الشيخ.

وكذلك محمد بن عبد الرزاق، الذي تتلمذ عن الإمام ابن غازي، وعنــد عودته إلى مسقط رأسه توافد عليه طلبه غريس وأخذوا عنه المعارف.

ومن هؤلاء الإمام أبو محمد بن عبد القادر بن أحمد المختار، بن محمد مــن أبناء عبد القوي بن علي، له تلامذة كثيرون ألف في علم التوحيد، ودرس الحاشية على صغرى السنوسي ويعبرون عنه بشيخنا أبي محمد عبد القادر بــن خده الراشيدي[2].

عرفت ناحية غريس في فترة موضوع البحث العالم الجليل محمد[3] بن يحي المغرواي الذي درس في البداية بمسقط رأسه، ثم انتقل إلى تلمسان فدرس بها

1- تسالة قرية قريبة من سيدي بلعباس، لمزيد من المعلومات عنها في هذه الفترة موضوع البحث انظر، الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 33.

2- سعد الله المرجع السابق ص 107.

3- الصباغ، المصدر السابق، ورقة 44.

عن الشيخ محمد السنوسي وغيره من العلماء التلمسانيين المعاصرين له. من أبرز الفنون التي تلقاها عنه التصوف لأنه هو الذي ألبسه الخرقة، وهذا يؤكد لنا بأن السنوسي لعب دورا كبيرا في انتشار حركة التصوف بإقليم الدولة الزيانية وقد سبق في ذلك محمد بن يوسف الراشيدي الملياني[1].

يضاف إلى هؤلاء المعاصرين له في ميدان التصوف أبو عبد الله محمد بن أبو هلول المحاجي[2] الذي كانت طريقته سنة، وأن تعبداته تختلف عن البعض الطرقيين الذين عاصروه لأنه أخذ الطريقة عن السيد محابن شاعة[3] الذي تتلمذ على الشيخ الملياني والذي تتلمذ بدوره عن الشيخ أحمد زروق[4] وبذلك يعتبر هذا العالم على الطريقة الزروقية الشاذلية التي عرفت انتشارا في العالم الإسلامي وعلى الخصوص بالمغرب الإسلامي، وقد أتى هذا العالم على الطريقة بوجهها الأكمل.

ومن بين العلماء عثمان بن أبي زياد الذي عرف عنه من خلال كتب التراجم أنه كان غيورا على الشريعة الإسلامية مما جعله يختلف مع محمد بن يوسف الملياني وقد علق عليه صاحب فتح الترجمان بقوله: ‹‹وقعت بينه وبين أحمد بن يوسف الملياني أمور لاينبغي لعاقل أن يستنقصه››. وقعت مناظرة بينه وبين أحمد بن يوسف الملياني ومن بين الذي لهم فضل على الحركة الفكرية في هذا العصر المتميز بالفوضى والحروب المتواصلة الشيخ أقدر[5] الذي أعلن الحرب على قبيلة هبرة، بعد أن فعلت الأفعال الشنيعة

1- نفسه، ورقة، 15.
2- الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف الجزائر 190، ج2، ص 32.
3- الصباغ، المصدر السابق، ورقة 166.
4- بن الحاج، ربح التجارة، ورقة 91.
5- محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص25.

بالمسلمين المهاجرين من غرناطة والنازلين بمرسى أرزيو فكانوا ينهبون المهاجرين ويقتلونهم ويشقون بطونهم لما يظنون من ابتلاعهم للجــواهــر، لأن علماء الدولة الزيانية خلال هذه الفترة تولوا حركة التغيير لأن سلطة الدولة قــد انهارت وهو ما دفعهم إلى قيادة كتائب المجاهدين للدفاع عــن أحواز الوطن ابتغاء السعادة.

وقد خلد الشعر الشعبي هذه المعارك وأشاد بهؤلاء الذين جاهدوا في الله حق جهاده لمطاردة العدو وجلاده وفي هذا الصدد نأتي ببعض الأبيات منها:

وعبد الجليل حل قــدرا ورفعــه «» وعبد الكريم صهره ضامر نائب
الخلي وأبي بكر محمد فخرهــم «» دليل أبي بكر رئيس المــــــراكب
واحمام والقطبي و هواو الحسن «» كذا لما بدا الرحمن بدر المعــارك
ودوار ابرهيم عيســي خليـــفة «» وفحلى أبي صدور الكــتائــــــب

فمن بين العلماء الذين ورد ذكرهم في الأبيات العالم القدير عبد الجليل[1] الذي يعتبرمن كبار علماء العصر لأنه لم يقتصر على التدريس فقط بل ألف مجموعة من الكتب منها تنبيه الأنام في ذكر أحاديث النبي عليه السلام.

كان في البداية بتسالة ضمن مضارب بني عامر، ثم انتقل لزاوية صهره عبد الكريم درس ودرّس بها فزادت معارفه ومن أبرز مؤلفاته خلال هذه المرحلة شرح أرجوزة أبي زيد عبد الرحمن الرقصي الذي أوصل علم التوحيد لقلعة بني راشد.

ولكي يتمكن من نشر المعارف التي تلقاها على الشيوخ في السابق عمــد إلى تأسيس زاوية خصصها لتدريس العلم بقرية الكرط.

1- الصباغ، المصدر السابق، ورقة 200.

ولما تغلب الاسبان على وهران سنة 915 هـ/1509م ثم محاولتهم السيطرة على المناطق القريبة منها وخاصة ناحية غريس أصبح تواجده بالكرط جمرا عليه مما دفع به إلى الانتقال لوادي فروحة في حدود الثلث الأول من القرن العاشر، وهناك أقام رباطا لطلاب العلم كان قبلة للعلماء في غريس وما جاورها:

وقد استفاد منه عبد الله بن عبد الرزاق الادريسي وعلي بن عمر الحمودي الادريسي وبفضل هؤلاء التلاميذ انتشر العلم بمضارب بني راشد وغريس حتى صار الوطن الراشدي بغية العلماء وقبلة الطلبة النجباء الذين حملوا راية العلم.

أما وفاته فكانت في حدود سنة920 هـ/1514م تاركا وراءه مجموعة من تلامذته وأبنائه كالفقيه ابن اسحاق يعقوب ومحمد الصغير الذي تولى إدارة الزاوية بعد وفاته، ابنه محمد الكبير انتقل لجبل تسالة حيث توجد مضارب بنى عامر.

- العوامل المساعدة:

ومن أهم العوامل التي ساعدت في ازدهار الحركة الفكرية في العصر الذهبي، للدولة الزيانية، نذكر مايلي:

أ- العنصر البشري:

فالعنصر البشري متمثل في بني زيان، الذين استولوا على الحكم، وقبضوا على زمام الأمور، منذ مدة طويلة عرفت فيها تلمسان أحداثا خطيرة، وانقلابات من الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

فبنو زيان كعنصر اجتماعي، له خصائصه ومميزاته، كان يغلب علَيهم فـــي البداية طابع البداوة، ثم تطوروا فانتقلوا إلى التحضر[1]، مما جعلهم يؤثرون في الحركة الفكرية، عن قصد أو عن غير قصد، وعملـــوا علـــى تطويرها بعد أن اندمجوا في بيئة تلمسان، التي كانت مركزا ثقافيا قبل تأسيس[2] دولتهم، وارتبطوا بعناصر اجتماعية أخرى منها التلمسانية[3] والوافدة[4] عليـــها مـــن الأندلس فخلقوا تيارا اجتماعيا له وزنه وأثره.

ب- الهجـــرة الهـــلالية:

إن هجرة قبائل بني هلال من الواحات الصحراوية والمناطق الداخلية، نحـــو أراضي الدولة الزيانية خلق تيارا اجتماعيا، لامتزاج العناصر العربية بالعنصر البربري.

فالعنصر البربري الحاكم في تلمسان، عمد إلى تقوية مراكز اللغة العربية، في البلاد، التي استولوا عليها كما شجع الزناتيون دراسة العربية باستقبالهم لمجموعة من العلماء توافدوا على عاصمة بني زيان من أراضي الدولة[5]،

1- يقول ابن خلدون أن السلطان أبا حمو موسى الأول707 هـ/1308م هو الذي نقل الدولة من مرحلة البداوة إلى مرحلة التحضر انظر يحي بن خلدون بغية الرواد ج1 ص 212، 205.

2- ابن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص13، السليماني، زبدة الشماريخ، ج3، ورقة 119.

3- ابن خلدون يحي: بغية الرواد، ج1، ص212.

4- من بين العائلات الوافدة: عائلة العقباني التي لعب أفرادها دورا مشرفا في حياة الدولة الثقافية واستمر تأثير هذه العائلة حتى نهاية الدولة ولازال البعض من أفراد العائلة بتلمسان، لمزيد من المعلومات عنها انظر يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص126.

5- من بين الذين توافدوا على تلمسان من داخل الدولة أبو اسحاق التنسي، وأبناء الإمام من برشك، لمزيد من المعلومات عن هؤلاء انظر يحي بن خلدون المصدر السابق ص: 205، 212، 215.

وخارجها[1] وبذلك أصبحت روح السيطرة على مظاهر النشاط الثقافي عربية في صميمها، وقوية في انتشارها بين مختلف عناصر السكان مما ساعد في تعريب أراضي الدولة الزيانية.

لم يكن يصدر عن بني زيان ما يخل بهذه الروح ولا ما يوحي بتيار رجعي، يؤثر بصفة شعورية أو لا شعورية في تطور الحركة الفكرية وازدهارها، بل كانت العناصر البربرية المتمثلة في الزناتيين وغيرهم، من البربر بفضل تكوينهم العام، وتشابههم مع العرب في تقاليدهم والكثير من أخلاقهم ومظاهر سلوكهم يعملون من حيث لا يشعرون، بتدعيم الحركة الفكرية باللسان العربي وما لعبه بنو هلال القادمون من المشرق، إلى المغرب في المجتمع الزياني، بصفة خاصة في الناحية الثقافية، فقد كان لهذه القبائل ظهور بارز في مختلف أوجه النشاط، ولا سيما في المجالات التي تتفق وطبيعتهم، فعربوا كل النواحي التي استولوا عليها والتي كانت من بين المناطق التي تنتشر فيها اللهجة الأمازيغية، وعلى الخصوص الزناتية[2].

ج- تقرب أمراء الدولة من رجال الفكر:

بالنسبة للدولة الزيانية في عصرها الذهبي، كانت للأغلبية من أمرائها اتصالات برجال الفكر، في مقدمة هؤلاء مؤسس الدولة يغمراسن بن زيان، حيث كان يجالس العلماء ويكثر من زيارتهم، مما يؤكد على ذلك أن المصادر التي اطلعنا عليها تذكر لنا أنه ارتحل لزيارة الولي الشهير أبي البيان واضح[3] بموضعه

1- ابن خلدون يحي، بغية الرواد، ج1، ص48، التنسي، نظم الدر والعقيان، ص126، انظر رسالتنا الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للدولة الزيانية ص 57.

2- من بين المناطق التي انتشرت فيها اللهجة الزناتية المغرب الأوسط الذي قال عنه وطن الزناتة انظر: ابن خلدون العبر، مجلد 6، ص 175-192.

3- المازوني، المصدر السابق، ج1 ورقة 96.

بجبل فرشان، والهدف من الزيارة هو التقرب من هذا الوالي تلمسا ببركته والدعاء له.

ومن بين الذين وجدوا العناية في عهده، عائلة التنسي وعلى رأسهم أبو اسحاق[1]، قال في شأنه التنسي عبد الجليل: " أنه أعلم من كان في زمانه، كانت الفتوى تأتيه من إفريقية وتلمسان، لذا فشهرته سبقت انتقاله لتلمسان. مما جعل يغمراسن يكاتبه ويرغبه في سكنى تلمسان[2]".

لم يكن يغمراسن هو الوحيد من سلاطين الدولة الزيانية الذي اعتنى بالعلماء، بل نجد أيضا أن أبا حمو موسى الأول الذي كان صاحب آثار جميلة، وسيرة حسنة، محبا للعلم وأهله ورد عليه بعد موت يوسف بن يعقوب المريني الفقيهـــان أبو زيدة[3] وأبو موسى[4]، أبناء الإمام، فلم ير ما يؤدي بـــه شكر الله على النعمة التي من الله عليه بها من قتل عدوه وتعجيل الفرح إلى الاعتناء بالعلم، والقيام بحقه، فأكرم مثواهما واحتفل بقدومهما وشيد لهما المدرسة التي تسمى باسمهما[5]، وكان يكثر من مجالستهما والاقتداء بهما.

وقد سبق لأبناء الإمام زيارة المشرق العربي، الأخذ عن علمائه، بالمراكز التي تمكنا من زيارتها، فزادت معارفهما، لذا عندما عاد من المشرق تبين لهما أن برشك[6]، ومليانة لا تليق بالمكانة التي أصبحا عليها فقبلوا طلب السلطان عندما أمرهما بالانتقال إلى تلمسان.

1- التنسي، نظم الدر والعقبان، ص 126.

2- التنسي: نفس المصدر، ص126.

3- يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص137.

4- نفسه، ج1: ص139.

5- نفسه، ج1: ص139.

6- برشك: مدينة تقع غرب شرشال يعتقد بأن بناء غوراية كانت على أنقاضها.

كما كان ابنه أبو تاشفين[1]، متقربا للعلماء يسمع مدائحهم وعلى الخصوص في المولد النبوي الشريف، علق عليه التنسي بقوله: "كان له بالعلم وأهله، احتفال، وكانوا منه بمحل تهم، واهتمام، وفد عليه بتلمسان الفقيه العالم المفتي قاضي الجماعة أبو موسى عمران المشدالي"[2] من أكبر فقهاء عصره بمذهب مالك فأكرم نزله وأدام المسيرة به، وألحقه بجانبه وولاء التدريس بمدرسته[3] الجديدة". كما علق عليه يحي بن خلدون بقوله: «لم يكن في معاصريه أحد مثله، علما بمذهب مالك، وحفاظا له ولأقوال أصحابه وعرفانا بنوازل الأحكام وصوابا في الفتية وقد نسب إليه المازوني في كتابه الدرر المكنونة في نوازل مازونة مجموعة من النوازل»[4]. لم يتوقف هذا السلطان عن استقبال أبي عمران المشدالي بل استقبل أبا العباس بن عمر[5] البجائي، الذي قدم هو الآخر من بجاية فأنزله منزلة الكرامة وسأله عن مقدميه، فأخبره أنه جاء تاجر فعرف به أبوزيد بن الإمام، أمير المسلمين، فرفع عنه تكلفة مغرمة، ومغرم من جاء معه، وكان مائتي دينار ثم أعطاه زيادة على ذلك مائة دينار.

يضاف إلى السلطان ابن تاشفين الأول السلطان أبو حمو موسى الثاني الذي كان لــه إنتاج فكري في النثر الرائق والشعر الفائق، ومن العلم العقلي، والنقلي، ما جلا نوره من الدنيا. وقد قال في شأنه التنسي: «صنف، رضي الله

1- أبو تاشفين عبد الرحمن: تولى الحكم مابين718هـ/1318م و737هـ/1337م، انظر التنسي، المصدر السابق، ص142.

2- ابن خلدون يحي: بغية الرواد، ج1، ص127.

3- هي المدرسة التاشفينية التي أسسها إلى جانب مسجد سيدي أبي الحسن وقد شيدت بلدية تلمسان على أنقاضها، انظر التنسي: المصدر السابق، ص 139.

4- المازوني: الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج1، ورقة 156.

5- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص75.

عنه كتابا أدبيا، لولده المولى أبي تاشفين ولي عهده، سماه نظم السلـوك فـي سياسة الملوك»[1].

وأما اعتناؤه بالعلم، وأهله يقصر اللسان عن الإجابة عنه، وفي فترة حكمه برز شريف العلماء، وعالم الشرفاء أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن يحي[2]، فكان له محبا ومعظما إن كان أوحد عصره، ومن أول المدرسين بالمدرسة اليعقوبية[3].

وقد ألف هذا الأمير قصائد شعرية وعلى الخصوص بمناسبة المولد النبوي الشريف الذي كان من أهم المناسبات التي يتنافس فيها الشعراء.

- مرحلة الانحطـاط السيـاسي:

بدأت هذه المرحلة بمقتل السلطان أبي حمو موسى الثاني، لأن الدولة بعده دخلت في صراعات متواصلة وعلى الخصوص بين أبناء هذا السلطان، وأحفاده، ومن أجل تولي السلطة. لكن هذا لم يؤثر على الحياة الفكرية، فقد عرفت الدولة خلال هذه المرحلة، بروز علماء كبار أمثال المرازقة والعقبانيين ومن بين الذين كان لهم دور في تطور الحركة الفكرية في تلمسان أبو زيان محمد بن أبي حمو، وقد قال في شأنه التنسي: "أقام سوق المعارف على ساقها، وأبدع في نظم مجالسها، واتساقها، وأوضح لأهل الأبصار والبصائر رسمها، إن كانت تفرغ ما في السماء أصلها ثابت وفرعها في السماء، وتصرف بيته

1- يوجد الكتاب مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1374، وقد نشر في تونس سنه 1279هـ، 1862، 1863م.

2- هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن يحي الشريف التلمساني لمزيد من المعلومات عنه ابن مريم، البستان ص 164، 184.

3- أسس السلطان أبو حمو موسى الثاني المدرسة التاشفينية سنة 768هـ، 1363م كان موقعا إلى جانب مسجد سيدي ابراهيم المصمودي انظر التنسي المصدر السابق ص 180.

بين دراسة معارف وإفاضة عوارف وكلف بالعلم حتى صار سنهاج لسانه وروحة أجفانه، فلم تحل حضرته مــن مناظــرة ولا عمــرت إلا بمذاكرة ومحاضرة فلاحت للعلم في أيامه شموس، وارتاحت للاستقرار ما فيه نفوس بعد نفوس، نسخ رضي الله عنه بيده الكريمة نسخا من القرآن، يوجد بالخزانة العامة بالرباط مصحف له مكتوب بخط مغربي جميل، محلى بالذهب، عند كل أول سورة وعلى رأس كل آية وجميع ما فيه من الأسماء الحسنى مكتوب بالذهب وهو أمير المسلمين أبي زيان كتبه بتلمسان سنة801هـ/ وهذه النسخة حبسها كلها بخزانته[1]، التي بمقدم الجامع الأعظم، والتي هي من مآثره الشريفة".

- المـــــــدارس:

لعل أول ما يتبادر لذهن الدارس للحركة العلمية للدولة الزيانية هو انعدام الجامعات الكبرى، ذات الإشعاع العلمي والإقليمي مثل ما هو الحال بالنسبة للأزهر، في مصر، والزيتونة، في تونس والقرويين في المغرب الأقصى، فإن المسجد[2] الأعظم الذي أسس في تلمسان، في عهد المرابطين لم يقم بالدور المنوط به لظروف تلمسان السياسية، التي لم تعرف الاستقرار طوال مراحل حياتها.

وهو ما جعل الباحثين يتفقون على أن الأغلبية من علماء بني زيان كانوا يسافرون إلى الخارج للانتفاع من غيرهم لأن تلمسان كانت تعيش فراغا ثقافيا، لكن هذا لم يشمل كل الفترات التاريخية، بل كانت تلمسان في عصرها

1- التنسي، المصدر السابق، ص211.

2- هو المسجد الأعظم الذي يقع في تاجرارت المدينة التي شيدت من قبل المرابطين خلال حصارهم لأغادير سنة 462هـ/ وقد شيد المسجد من قبل تاشفين نفسه، ص 211

الذهبي قبلة العلماء من جميع أنحاء العالم الإسلامي، فنجد بها علماء الأندلس[1] والمغرب الأقصى، إمارة بجاية[2] وحتى مصر، فعبد الباسط خليل تحصل على إجازة في[3] الطب من ابن الأشقر[4]، الذي كان يدرس الطب بتلمسان.

وحتى المراكز الثقافية التي نشأت خارج مدينة تلمسان، كوهران، وجزائر بني مزغنة، وقلعة بني راشد، ومستغانم، ومازونة، فإن علماءها الأوائل تتلمذوا عن علماء تلمسان، وعند عودتهم إلى مسقط رأسهم لعبوا دورا بارزا في نشر الإنتاج العلمي لعلماء تلمسان، أمثال السنوسي، ابن زكري، وابن مرزوق.

يلاحظ الباحث فيما يتعلق بالمدارس التي نشأت بأراضي المغرب الإسلامي ومنها الدولة الزيانية أنها تعتبر نموذجا مقتبسا من المعهد التعليمي الملحق بالزاوية الموجودة الأربطة[5] السابقة.

فالمدرسة التي ظهرت بفاس وتلمسان تشبه المعهد التعليمي الملحق بالزاوية وتسمح للدولة بوضع يدها على التعليم الذي يجب أن يخرج موظفين يعملون في تنفيذ سياستها. فالمدرسة إذن من حيث المبنى والنظام نظير الزاوية إلاّ أنها من حيث نزعتها تعتبر النقيض.

1- عن هجرة علماء الأندلس لتلمسان انظر يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص118، 120، 123.

2- نفسه، ج1، ص123، 129.

3- عبد الباسط بن خليل زار مدينة تلمسان خلال حكم السلطان المتوكل سنة 866هـ/ 1461م وقد تعرض إلى عادة التلمساني انظر:

4- يعرف أيضا بانكاوة ويوجد ضريحه بتلمسان.

5- ظهرت هذه الأربطة في العهود الأولى للتواجد الإسلامي بالمغرب ، ومن أبرزها :الرباط، المنستير وسوسة و وهران، لمزيد من المعلومات انظر: البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، نشر دوسلان الجزائر، ص 126، 127.

فإذا كانت المدارس التي نشأت من قبل بني زيان قد خضعت لسلاطين هذه الدولة منذ عهد أول مؤسس لها وهو السلطان أبو حمو موسى الأول[1] مثل تعيين المدرسين ومنح العلاوات لمدرسيها وطلابها فإن الزاوية قد ورثت الرباط فهي أشد تحررا من الخضوع للحكام، وأحيانا يتدخل علماؤها وطلابها في مواجهة سياسة سلاطين الدولة عندما يحيدون عن تطبيق الشريعة الإسلامية، وأحسن مثال على ذلك ما قام به الملياني[2] تجاه أمراء الدولة الزيانية، الذي شن عليهم حملات متواصلة لتقربهم من النصارى واستعمالهم لأفراد من الجالية اليهودية.

ومن بين الذين تناولوا موضوع المدرسة المغربية "جورج مارسي" الذي شارك أخاه "ويليام مارسي" في الموضوع، وقد قال: "إن المدرسة اسما ومسمى انتقلت من المشرق إلى المغرب، ثم أنه قارن بين دوافع بنائها لدى الشيعة في المشرق وبني عبد الوادي في تلمسان".

وأن بناء المدارس من قبل بني عبد الوادي المقصود به إحياء المذهب المالكي واستئصال جذور المذهب الموحدي المناهض له. وقد قاوم الفقهاء تأسيس المدارس لأنها في رأيهم تخضع الدين للدولة.

وقد نقل المقري قول الأبلي الذي قال: " ما أفسد العلم هو كثرة التأليف وأذهبه بنيان المدارس. لأن بناء المدارس يجذب إليه الطلبة بما فيه من مرتبات فيقبل بهم على ما يعينه أهل الرئاسة للأجراء والأقرباء منهم أو من يرضى لنفسه دخوله في حكمهم، وتصرفهم مع أهل العلم حقيقة الذين لايدعون ذلك، وإن دعوا لم يجيبوا وإن أجابوا لم يوفوا لهم بما يطلبون من غيرهم".

---

1 – ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 212، 213.

2 – الصباغ، زهر البستان ورقة 266.

أهم مـــدارس الدولة الزيـــانية:

- مدرسة أبنـــاء الإمام:

مدرسة أولاد الإمام موقعها بناحيـــة المطمـــر حســـب ما ذكـــره يحـــي ابن خلدون[1]، أو داخل باب كشوطة كما ذكر من قبل ابن مريم، وأن من بين دوافع تأسيسها أن أبا حمو موسى الأول قد استدعى إلى تلمسان أبناء الإمام مـــن برشك، وقد شيد لهما المدرسة للتدريس بها، كما بنى لهما بجانبها سكنا يتألف من دارين.

أما التنسي[2] فيقول في شأن المدرسة، كانت لأبي حمو موسى الأول آثار جميلة وسيرة حسنة، محبا في العلم وأهله، ورد عليه بعد موت يوسف بن يعقوب المريني[3] الفقيهان العالمان الجليلان أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى أبناء الإمام فقام بحقهما، وأكرم مثواهما وبنى لهما مدرسة تسمى بهما

- المدرســـة التاشفينية[4]

أما المدرسة الثانية فكانت المدرسة التاشفينية اشتهرت بنسبها إلى مؤسسها السلطان أبي تاشفين الأول، تقع إلى جانب المسجد الأعظم وهي في منتهى الروعة والجمال؟.

وتعتبر أيضا من المنجزات الحضارية المعمارية، جعلها الحسن الوزان من أجمل المدارس، وعندما زار هذا الرحالة تلمسان اطلع عليها ويبدو أنه خلال

1- ابن خلدون يحي، بغية الرواد، ج1، ص 213، 219.

2- التنسي، المصدر السابق، ص 132، 134.

3- يوسف بن يعقوب المريني 695هـ، 1286م، من أكبر أعداء الدولة الزيانية قام بحصار تلمسان مدة ثمان سنوات وأشهر 1289 - 1307، 688، 707 وقد شيد خلال مدينة المنصور انظر ابن خلدون، العبر، مجلد7، ص 441.

4- التنسي، المصدر السابق، ص 130.

زيارته لها كانت لا تزال تقوم بدورها في ميدان التدريس واستمر وجودها حتى الاحتلال الفرنسي، حيث عمد هؤلاء الذين يدعون الحضارة إلــى تهديمهــا وإقامة المجلس البلدي لمدينة تلمسان على أنقاضها وذلك سنــة 1873، ولا تزال بعض البقايا من زلاجها وأخشابها في متحف حديقة الحرية بالجزائر العاصمة.

- المدرسة اليعقوبية:

أما المدرسة الثالثة فعرفت بالمدرسة اليعقوبية أنشأها السلطان أبو حمو موسى الثاني، حيث ضريح أبيه أبي يعقوب يوسف، شيد إلى جانبها مسجد لأن المساجد خلال هذه الفترة المدروسة ملحقة بالمدارس وخاصة بالأساتذة وتلاميذ المدرسة وأحدث بجانبها مقبرة ضمت ضريح أبيه وأعمامه أبي ثابت وأبي سعيد اللذان حكما الدولة الزيانية بعد الاحتلال المريني لها سنة 737هــ/1338م. وأما المدرسة الرابعة التي شيدت من قبل بني زيان مدرسة سيدي لحسن بناها سنة 1453 أبو العباس أحمد بن أبي حمو موسى الثاني جريا على عادة ملوك هذه الدولة وقد ألحق بها مسجدا[1].

- المدارس التي شيدت من قبل بني مرين:

هذا فيما يتعلق بالمدارس التي شيدت من قبل بني زيان، وأما المدارس التي ترجع لعهد بني مرين الذين شيدوها بعد احتلالهم لتلمسان نذكر منها ما يلي:

- مــدرسة العبــاد:

شيد هذه المدرسة أبو الحسن سنة 1346/747م وهي على غاية من الجمال قرب مسجد ضريح سيدي بومدين الذي أقامه الموحدون وأقيم إلــى

1- أحمد أبي حمو موسى الثاني تولى الحكم من866هــ،1461 إلى 855هـ-1451م انظر التنسي، المصدر السابق، ص 247، 249، السليماني الأعرج، المصدر السابق، ورقة 123.

جانب الضريح سنة 738هـ/1339م، مسجد العباد الذي أصبح من بين المؤسسات العلمية بمدينة تلمسان.

- مدرسة سيدي الحلوي:

يضاف إلى هذه المدرسة، مدرسة سيدي الحلوي نسبة إلى أحد رجالات العلم من الأندلسيين وأقيمت إلى جانبها زاوية أسست سنة **754هـ/1354م**. فالمدارس السابقة حظيت بعناية أمراء الدولة الزيانية، فأشرفوا عليها بأنفسهم حتى شيدت في أروع مثال، وأبهى حلة وكثيرا ما تجلى فيها الذوق الفني والمهارة الصناعية والخلق والابداع والزخرف البديع في أعلى الجدران والأبواب فكانت بذلك آية في الفن المعماري.

- مدرسة مازونة:

يبدو أن المدارس في عهد الدولة الزيانية كانت تقوم بدور هام خاصة في العصر الذهبي لهذه الدولة حيث كان سلاطينها يبذلون جهودا كبيرة في إقامة المدارس والتقرب من العلماء ومشاركتهم في المجالس العلمية مثل ما حدث في عهد السلطان يغمراسن[1] وأبي تاشفين[2] وأبي حمو موسى الثاني[3]، لكن يبدو أن الاهتمام بالعلماء والمدرسين وعلمائها في فترة ضعف الدولة تغير في فترة وأصبح العلماء هم الذين يشيدون المدارس بدل السلاطين. وأحسن مثال على ذلك ما حدث في مدينة مازونة التي أصبحت من بين المراكز الفكرية خلال فترة ضعف الدولة الزيانية وهو ما يؤكده المازوني بقوله: «سئل علي بن عثمان عن فقيه في مدرسة سكنها طلبة العلم وإقراء العلم، ونجد من طلبته

1- ابن خلدون يحي، بغية الرواد، ج1، ص 205.

2- نفسه، ج1، ص 215، 218.

3- نفسه، ج2، ص 101، 103.

نجيبان، فلما تولى الفقيه اختص بالمدارسة أحد النجباء يقرؤها للطلبة››.

يستفاد من النص مايلي:

1: إن مدينة مازونة خلال عصر يحي المازوني كانت تحتوي على مدرسة ولم نعرف بالتحديد متى شيدت، لكن يبدو لي أنها تعود إلى النصف الثاني مـــن القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي الذي عرف توافد مجموعة من علماء الأندلس على مدن الدولة الزيانية وخاصة القريبة من الأندلس بعد وصولهم إليها انشغلوا بالتعليم، ولعل بعضهم نزل بمازونة وكان وراء ازدهار الحركة الفكرية بها[1]. يضاف إلى ذلك توقف الصراع الذي اشتد بين مغراوة بني عبد الوادي[2] فـــي عصرهم الذهبي وإحلال القبائل العربية في مضارب مغراوة أثّر على الثقافة فانتشرت العربية بتدعيم من قبل شيوخ هذه القبائل مما جعل العربية تحل محل اللهجة الأمازيغية بها.

2: إن العلماء قبل وفاتهم كانوا يختارون أحد طلابهم لكي يتولى تسيير شؤون المدرسة والتدريس بها ويكون في أغلب الحالات من نجباء الطلبة. لكن ما حدث أن التنافس في بعض الحالات يشتد بين طلاب المدرسة، وهو مـــا يؤدي في بعض الحالات إلى انقسام الطلبة، وهو مأأدى بالنسبة لمدرسة مازونة حيث أن أحد طلابها لم يعترف بالذي خلف شيخ المدرسة فأعلن الانفصال عليها وعمد إلى تشييد مدرسة له فالتجأ إلى الدور المهدمة من المدرسة التي كانت تشتمل على مجموعة من البيوت بعضها محبسة على أحد مساجد مازونة بينما الباقي اتصل بأصحابه وطلب منهم التنازل وعليه شرائه

1- المازوني: الدرر المكنونة، ج2، ص 76.

2- عن الصراع بين مغراوة وبني عبد الواد انظر يحي بن خلدون، بغية الرواد، ص 204، 247.

لغرض بناء مدرسة. وحتى يواجه مشكلة نقص الأموال رأى أنه من الأفضل الاتصال بشيوخ القبائل العربية الذين كانوا قد استولوا على أراضي أصحابها وفرضوا الضرائب الشرعية على الفلاحين والتجار مما جعلهم يحصلون على أموال كبيرة وأصبح ما لديهم يفوق ما لدى الدولة الزيانية. لذا رأى هذا العالم أنه من الأفضل الاعتماد عليهم في بناء مدرسة وهو ما يؤكده المازوني[1] بقوله: «إنه قصد أمراء العرب ونسائهم وطلبهم أن يتصدقوا عليه لبناء هذه الخربة مدرسة فأعطوه ما طلب». وبعد تحصله على الأموال لجأ إلى مطالبة سكان مازونة بمساعدته في البناء لأن من طبيعة المجتمع الجزائري منذ العصور القديمة أن يتعاون وخاصة إذا كان الأمر متعلقا بالمؤسسات الدينية والتعليمية ولاتزال هذه الميزة لحد الآن، مما يؤكد ذلك أن المازوني[2] صرّح بأن الناس يعينونه في البناء بأنفسهم قصد الأجر، لما كان البناء باسم المدرسة فلما كملت وسكنها الطلبة ما شاء الله بعد ذلك توفيت امرأة أمير من العرب فكلم زوجها الفقيه أن يدفنها في بيت من بيوت المدرسة. وإن هذا يتنافى مع دوافع بناء المدرسة مما أدى بالمازوني أن يطرح القضية على علماء المغرب الإسلامي لأن بناء المدرسة طرح مجموعة من المشاكل منها:

– أن أمراء العرب الذين قدموا يد المساعدة لهذا الفقيه كانت لغرض بناء مدرسة وحتى الأرض التي منحت للفقيه ستصرف عليها في صالح المدرسة واستفادة الطلبة الساكنين فيها.

ثم تطرح قضية الأرض التي بيد هذا الأمير الذي سبق له أن أخذها بالتغلب ولم يستند إلى إقطاع من يعتبر إقطاعه من أمراء الدولة الزيانية الذين فقدوا

1– المازوني: نفس المصدر، ج2، ورقة 87.
2– نفسه: ج2، ص 99.

سيطرتهم على مملكتهم وفي هذا الصدد يذكر المازوني: أن الأمير السابق لم يستند إلى إقطاع من يعتبر إقطاعه من أمراء المؤمنين فلا يمضي له فيها تحبيس ولا عطية ولا يحل لمن ينتسب إلى العلم أن يقبل شيئا من ذلك من يد الأعراب المتغلبين على الأوطان. فالذي يمكن التوصل اليه:

- إن هذا الأمير أخذ الأرض من أصحابها أو من أراضي الدولة بطرق غير شرعية فلا يحق له تقديمها حبسا على المدرسة، كما لا يجوز لهذا الفقيه الاستفادة منها.

- إن البعض من سكان مازونة رأوا في بناء هذه المدرسة سيؤثر على المدرسة القديمة ومسجدها لذا طلبوا بتهديمها لأنها أصبحت تنافس المدرسة السابقة وأن يطبق عليها ما قام به الرسول(ص) بمسجد الضرار بالمدينة المنورة. هذا فيما يتعلق بالنازلة أما إجابة العلماء يمكن تلخيصها فيما يلي:

- إجابة عبد الرحمن الوغليسي[1] الذي جاء فيها: ‹‹ وأما ما سألت عن هدم المدرسة ومسجدها لقصد الضرر، فهذا ما لا أصوبه وأستعصيه لأن كثرة أماكن العلم ترجع لكثرة طلاب العلم وانتشاره يتطلب توفير السكن لطلابه، والمدرسة ليست في الحكم كغيرها من المساجد المقررة بمساجد الضرر وليست متحققة بمسجد المدينة››. فالذي يمكن استخلاصه من إجابة الوغليسي بالنسبة لموضوع بحثنا يتمثل فيما يلي:

- إن فقهاء مازونة انقسموا على أنفسهم بين من يريد بقاء المدرسة ومسجدها ومن يريد تهديمها لأنها تضر بمسجد المدينة ومدرستها ولذا فتهديمها يتماشى مع ما قام به الرسول (ص) في مسجد المدينة.

1- عن عبد الرحمن الوغليسي: انظر ابن مريم: البستان، ص 85؛ 228.

– إن عبد الرحمن الوغليسي أنكر ذلك بدعوة أن كثرة طلبة العلم في أي مدينة يحتاج إلى عدد من المدارس. وبيوت الإقامة لهم لكي يتمكنوا من التحصيل ولهذا يجب على العلماء تشجيع بناء المدارس.

– إن وجود مدرسة مجاورة للأخرى لا يؤثر على الأولى لوجود عدد من الناس يريدون مزاولة التعلم بهذه المدارس وإن كثرة التنافس وزيادة عدد المدارس سيؤدي لامحالة إلى ازدهار الحركة الفكرية.

المساجد:

أما الصنف الثاني وهو من حيث الدراسة فقد كان مسجديا وعلى شكل حلقات فكان يشتمل على مجموعة من المواد كالأصول والفقه والتفسير ودراسة الحديث من توحيد وفنون اللغة وحتى العلوم العقلية من فلسفة ورياضيات وطب[1]. والذين يقومون بالتدريس في المساجد يحصلون على قرار من البلاط الزياني.

– المدرسين:

أما الذين كانوا يدرسون بتلمسان فقد تعرضت لهم كتب التراجم[2]، بعضهم في العصر الذهبي بينما البعض الآخر في عصر الانحطاط الذي عرفته الدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة. ففي عصر قوة الدولة تعرض يحي بن خلدون[3] لبعضهم فذكر من بينهم أبا يعقوب التفريسي وقد علق عليه بقوله: «يقري الإنس والجن في مسجده والناس يسمعون صوت الجان واستطاع أحد طلبته أن يكون الشيخ يرى صور الجن فبينما مجلسه ذات يوم غاص بالطلبة لقراءة

1– ابن مريم: البستان، ص 37.

2– نفسه: ص38، انظر أيضا ابن صعد، روضة النسرين، ورقة 311.

3– ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج1، ص 107.

العلـم إذ دخل من باب المسجد حنش عظيم››. والهدف من وراء ذلك إبراز كرامة هؤلاء العلماء، ومن بين الذين درسوا في مدارس الدولة الزيانية في أعز مجدهم أبو عبد الله الشريف[1] الذي درس بالمدرسة التاشفينية، ثم انتقل إلى الجامع الأعظم فقرأ فيه الأحكام الصغرى لعبد الحق الاشبيلي وابن الحاجب الفرعي، وكان يحضر دروسه جماعة من الطلبة الفاسيين الذين انتقلوا من فاس للأخذ عنه لمكانته الفكرية[2]. ومن الذين درسوا بها أبو موسى عمران المشدالي[3] الذي قال عنه التنسي: " أنه لما ورد تلمسان في عهد السلطان أبي تاشفين الأول ولاه التدريس بمدرسته الجديدة".

أما مدرسة أبناء الإمام فقد درس بها أبناء الإمام بعد تشييدها من قبل أبي حمو موسى الأول فقد ذكر التنسي[4]: " أنه لما ورد الفقيه العالم أبو العباس أحمد[5] بن عمران البجائي على تلمسان تاجرا دخل المدرسة القديمة فحضر مجلس أبي زيد بن الإمام فألقاهم يتكلمون في قول ابن الحاجب، في الأصول في حد العلم إنها صفة توجب تمييزا لا يحتمل النقيض فنادى يا سيدي هذا الحد غير مانع أنه ينقص بالفضل والخاصة فقال له الشيخ أبو زيد: " من هذا الذي أنبأ مقاله عن مقامه. فقال: محبكم أحمد بن عمران، فقال أولا نشتغل بضيافتكم وحينئذ يقع الجواب".

1- نفسه: ج1، ص107.

2 - ابن مريم: البستان، ص 164، 184.

3- التنسي: المصدر السابق، ص 141.

4- نفسه: 142.

5- أبو العباس أحمد بن عمران التيجاني من كبار علماء هذه المدينة ارتحل من بجاية إلى تلمسان فاتصل بها بعلمائها وحضر إحدى مجالسهم، انظر التنسي، المصدر السابق، ص 142.

يستنتج من النص ما يلي:

أ: إن العلماء عندما يرتحلون لأي مركز ثقافي فأول زيارة لهم تكون إما للمساجد أو المدارس بحضور حلقات الدرس بها والاستماع لعلمائها.

ب: إن النص وضح لنا نوعية المعارف التي كانت تدرس بهذه المدارس وكيفية منهجية إلقائها على الطلبة.

أما المدرسة الثالثة فهي المدرسة اليعقوبية[1] فإن أول المدرسين بها أبا عبد الله الشريف الذي يعتبر من كبار علماء تلمسان، كان أبو حمو موسى الثاني يحضر مجلس أقربائه جالسا على الحصير تواضعا للعلم وإكراما له، فلما انقضى المجلس اشهد بتلك الأوقاف وكسا طلبتها، وأطعم الناس وطول مدته حتى ختم السيد أبو عبد الله المذكور تفسير القرآن العزيز فيها فاحتفل أيضا بحضور ذلك الختم ، وأطعم فيه الناس وكان موسما عظيما.

نستخلص من النص ما يلي:

1: أن السلطان الزياني اختار أبا عبد الله[2] الشريف ليكون أول مدرس بهذه المدرسة لعاملين أساسيين: أ – أنه ينتسب لآل البيت (الأشراف).

ب – يعتبر من أبرز علماء عصره امتد تأثيره إلى المغرب الأقصى.

2: أن سلاطين الدولة كانوا يحضرون بعض الدروس التي كانت تلقى بمدارس الدولة الزيانية ويشاركون طلابهم في الجلوس على الحصير الذي يبدو أن مدارس الدولة الزيانية كانت تفرش بها حيث يجلس عليها الطلبة.

1- ابن خلدرن يحي: المصدر السابق، ج2، ص 136.

2- نفسه: ج2، ص 136.

3: أن الطلبة الذين كانوا يتابعون الدروس وكانوا يحصلون على الطعام والكساء من قبل الدولة وحتى المبيت، حيث كانت المدارس مزودة بغرف للطلبة المغتربين.

4: إن دور المدارس لم يكن مقتصرا على التدريس فقط، بل كان بعض العلماء يقومون بتفسير القرآن وعندما ينتهون من ذلك تقام احتفالات يشرف عليها السلطان ويستدعى لها الناس، يقدم لهم الطعام مثل ما هو الحال بالنسبة للاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

هذا فيما يتعلق بعصر قوة الدولة الزيانية، أما مرحلة ضعفها التي بدأت مع بداية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، فيبدو أن المدارس حافظت على مستواها العلمي ولم يبق النشاط الثقافي مقتصرا عليها، بل امتد إلى أرياف الدولة الزيانية، فهذا أحمد بن يوسف الشريف الإدريسي[1] كان يدرس بمداشر جبل بني ورنيد جنوب تلمسان، فدرس هناك الرسالة والعقائد وابن الحاجب الفرعي، كما ركز على تدريس القرآن والخراز والضبط. يضاف إليه أحمد بن صالح بن ابراهيم[2] الذي سجن لمواقفه من أمراء الدولة وقد اغتنم فترة وجوده بالسجن لتدريس زملائه المسجونين الذين قدرهم ابن مريم بسبعمائة سجين. وعلى الرغم من أن الرقم مبالغ فيه إلا أنه يؤكد لنا إقبال سكان هذه المدينة على التعليم واتساع السجون بها، كما قام بتجويد القرآن داخل السجن، وبذلك يجد الباحث بأن تحويل السجون إلى مراكز تعليمية لم يكن وليد الثورة التحريرية، بل يمتد إلى أعماق التاريخ الوطني وإن العلماء لا يتركون أوقاتهم تذهب هباء. من ناحية أخرى نجد هناك تنافسا

1- ابن مريم: البستان، ص 27،26.

2- نفسه: ص20.

بين علماء الدولة الزيانية مما دفع ببعضهم إلى إبراز عيوب زملائهم وعلى الخصوص بحضور أمرائها، فقد ذكر ابن مريم: «أن علماء تلمسان توقفوا عن قراءة التفسير فقدموا سيدي بن العباس بن زكري يقري ما في التعوذ وما في البسملة والفاتحة، غير أن القارئ قرأ إن فتحنا لك فتحا مبينا خلافا ما طالع، فعسر عليه الأمر، لأن الفقهاء أرادوا أن يمتحنوه لأن القراءة كانت بين يدي السلطان واستمر التفسير للقرآن من الضحى إلى الزوال[1]» فالنص الذي أورده ابن مريم يؤكد لنا مكانة ابن زكري[2] لذا يختلف عن غيره من حيث المكانة الاجتماعية لأنه ينسب إلى عائلة فقيرة، لكن عمله واجتهاده جعله من كبار علماء عصره فقد استمر في التفسير تلك المدة الزمنية الطويلة. ومن بين المدرسين أحمد بن عبد الرحمن بن زاغو عرف من طرف المترجمين له بأنه الإمام المدرس، فكان يعطي الدروس لطلابه بمدارس الدولة ومساجدها. يضاف إليه محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحي بن عبد الرحمن القرشي التلمساني بالقلصادي الشهير علق عليه ابن مريم بقوله قرأ وأقرأ بتلمسان. أما محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق[3] فدرس بتلمسان التفسير والحديث وصحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن الترمذي وأبي داود والموطأ والعمدة من الحديث وأرجوزته الصغرى وهي الحديقة في علم الحديث وبعضا من الكبرى وكان مقر تدريسه الجامع الأعظم. ومن كبار المدرسين في هذه الفترة محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن

1- البستان: ص 38، 41.

2- هو أبو العباس بن زكري ينسب إلى إحدى العائلات الفقيرة وبمساعدة أحمد بن عبد الرحمن بن زاغو، تمكن من أن يصبح من كبار علماء الدولة الزيانية خلال النصف الأخير من *القرن9هـ/15م انظر التمبكتي، نيل الابتهاج، ص61.*

3- التمبكتي: نفس المصدر، ص 71.

بن عبد الله بن الإمام أبي الفضل التلمساني[1] الذي تخرج عليه كبار علماء عصره كابن مرزوق الكفيف، وعبد الجليل التنسي[2] وقد قال عنه القلصادي: "حضرت مجلسه فكان فقيها إماما عالما بالمعقول"، كما ذكر من بين المدرسين الذين تعرض لهم في رحلته محمد بن أحمد بن النجار التلمساني[3] الذي قال عنه: " قرأت عليه بعض مختصر الشيخ خليل وبعض كتب الغزالي وابن الحاجب الأصلي وتفسير القرآن وإرشاد إمام الحرمين ومنهاج البخاري وجمل الخونجي وتلخيص المفتاح وقواعد القرآن وبعض الألفية والمرادي والجمل وشيئا من المدونة". كما ذكر القلصادي من بين المدرسين محمد أبو عبد الله الشريف التلمساني[4] إمام جامع الخراطين وقد قال في شأنه: ‹‹قرأت عليه، تلخيص المفتاح وبعض التسهيل لابن مالك، ومفتاح الأصول للسيد الشريف التلمساني وحضرت عليه بعض الألفية وبعض المرادي عليها وجمل الزجاجي وتلقيح القرافي››. ومن بين المدرسين أيضا محمد بن العباس بن محمد بن عيسى العبادي[5] خرج عليه مجموعة من علماء تلمسان التنسي والسنوسي وابن مرزوق الكفيف وابن زكري والمازوني والونشريسي وابن مرزوق حفيد الحفيد. كما يذكر ابن مرزوق من بين المدرسين محمد بن محمد قاسم بن تومرت التلمساني الذي كان يقول لكل من جاء للقراءة عليه، اقرأ لي أي علم شئت. ومن المدرسين أيضا عبد الرحمن بن محمد بن أحمد

---

1 – المقري: نفح الطيب، ج5، ص 419.
2 – نفسه: ج5، ص 419.
3 – ابن مريم: البستان، ص 221.
4 – نفسه: ص 201.
5 – نفسه: ص 39، 41.

الشريف التلمساني[1] المشهور بأبي يحي قال في شأنه أبي يحي المطغري: ‹‹حضرت مجالس العلماء شرقا وغربا فما رأيت ولا سمعت مثل عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الشريف››. يضاف إليه علي بن يحي السلكني الجادري الذي يعتبر من المدرسين بمسجد أجادير مسجد مولاي إدريس. ووقت الدراسة فيه من الصباح إلى الضحى وعندما يخرج ويذهب لعرصته بوادي الصفيصف التي يخدمها بفأسه يذهب معه الطلبة فيدرس لهم العلم عند ذهابه وعودته في الطريق وهو يعمل في العرصة والقارئ يقرأ وهو يفسر ما يقرأه على طلابه إلى الزوال ويدرس بمجلسه ابن الحاجب الفرعي. أما قاسم بن سعيد بن محمد العقباني[2] كان يدرس مختصرا بن أبي زيد القيرواني والمدونة ومختصر خليل والأحكام لابن عطاء وشرحها لابن عباد، والحوفي بطريق الصحيح والمكسور والمناسخات من شرح والده ومختصره في أصول الدين والبيان والحساب والفرائض والهندسة في فصل الصيف، وبذلك يكون التعليم في تلمسان مختلفا عما هو بالنسبة لفاس حيث تتوقف الدروس في الصيف لكن بالنسبة للدولة الزيانية لا تتوقف حتى في أيام العطل، حيث كان ابن زاغو يخصص يومي الخميس والجمعة لدراسة التصوف وتصحيح تأليفه ولعل ذلك يتم بحضور طلابه النجباء. ومن الذين درسوا بالجامع الأعظم حمو الشريف[3] كما درس به المناري الذي يعتبر من كبار الأساتذة في القراءات السبع وعلم الخراز والضبط وابن بري والأجرومية وألفية ابن ' والرسالـة، توفي بتلمسان سنة 998هـ/ كما زاول مهنة التدريس في تلمسان

1 – نفسه: ص 39، 41.
2 – ابن مريم: البستان، ص 95.
3 – نفسه: ص 76-77.

أحمد بن عيسى الورنيدي ويعرف بأبركان، وركز في دروسه على علم الظاهر والباطن فكان يدرس رسالة ابن أبي زيد القيرواني ومختصر ابن الحاجب الفرعي وعقائد الشيخ السنوسي وألفية ابن مالك ومنظم الجزولي وسلم المرونق في المنطق حكم ابن عطاء الله في التصوف[1]. من خلال ذكر هذه المؤلفات التي درسها الورنيدي تبين لنا أنه لم يقتصر على فن واحد في تدريس طلابه بل ركز على أغلب الفنون التي تدرس في عصره، ولعله كانت له مجموعة من الحلقات يخصص كل حلقة لفن معين.

- أثر الأندلسيين في ميدان التدريس:

بعد استعراضنا الشخصيات التلمسانية التي زاولت مهنة التدريس في تلمسان، يجدر بنا التعرض للشخصيات الأندلسية لأن من نتائج نزوح الأندلسيين إلى تلمسان ازدهار الحركة الفكرية بها حيث قام بها مجموعة من أفراد هذه الجالية بنشر التعليم بواسطة إلقائهم الدروس بالمؤسسات التعليمية الموجودة بالمدينة، ومن بين الذين درسوا بتلمسان نذكر محمد بن أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن أبي العيش الخزرجي[2] الذي قام بإحدى مساجد تلمسان بتفسير القرآن لطلابه وشرح أسماء الله الحسنى، كما يبدو عليه أنه درس الأصول والتصوف لأنه ألف فيهما. ومن أبرز التلاميذ الذين تخرجوا عليه محمد بن العباس[3] التلمساني، ويحي المغيلي[4] المازوني والحافظ

---

1 - نفسه: ص 119.

2- ابن مريم: البستان، ص 252 .

3- ابن مريم: نفس المصدر، ص 249، 259.

4- نفسه: ص 222-223.

عبد الجليل التنسي[1] والقلصادي[2] وأبو البركـات[3] وولده أبوسالـم العقباني[4] وحفيده محمد بن احمد والونشريسي الذي نقل عنه كثيرا من الفتاوى فى معياره، وابن زكري ومحمد بـن محمـد بـن مرزوق الكفيف. درس مختصر ابن أبي زيد للمدونة ومختصر خليل وشرح الأحكام لابن عباد والحوفي شرح والده ومختصره في أصول الدين. ومن بين الأندلسيين الذين زاروا تلمسان وتأثروا وأثروا فيها ومن بين هـؤلاء الشيـخ أبـو الحسن علـي بـن محمد بن محمد بن علي السبطي الشهير[5] بالقلصادي، الذي قال عنه الصالح الرحالة المؤلف آخر من له التآليف الكثيرة من أئمة الأندلس. أخذ عنه الإمام السنوسي[6] صاحب العقائد وجملة من الفرائض والحساب وإجازة جميع مروياته عند ارتحاله إلى المشرق مرّ بتلمسان، فأخذ بها عن الإمام عالم الدنيا، حسب تعبير المقري ابن مرزوق[7] والقاضي أبي الفضل قاسم[8] العقباني وأبي العباس بن زاغو[9] وغيرهم من علماء الدولة الزيانية. ومن هؤلاء أبي عبد الله محمد بن علي بن الأزرق وقال عنه ابن داود من كبار الأولياء شاذلي الطريقة. وقـد قال العلامة ابن داود حدثني مولاي ولدي رضي الله عنه لقيته

1- نفسه: ص 248 - 249.
2- نفسه: ص 221 - 223.
3- نفسه: ص 248 - 250.
4- نفسه: ص 249 - 252.
5- المقري: نفح الطيب، ج5، ص 426-428.
6- نفسه: ج2، ص 692.
7- نفسه: ج5، ص 414 - 418.
8- نفسه: ج2، ص 692.
9- نفسه: ج2، ص 692.

في تلمسان يوم الاثنين سنة 895هـ/1489. كما قال أيضا: " دخل علي في نفس السنة وبالتحديد في شهر رمضان". *ويضاف إليه أبو عبد الله* محمد بن الحداد الوادي، نزيل تلمسان، وقد قال المقري:" تذكرت ما رأيته مكتوبا على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين أبو تاشفين الزياني من بدائع الدنيا وهي:

نظر بعينك بهجتي ومائي «» وبديع اتقاني وحسن بنائي
وبديع شكلي واعتبر فيما ترى «» من نشأتي كل من تدفق مائي
جسم لطيف دائب سيلانه «» صاف كذوب الفضة بيضاء
قد خف إلى أزهار وشيء تمقت «» قعدت كمثل الروض غير سماء

ومن الأندلسيين الذين توافدوا على تلمسان أيضا شمس الدين أبو عبد الله بن جابر الوادي آشي. قال في شأنه ابن مرزوق عاشرته وسمعت منه وسمع بقراءتي فقرأت عليه الكثير وقيدت من فوائده، وأنشدني النثر وقرأت عليه بمنزلي من تلمسان. هذا العالم درس بتلمسان الحديث والفقه والأصول والنحو والمنطق والجدل والفرائض وكان كثير الإسماع في الفقه والجدل.

- **أولا: الكتب التي تدرس بالمؤسسات الثقافية:**

تنوع المعارف العلمية وكثرة الكتب المعتمدة: ومن بين الكتب التي كانت تدرس بمساجد ومدارس الدولة الزيانية والتي تشتمل على مختلف الفنون التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية في مختلف مراحل ازدهارها نذكر في البداية:

أولاً: **التفسير:** فيما يتعلق بالتفسير نذكر تفسير الزجاجي[1] والزمخشري[2] وتفسير ابن عطية[3] والمعافري[4] المعروف بأحكام القرآن والتفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي[5]، والخازن[6] للإمام المحدث المفسر أبو عبد الله محمد ابن ابراهيم البغدادي المعروف بالخازن، وأهم تفسيره التأويل في معاني التنزيل وتفسير القرطبي[7] وكذلك تفسير الإمام المحدث أبو عبد الله محمد بن يحي البهلي البخاني، وتفسير أبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن حيان البقري الأندلسي، والجواهر الحسان لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي.

ثانيا: القراءات: ومن بين كتب القراءة التي كانت متداولة بالمؤسسات التعليمية للدولة الزيانية كتاب المنبهات للإمام أبي عمر أحمد بن عبد ربه بن حبيب القرطبي. وزاجر بن البر المعروف بالدرر اللوامع[8] في قراءة نافع، ومنها الشاطبية المسماة بجزر الأماني للإمام أبي القاسم بن خلف بن أحمد الزغبي الشاطبي. والشاطبية متضمنة للسبع، وهي القراءات السبع التي نزل بها القرآن، وتسمى بالأحرف، وهي لغة سبع قبائل عربية: قريش،

1- أبو اسحاق ابراهيم الزجاجي توفي سنة316 لمزيد من المعلومات عنه انظر الزركلي، الإعلام، الطبعة الثالثة،ج،ص33.

2- الزمخشري نسبة إلى زمخشر: قرية من كوري خوارزم، انظر ياقوت الحموي، المصدر السابق.

3- ابن عطية هو أبو محمد عبد الله بن عطية توفي 541 هـ، 1146-1147.

4- توفي 543 هـ-1148م وصاحب الإعلام الروكلي يقول توفي 538 هـ- 1144م.

5- توفي 257هـ-888م الرزكلي المصدر السابق، ج8، ص 156.

6- توفي 275هـ-888م، انظر الرزكلي، ج6، ص 119.

7- توفي 606هـ-1209م، نفسه ج7، ص 168.

8- توفي 169 هـ، 785م ، انظر: الزركلي، ج8، ص: 317-318.

تميم، طبة، كنانة، قيس، هديل، بنو أسد، فهؤلاء هم الذين نزل القرآن بلغتهم. وشيوخ القراءة سبعة، أولهم نافع بن عبد الرحمن[1] إمام أهل المدينة، قرأ عليه الإمام مالك(رضي الله عنه) القرآن، ومنها المقدمة في مخارج الحروف والتجويد والدرة في السبع والعشر للجزري ومورد الضمان في رسم القرآن لأبي عبد الله محمد بن محمد بن ابراهيم الأموي الشريسي الشهير بالخراز وتفصيل عقد الدرر لأبي عبد الله محمد بن احمد بن غانم العثماني المكناسي[2] ومنظومة القراءة للمراكشي.

ثالثا: الحديث: هو علم يعرف به أقوال الرسول(ص) ويعبر عنه بالسنة، ومن بين الكتب المتداولة بالمراكز الثقافية التابعة للدولة الزيانية، كتاب ابن جريح وهو أول من صنف في الإسلام والجامع الكبير لسفيان[3] الثوري، والموطأ للإمام مالك إمام دار الهجرة وشرح الموطأ لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الزرقاني[4] ومساند الشافعي لمحمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع[5]، والمسند لأبي داوود سليمان بن داوود الطيالسي[6] ومسند الإمام عبد الرزاق الصنعاني[7] ومسند الإمام الحافظ أبو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الدواني. وصحيح البخاري لمحمد بن اسماعيل البخاري

1- توفي 169هـ-785م، انظر: الزركلي، ج8، ص: 317-318.
2- توفي 919هـ-1513م، ابن عسكر، دوحة الناشر، ص 74.
3- توفي 159هـ-775م الزركلي، ج3، ص 158.
4- الزرقاني: 1122هـ-1719م، الزركلي، ج4، ص 46.
5- ولد سنة 150هـ-767م، وتوفي سنة 204هـ-819م، ج4، ص 46، ج7، ص 54.
6- ولد سنة 133هـ-750م، وتوفي 204هـ-819م.
7- توفي 211هـ-، انظر، غبن الحبي، شذرات الذهب، تحقيق، ج2، ص 75.

والجامع وجملة الأحاديث الصحيحة التي تتألـف من سبعـة آلاف ومائتين وخمسة وسبعين حديثا، وقد نظمهـا قاضـي تلمسـان أبو عبـد الله بن عبد الحق بن سليمان اليعقوبي في بيتين من الطويل، فقال:

جميع أحاديث الصحيح التي رواه البخاري خمس وسبعون في العدد وسبعة آلاف تضاف وما بقي إلا مائتين عدادا لأولاد محمد عليه عـدة شـروح لأبـي داوود بن نصر التلمساني، وأول شروحه للكرماني والقسطلاني. وصحيح مسلم لأبي الحسن مسلم بن الحجاج النسابوري، ويتألف من ثلاثمائة ألف حديث، وعلى عدة شروح، ثم سند أبي داود[1] سليمان بن الأشعث السجستاني، والاسدية محمد بن يزيد بن ماجة، ومسند أبي محمد عبـد الله بـن مسلم بن قيثة[2] وصحيح الترمذي لأبي عيسى بن سوده الترمذي[3]، المعروف بالجامع الكبير في الحديث والشمائل وشرح شمائله، ثـم مسـند أبـي محمد عبد الله وجامع أبو اسحاق ابراهيم بن اسحاق ومسند المبرد لأبي العباس بن عبد الله بن زيد ومسند المروزي[4] أبي عبد الله بن نصر المزوري وسنـن أبي عبد الرحمن بن علي بن شعيب النسائي[5]. ومسند أبي القاسم عبد الله بـن محمد بن عبد العزيز البغوي[6]، ومختصر البخاري لابن أبي حمزة أبي محمد عبد الله بن أبي حمزة الأندلسي. والجامع الكبير والصغير لجلال الدين أبي العباس أحمد السيوطي والأربعون النووية لأبي عبد الله النوري.

1- توفي 373هـ-869م، الزركلي، الإعلام، ج3، ص 182

2- توفي 276هـ أو 275هـ-888م، شذرات الذهب، ج2، ص 169.

3 - توفي 279هـ-892م، شذرات الذهب، ج2، ص174.

4- توفي 281هـ-894م، الزركلي، افعلام، ج6، ص 183.

5- توفي 303هـ-915م، شذرات الذهب، ج2، ص 239.

6- توفي 313 أو 317هـ-925 أو 929م، شذرات الذهب، ج2، ص 239.

رابعـا: الأصول: هو علم يعرف به أصول العلم في كل نوع من أنواعه، ومن بين الكتب التي تداولها علماء الدولة الزيانية كتاب إمـام الحرميـن[1] أبـو المعالي عبد الملك بن الشيخ عبد الله، البراهيـن لأبـي حامـد محمـد بن محمد بـن محمد الغزالي[2]، والبسيط والوسيط والوفير والمتجول والمنتحل وعلم الجدول، والبراهين في الأصول. ومنها منهاج البيضاوي والمختصر للرازي، وجامع الجوامع لابن السبكي[3] وجمع الجوامع الذي يحتوي على عدة شروح وحواشي كحاشية أبي عبد الله محمد بن قاسم العبادي وأبي عبد الله محمد بن الشريف التلمساني، ومنها مختصر الكردي لأبي عمر بن عثمان المعروف بابن الحاجب ومخدم السنوسي وشرحه.

خامسا: الفقه: هو لغة الفهم، واصطلاحا ما ذهب إليه مالك من الأحكام الشرعية المنصوص عليها بالكتاب والسنة والقياس.

فمن الكتب التي كانت تدرس لطلاب تلمسان وغيرها من مدن الدولـة الزيانية العتيقة لأبي زيد عبد الرحمن[4]) بن القاسم المصري والماجشولية[5] لعبد المالك بن الماجشون والأسدية لمحمد بن أسد ومعهـا العتيـبة لأبـي عـبد الله بن العتيبي وشرحها لابن رشد والتحصيل والبيان، ثـم المتيطة لأبي عبد الله المتيطي، ومختصر عبد الله بن شعبان، والرسالة لأبي عبد الله محمد بن أبي زيد القيرواني.

1- توفي 478هـ-1056م، شذرات الذهب، ج3، ص 358.
2 - توفي 505هـ-1111م، شذرات الذهب، ج4، ص 11.
3 - توفي 756هـ-1373م، شذرات الذهب، ج6، ص183.
4- توفي 191هـ-806م، شذرات الذهب، ج1، ص 329.
5- توفي 213هـ-828م، نفسه، ج8، ص 37.

وكتاب القطرب لأبي عبد الله والفدا لأبي زكريا يحي بن زياد، والحدود والمعاني، والموازنة لأبي عبد الله بن المواز [1] ، وكتاب الأخفش لأبي الحسن بن مسعدة الأخفش [2] والبكرية لأبي سعيد الحسن بن الحسن ابن عبد البكري النحوي، والثعلبة لأبي العباس احمد بن يحي بن زيد المعروف بثعلب [3] . والفخارية للإمام النحوي أبي جعفر احمد بن محمد بن سلامة الأزدي الفخاري، ومختصر ابن عرفة، وكتاب أبوبكر محمد بن القاسم المعروف بابن الأنباري [4] ، والغرناطية لابن النحاس الإمام النحوي أبو جعفر بن الزبير ومعها الخرشية، والجمل لأبي القاسم عبد الرحمن بن اسحاق [5] وكتاب السيوطي في النحو لأبي سعيد الحسيني، وشرح كتاب سيبويه، ومنها الإيضاح لأبي الحسن بن احمد بن عبد الغفار الفاربي [6] ، والمقصور والممدود والحجة في القراءات، واللمع لعثمان بن حي النحوي الموصلي ومفاتيح الأقفال ومنها الجزولية لأبي موسى عيسى بن عبد الله العزيز الجزولي، وألفية بن معطي لأبي الحسن بن يحي بن معطي وعليها عدة شروح. والمفضل على المفضل للسخاوي مع شرح المفصل للزمخشري [7] .

1- توفي 281هـ-894م، الزركلي، الأعلام، ج6، ص 183.
2- توفي 211هـ-826م، نفسهن ج5، ص 167.
3- توفي 291هـ-903م، نفسه، ج3، ص 188.
4- توفي 321هـ-933م، نفسه، ج6، ص 137.
5- توفي 328هـ-939م، الزركلي، العلام، ج7، ص226.
6- توفي 376هـ-986م، شذرات الذهب، ج6، ص 350.
7- توفي 606هـ-1209م، نفسه، ج8، ص 194.

والمعونة والتلقين لعبد الوهاب، والباهية لأبي الوليد، والنصرة اللحنية[1] لأبي محمد الدحني، ومقدمات بن رشد والنبهات للقاضي عياض، والحوفية لأبي القاسم الحوفي، والهداية للحفيد[2] ابن رشد، والغافقية لأبي عبد الله محمد بن نـــوح الغافقي[3]، والجواهر لأبي محمد عبد الله بن شـــاش، ومختصـــر ابـــن الحاجب لأبي عمر عثمان بن عمر بن أبي بكر، والغبرينية لأبي العباس الغبريني[4] ، ومختصر أبي الضياء لضياء الدين محمد خليل بن اسحاق ومجموعة شروحه، ومنها شرح بن مرزوق. والمرشد المعين لعبد الواحـــد بـــن احمد بن علي بن عاشر، ومنظومة أبو زيد عبد الرحمن بن الصغير الأخضري، وهذه المنظومة اختصرها من مقدمات بن رشد، ذكـــر فيها مسائل الصلاة والزكاة و الصيام و الحج.

سادســـا: النحو: هو لغة القصد والمثل والجهة والمقدار، ومن أبرز الكتب المتداولة لدى طلبة العلم في تلمسان كتاب النحو لأبي بشر عمر بن عثمان المعروف بسيبويه[5] . وشرح الموصلي[6] لموفق الدين أبي البقاء يعيش بن محمد بن علي الموصلي وألفية بن مالك والتسهيلة والكافية وقواعد بن هشام وقواعد المجردي المعبر عنها بلامية الجمل وقواعـــد الـــزواوي، والأجروميـــة

1- توفي 478هـــ-1094م، الزركلي، اعلام، ج5، ص 148.
2- توفي 520هـــ-1126م، شذرات الذهب، ج4، ص 62.
3- توفي 606هـــ-1209م، نفسه، ج6، ص 166.
4- توفي 707هـ-1304م، عنوان الدراية، تحقيق، رابح بونار، الجزائر 1970، ص12-35.
5- توفي سنة 161هـــ-680م، أو 77هـــ-669م.
6- توفي سنة 643هـــ-1245م، شذرات الذهب، ج5، ص 221.

لأبـــي عبـــد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي عرف بابن أجروم[1] وقــد اشتغل الناس بقراءتها، ووضعت التآليف الجيدة عليــها حتـــى لا تجــد من لايعتني بها قراءة وتأليفـــا عليها بالمشـــرق والمغـــرب، والمغـــني لابـــن هشـــام.

سابعــا: علم البيان: علم البيان هو العلم بالقواعد التي يعرف بها إيراد المعنى بطرق مختلفة منها الرسالة السمرقندية لأبي الليث السمرقندي والمفتاح والايضاح وتلخيص المفتاح.

ثامنا: المنـــــطق: من بين الكتب التي كانت تدرس بتلمسان منطق العلامة السنوسي وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي ومنطق المغيلي عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي سماه كتاب الألباب في رد الفكر إلى الصواب وما يتذكر أولوا الألباب.

تاسعا: العروض: هو علم يعرف به صحيح الشعر وهو اثنان وعشرون بحرا، ستة عشر مستعملة منها الخزرجية لأبي محمد عبد الله بن محمد وشرحها لقاضي الجماعة أبي القاسم بن أحمد الشريف الحسني الغرناطي، والكافي والقوافي ورسالة الصبيان وشرحها للدمنهوري وشرح الشجع عـــن الكافي والوافي وتأليف أبي عبد الله بن مرزوق[2].

عاشرا: التنجيم: من بين الكتب التي كانت متداولة، كتب ابن زكري للعلامة أبي العباس بن أحمد بن زكري.

1- توفي سنة 723هـــ-1325م، شذرات الذهب، ج5، ص62.

2- ابن مريم: المصدر السابق، ص 141-142.

حادي عشر: التوحيد: منها التقيد من البسيط لأبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائري وشرح السنوسي عليها والمحصل في محصل المقاصد لأحمد بن زكري والكبرى والوسطى والصغرى وصغر الصغرى والمقدمة. وعلى كل واحد منها شرح جليل، فمنها حاشية البوسى على الكبرى وشروح الشيخ السنوسي نفسه وشرح الغدامسي والفجيجي للثلاثة وهو الكبير والوسيط.

ومنها شرح علماء الراشدية أنفسهم، وممن شرحها الشيخ الملالي بثلاثة شروح الكبير والوسيط والصغير.

ثاني عشر: التصوف: فيما يتعلق بعلم التصوف فإن من بين الكتب التي تداولت خاصة بزوايا الدولة الزيانية مؤلفات زروق وما نسب لأبي العباس أحمد بن يوسف الراشدي وهو من الأقطاب المشاهير وأبو العباس بن أحمد بن زكري وشرح رسالة زروق وغيرها في التصوف.

ومنهم الجزولي أبو عبد الله محمد بن الحسن كان إماما عالما والعلامة البيدري.

ثالث عشر: الطب: علم الطب من بين العلوم التي كانت تدرس في تلمسان منها ما كتبه العلامة السنوسي وابن زكري والبيدري وابن الحاج البجائي وهو القدوة العلامة الطبيب الحكيم أبو عبد الله بن الحاج بن عامر الغساني السلماني صاحب كتاب شموس الأموار وكنز من كنوز الأسرار.

رابع عشر: الوثائق: من بين العلماء الذين ألفوا في هذا الميدان أبو العباس الونشريسي شارح وثائق القشتالي.

- ثانيــا: مؤلفات التلمساني - اختصار وشرح :

كما تميزت هذه المرحلة من حياة الدولة الزيانية وحتى عصرها الذهبي بمميزات يمكن تلخيصها فيمايلي:

أولا: الإكثار من الاختصار للكتب المتداولة في أراضي الدولة الزيانية في مختلف الفنون.

*** أولا: اللغــة :**

ففيما يتعلق باللغة نجد من بين الكتب التي ألفت رجزا اختصار ألفـيــة بــن مالك، وهي من بين الكتب التي كانت تدرّس في مدارس الدولة الزيانية ومساجدها، والذي قام بهذا التلخيص ابن مرزوق[1].

وفي ميدان اللغة أيضا نجد شرح ألفية بن مالك ليحي العلمي، وهي من الكتب المتداولة في أوساط طلبة العلم بأراضي الدولة، والهدف من هذا العمل تسهيل عملية الفهم والحفظ لها من قبل الطلبة.

ومن بين الكتب المتعلقة بميدان اللغة نجد شرح كتاب الجمل الذي ألــفــه بن مرزوق وسماه" نهاية الأمل في شرح الجمل".

*** ثانيــا: الأدب:**

هذا فيما يتعلق باللغة .أما ميدان الأدب فنجد هناك تأليفا لعبد الجليل التنسي، الذي عاش في عهد المتوكل، جمع الشعر الذي قاله السلطان أبو حمو موسى الثاني، والذي جمع بعضه يحي بن خلدون في كتابه بغية الرواد، وعلى الخصوص الجزء الثاني منه الذي خصصه لأبي حمو موسى الثاني، وحتى التنسي في كتابه نظم الدر والعقبان، وأغلب تلك القصائد تتعلق بالمولدات

1- ابن مريم: البستان، ص 167.

الــتي تميز بها هذا العصر، جمعها في كتابه روح الأرواح فيما قاله أبو حمو من الشعر.

يضاف إلى ذلك أن ابن مــرزوق، قد لجأ إلى شــرح كتــاب العمــدة لابن رشيق المسيلي القيرواني، أي تبسيطه، لكي يسهل على الطلبة فهمه، وفعل ذلك معاصره: الشريف التلمساني، فشرح هو بدوره كتاب العمدة. وهكــذا نجد بأن علماء الدولة الزيانية في عصرها الذهبي وفي العصر المتأخر يدل على البحث والنقد إضافة إلى ذلك شرح الكتب وتلخيصها، وهــو يعتبر ضعفا بالنسبة للجانب الثقافي.

*** ثالثــا: الحديث:**

يضاف إلى اللغة، نجد علم الحديث الذي يعتبر من أهم الفنون التي وجهت لها العناية من قبل علماء الدولة الزيانية في عصرها الذهبي، وحتى في المرحلة المتأخرة، فابن مرزوق الحفيد الذي كان يدرس كتاب ابن الحاجب[1] عمد إلى شرحه، لكي يستفيد منه طلابه، وعنوانه شرح غبن الحاجب الفرعي، كما شرح أيضا مختصر خليل، وهو بدوره من الكتب الأكثر تداولا فــي تلمسان.

*** رابعــا: الفقه:**

لم يقتصر الأمر على الحديث فقط، بل نجد الفقه قد اعتني به من قبل علماء هذا العصر، ومن بين هؤلاء: غبن سلمى الذي قام بتأليف رجز.

1- ابن مريم: البستان، ص 211 - 255.

*** خامســا: علم الفرائض:**

أما أبو اسحاق التنسي، الذي اعتبر من بين العلماء الذين ألفوا في علم الفرائض، وكتابه أول المؤلفات التي تداولها علماء الدولة الزيانية في جميع عصورها، لذا وجهت له عناية من قبل العلماء فظهرت عليه شروحات مــن أبرزها شرح ابن التلمساني[1] وشرح العضوني[2].

وقد علق عليه محمد بن صالح العضوني، فقال: "وأما بعد فإني لما رأيت طلبة الزمان مولعين برجز الفقيه الفاضل إلى اسحاق التنسي اهتديت لشرحه".

*** سادســا: علم المنطق:**

وفي المنطق[3]، فإن كتاب الإمام السنوسي قد درس في عصره وفــي العصور الموالية، وهو ما يؤكده بعض العلماء، ومن بينهم محمد بن محمد، الذي قال: "لما كثرت قراءتي لمختصر ابن عبد الله السنوسي على شيخنا العلامة أبي علي البوني، قراءة وتوضيح وبيان وتحقيق وإتقان لجأت إلى شرحه".

وهو من بين الكتب التي درست في تلمسان وخارجها، علق عليه شارحه بقوله: «إن من اشتغل في التعليم بغيره طلبه موسوم بقلة الرشاد وبالجهل اللازم المألوف».

*** سابعــا: السيرة:**

هذا فيما يتعلق بالمنطق، أما سيرة الرسول(ص) فكانت من بين الكتب الأكثر تداولا في أراضي الدولة الزيانية، وغيرها من دول المغرب الإسلا

1- الشرح هذا خاص لكتاب أبو اسحاق التنسي في علم الفرائض، توجد لدينا صورة من نسخة قديمة تعود لعصر المؤلف، وقد شرح هذا الكتاب ابن التلمساني، وهناك شروحات على شرحه، منها شرح الحباك وابن زاغو وشقرون الوجدي، انظر: ابن مريم: البستان، ص 22-42.

2 – ابن مريم: البستان، ص 82.

3- نفسه: ص 246، 259.

يأتي في مقدمتها كتاب القاضي عياض(الشفا) قام ابن مرزوق الحفيد بوضع شرح له سماه شرح الشفا، وهناك شرحان للبردة من قبل ابن مرزوق[1] الحفيد الأول، سماه شرح البردة الأصغر والثاني شرح البردة الأوسط، ويعتبر الشرحان من أجود ما كتب في هذا الموضوع، وقد استطعنا الإطلاع على شرح قيم للبردة في قصر توسان بولاية أدرار، يشمل معلومات قيمة عـن الثقافة في عهد الدولة الزيانية.

*** ثامنـا: النوازل:**

زيادة على ما سبق، أن هذا العصر عرف أيضا بكثرة الاهتمام بـالنوازل الفقهية التي تتناول الأحوال الاقتصادية والثقافية والاجتماعيـة، ومـن أبـرز المجموعات نوازل المازوني[2] والمعيار للونشريسي[3] بالنسبة للدولة الزيانيـة، توجد بهما قائمة لعلماء الدولة الذين اشتهروا في ميدان النوازل.

- ثالثـا: انتشار مؤلفات علماء الدولة الزيانية:

لم يكن تأثير علماء الدولة الزيانية فقط على الحرية الفكرية، في المغرب الإسلامي بعد هجرتهم من تلمسان، بل نجد أيضا مؤلفاتهم التي عرفت انتشارا خارج محيط الدولة الزيانية، فأصبحت المؤلفات التلمسانية تدرس في أغلب المؤسسات التعليمية، وعلى الخصوص في المغرب الأقصى، ونستدل على ذلك من إجازة الشيخ عبد القادر الفاسي[4].

1- نفسه: ص 23، 210.

2- المازوني: الدرر الكنونة، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم 1335، 1336.

3- الونشريس: المعيار ، ج13ص 166.

4- توجد هذه الإجازة مخطوطة بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1236 ص: 36. للتعريف بالشيخ عبد الرحمن الثعالبي، انظر: السخاوي، الضوء اللامع، مجلد 6، ج1، ص166.
الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص 68.

- أولا: علم الحديث

فيما يتعلق بعلوم الحديث نجد من بين المؤلفات التي تدرس بالمغرب الأقصى مؤلفات أبي عبد الله السنوسي، الذي سبق له أن أخذ الحديث عن الإمام عبد الرحمن الثعالبي[1] وما كتبه ابن مرزوق، عن أبيه الحفيد[2].

ومن بين العلماء التلمسانيين الذين كانت لكتبهم دور في هذا الميدان، أبو العباس الونشريسي الذي تتلمذ عليه ابن هارون[3]، وعبد الواحد الونشريسي ابنه، ودروسه في الحديث، كانت هي الأخرى بأسانيد علماء تلمسان وأبرزهم السنوسي[4]، وابن مرزوق[5]، الكفيف وابن مرزوق الحفيد، الذي أخذ الحديث عن والده وجده[6].

أما الزقاق[7]، فقد تتلمذ هو الآخر على علماء تلمسانيين، في مقدمتهم عبد الواحد الونشريسي، وعن ابن الحاج البيدر[8]، الذي اسند حديثه إلى الشيخ السنوسي.

1- المقري: نفح الطيب، ج5، ص 420.
2- ابن عساكر: المصدر السابق، ص 47.
3- ابن مريم: البستان، ص 57.
4- نفسه: ص 166.
5- المقري: نفح الطيب، ج5، ص 419.
6- نفسه: ج5، ص419.
7- نفسه: ص199
8- نفسه: ج6، ص 433.

- ثانيـــا: علم البيان:

ومن بين المعارف التي كانت تؤخذ من المؤلفات التلمسانية، علم البيـــان الذي كان الاعتماد فيه على ما كتبه ابن مرزوق الكفيف[1] وابـــنه الحفيـــد[2] عـــن جده.

- ثالثـــا: التوحيد:

أما فيما يتعلق بالعقائد فنجد أيضا مؤلفات ابن مرزوق، وولده وجـــده، وابن جدلال، عن أبي عثمان سعيد الكفيف، عن السنوسي، كما أسند المحور مـــا كتبه لأبي العباس، عن أحمد بن جيدة الوهراني[3] وتلميذه أبي عبـــد الله الشريـــف بـــن أبي مداني[4].

يضاف إليه مصنفات ابن زكري[5]، وأبي اسحاق الشاطبي، التي أخذها المنجور عن أبي عبد الله بن جلال، الذي أسندها إلى السنوسي، وابن زكري.

- رابعـــا: اللغة:

يضاف إلى علم العقائد العربية، التي تركز الاهتمام فيها على مؤلفـــات ابـــن مرزوق في العربية، فدرست تلك المؤلفات، في فترة موضوع البحـــث، أي القرن العاشر الهجري/16م.

1- المقري: نفح الطيب، ج5، ص 419.
2- نفسه: ج5، ص 420.
3- ابن عساكر: المصدر السابق، ص 116.
4- نفسه: ص 117.
5- عن مصنفات ابن زكري، انظر: ابن مريم، البستان، ص: 18-29.

- خامســا: الفقه:

والفقه يعتبر من أهم الفنون، التي أثر فيها علماء الدولة الزيانية، علــى المغاربة، وعلى الخصوص ما كتبه أبو العباس الونشريســي[1]، ومحمــد عــبد الواحد الونشريسي[2] الذي تتلمذ عليه التازي[3]، فدرس عليه في فاس، كما درس على زميله ابن هارون، أقرب المقربين لعبد الواحد الونشريسي، ومن بين تلامذته أبو زكريا السراج[4]، وأبو محمد الحميدي، الذي أخذ عن محــمــد عبد الواحد الونشريسي دروسه في الفقه[5].

أما ابن جلال الذي درس هو الأخر في المغرب، فقد تخرج عليه مجموعة من التلاميذ، ودروسه يسندها إلى علماء الدولة الزيانية، فقد أخذ عن والــده الفقيه أبي زيد، عن عمه، محمد عبد الله، عن التنسي عن أبيه محمــد عــن ابن مرزوق.

أما أبو العباس، الحافظ أحمد ابن محمد المقري[6]، فقد روى علم المنطق، وهو علم يعرف به كيفية الانتقال من أمور حاصلة لأمور مستحصلة، ومنها منطق العلامة السنوسي، ومنها منطق المغيلي[7]، وكتاب الألباب في رد الفكر

1- التمبكتي: نيل الابتهاج، ورقة 118، ابن عساكر، المصدر السابق، ص 52.
2- ابن سعد: التعرف ج4 ص 34.
3- ابن عساكر: دوحة الناشر، ص 66.
4- نفسه: ص 110.
5- ابن عساكر: المصدر السابق، ص 52.
6- عن أبي العباس أحمد بن محمد المقري انظر: نفح الطيب، ج5، ص 423.
7- توجد رسالة المغيلي في المنطق بزاويته بدائرة أدرار، وقمنا بتصويرها، وهي توجد بمخزنتنا.

إلى الصواب، وما يتذكره أولوالألباب وكان معارضا للسيوطي، ولما قال هذا الأخير بتحريم المنطق، خالفه المغيلي، وقال بالجواز.

- سادســا: علم العروض:

ومن بين الفنون علم العروض، وهو علم يعرف به صحيح الشعر.

- سابعــا: علم الحساب:

أما علم الحساب، فنجد من أبرز المؤلفين في هذا المجال أبي العباسين احمد بن القباب[1]، له عدة تآليف، منها شرح على قواعد القاضي عياض، وشرح على بيوع أبي جماعة، درس أيضا في فاس من قبل التلمسانيين.

- ثامنــا: التنجيم:

من أبرز مؤلفات التلمسانيين، في هذا الميدان، رسالة ابن زكري في عمل التنجيم[2].

- تاسعــا: علم الكلام:

ومن بين المؤلفات التلمسانية التي وجدت رواجا خارج تلمســان، تــأليف السنوسي في علم التوحيد[3]، مثل الكبرى[4]، والوسطى[5] والصغرى، والمقدمــة، وله على كل واحد منها شرح جليل، وعليها من شروح غيره عدة فمنها حاشية

1- ابن القباب: مزيد من المعلومات انظر يحي ابن خلدون بغية الرواد ج1 ص 266
2- توجد هذه الرسالة في قصر كسال بولاية أدرار، وقد اطلعنا عليها خلال زيارتنا لنفس المكتبة سنة 1991.
3-- السنوسي، العقيدة الكبرى، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم 630.
4- نفسه، العقيدة الصغرى، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم 653.
5- نفسه، العقيدة الوسطى، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم 632.

السنوسي، على الكبرى[1]، وغيرها ومنها شرح الغدامسي[2]، ومنها شرح الفيجيجي[3]، الثلاثمائة، ومنها شرح علماء الراشدية، منهم عبد القادر بن حدة المهاجي، وكان من أهل القرن 9هـ/15م يعرف.

- القضايا المعالجة من قبل علماء بني زيان:

إن علماء الدولة الزيانية في هذه الفترة التاريخية وما قبلها كانوا يشاركون في معالجة القضايا الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية التي تعترض أحوال المجتمع الزياني، خلال هذه المدة التي تميزت بضعف سياسي، وانهيار اجتماعي، فكانت العلاقة متينة بينهم وبين بقية علماء المغرب الإسلامي، لأن القضايا التي كانت تطرح عليهم في شكل نوازل فقهية، يستشيرون فيها علماء تونس وبجاية، ومن بين تلك القضايا نذكر منها:

– الفتوى التي أصدرها العالمان الجليلان، الشريف التلمساني[4] وأبي عبد الله المقري[5]، فيما يتعلق بمن أوصى بثلث ماله واشترط أنه لا يرجع في وصيته، لكنه فيما بعد تراجع عن الوصية وقد رأى في ذلك علماء تلمسان أن هذا لايجوز شرعا، لكن الغبريني رد عليهم معقبا بقوله:

أولا: أما قول أبو عبد الله المقري بأن الوصية فلا يبعد بطلانها، فإن رجع عنها كان بيِّن في صحة رجوعه، قلت هذه دعوى مبنية على دعوى، وقوله: "هذا بخلاف ما أوصى بعتق عبد أو أمة والتزم بأن لا يرجع في ذلك الأجوبة

1– شرح الغدامسي: يوجد بالمكتبة الوطنية، رقم 1223.
2– شرح الفيحيجي: يوجد بخزانة الشيخ البشير، البرج ولاية معسكر.
3– شرح عبد القادر بن خدة المهاجي: يوجد بنفس المكتبة.
4– ابن مريم: البستان، ص 126.
5 – نفسه: ص 143.

وأجب بخلاف الشرط إما وحده أو معها، قلت هذا الكلام ليس فيه تحقيق، الأول مبني على الشك أو التجويز، والثاني أنه فرق بين الوصية والعبد والوصية به بخلاف".

وهكذا نجد الغبريني في رده على التلمسانيين يأتي بأمثلة من جوابهما في هذه النازلة[1]، ثم يوجه لكلاهما نقدا معتمدا في ذلك على بعض المصادر الفقهية ومجتهدا لإبطال فتواهما.

وفي بعض الأحيان يقع تعقيب على العالم الذي نفي إجابة الأول، وحدث في هذه الفتوى أن العالم التلمساني ابن مرزوق رد على الغبريني تأييدا لعلماء تلمسان، وقد تم ذلك خلال زيارته لتونس[2]، التي وقف بها على تعقيب الغبريني لجواب أبي عبد الله المذكورين، وهو ما يؤكده ابن مرزوق بقوله: فإن بعض إخواني مما شملني وإياه وصف القرية، وجمعنا في ذات البيئة المعرفة والمحبة، نازلته في نازلة من المسائل الفقهية، وفرع من فروع أحكام الوصية، وشرح لي بعض أئمة الوقت وفقهائه، ممن يعتمد على ما سألني من العلوم، من تلقائه من أهل تلمسان المحروسة، ومن أهل حضرة تونس دار العلم في الحديث، والقديم، الموجب أهلها مرتبة التفضيل والتقديم[3].

فابن مرزوق يوضح لنا بأن أحد علماء تونس، هو الذي طلب منه الإجابة عن النازلة، التي سبق أن وقع فيها اختلاف بين علماء تونس، وتلمسان، وقد حاول في البداية أن لا يقلل من دور علماء تونس، فاعتبر تونس من أهم المراكز العلمية منذ القديم، وفي نفس الوقت لم ينس تلمسان كحاضرة ثقافية

1- الونشريسي: المصدر السابق، ج12، ص 48.
2- ابن مريم: المصدر السابق، ص157. المقري: نفس المصدر، ج5، ص 67.
3- الونشريسي: نفس المصدر، ج6، ص 267.

هي الأخرى، ثم انتقل إلى الفتوى، فقال ونص على ما قدر من ذلك عن أخواي الفقيهبن، الشريف الفاضل العلامة أبي عبد الله محمد بن محمد المقري التلمساني وما تعقب به عليهما[1].

ومن بين القضايا التي أوردها الونشريسي، وجلبت انتباه علماء الدولة الزيانية، النازلة التي طرحها المغيلي المازوني، على شيخه أبي الفضل العقباني، ومحمد بن مرزوق، وعيسى الغبريني، والمتعلقة باختلاف فقهاء مازونة، على أحد المدرسين الذي كان يخلط في صفات الله تعالى، ويوضح ذلك المازوني بقوله: ‹‹ وذلك أنه قال أن الله رأى أشخاصنا قبل وجودنا وسمع أصواتنا في الأول، ونحن عين العدم››.

ذكر العالم هذا الرأي بمجلس تدريسه بمازونة، نتج عنه رد فعل من فقهائها بين مؤيد ومعارض، فالبعض يرى أن السمع والبصر لا يتعلقان إلا بموجود ولا موجود في الأول للآية.

وقد قيل لهذا العالم فإنك تقول أن ذلك معنى واضح للعمل كما تقول المعتزلة، وأن المازوني لم يستطع أن يوفق بين الخصمين، مما دفع به إلى مراسلة شيخه العقباني، وفي هذا الصدد ذكر بأنه أراد إمعان النظر في المسألة.

وملخص إجابة العقباني، أن الله تعالى منصف بالنظر في الأول، وليس منظرا للحوادث، في الأول كما يراها كما لا تزال حين يوجدها.

وأما إجابة ابن مرزوق الحفيد[2]، فهي تنص أيضا على أن أئمة المذاهب السنية رضي الله عنهم، متفقون على أن السمع والبصر ثابتان من صفات

1- الونشريسي: المصدر السابق، ج12، ص 346.

2- نفسه: ج12، ص 346، 347.

الله عز وجل.

وأما الغزالي، فقد قال: "بأن الإدراك المتعلق بالمرئيات، إنما يتعلق بموجود لا بمعدوم، خلافا لبعض المبتدعة".

ومن بين القضايا التي تناولها رجال الإفتاء في أراضي الدولة الزيانية بصفة خاصة، و المغرب الإسلامي بصفة عامة الاجتهاد والتقليد.

فمن بين الذين تناولوا هذا الموضوع العالم الجليل أحمد بن زكري[1]، الذي أجاب عن النازلة، التي طرحت على أبي العباس الونشريسي[2]، في فاس، وقــد سأل عنها علماء تلمسان.

وقد أجاب عليها أيضا عبد الرحمن الوغليسي[3]، فقال: "ليس ممن يتقلد غير المشهور، عليه القضاء والفتوى من السلف والخلف في عمل على جادة أئمة المذاهب، واحذار مخالفهم. فالذي يمكن التوصل إليه من خلال رد الوغليسي، فإن الذين يزاولون مهنة القضاء والفتوى يجب عليهم الحكم بما يتفق عليه علماء المذهب، والابتعاد عما اختلفوا فيه".

وأما العقباني فيرى بأنه لا بد أن ينظر في الحكم الذي عدل عن المشهور إلى الشاذ فإن الحكم وأظنه بأنه المشهور نقض حكمه وأن حكم به مع العلم أنه الشاذ إلا أنه المشهور نقض حكمه وأن حكم به مع أنه الشاذ إلا أنه ترجح عنده، فكان من أهل النظر ممن يدرج الراجح والمرجوح، إنه لم يكن في العلم

1- عن ابن زكري: انظر: ابن مريم، البستان، ص: 38.

2- وعن أبي العباس الونشريسي: انظر: ابن عسكر، دوحة الناشر، ص 122.

3- عن عبد الرحمن الوغليسي، وهو من كبار علماء المدرسة البجائية في عصره، درس عليه مجموعة من علماء الجزائر، أبرزهم عبد الرحمن الثعالبي، لمزيد من المعلومات عنه، انظر: ابــن مريم، البستان، ص: 207.

بهذه المنزلة زجر وينبغي أن يؤخذ عن القضاء.

فالعقباني يعتبر من كبار قضاة المغرب الإسلامي، لأنه تولى القضاء في كل من بجاية وتلمسان، وسبتة، وعرضت عليه قضايا مختلفة، ولذا فإجابته تدل على خبرته في الميدان، ولهذا يرى بأن القاضي لابد أن تكون له معرفة لكي يستطيع أن يفرق بين المشهور والشاذ، ويدرك مابين الراجح والمرجوح، وإذا لم يستطع ذلك فيجب معاتبته وابعاده عن القضاء.

أما السنوسي[1] الذي يعتبر هو الآخر من كبار رجال الفتوى في أواخر القـــرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، فيقول: « اعلم اكرمك الله تعالـــى، أن الناس باعتبار التقليد في الأحكام الشرعية فيما يعرض مـــن النوازل، فيقسمون إلى أربعة أقسام.»

- **أولا:** مجتهد اجتهد حتى ظن أن الحكم كذا.
- **ثانيا:** مجتهد يتيسر عليه النظر إلى الآية لم ينظر.
- **ثالثا:** عالما لم يبلغ رتبة الاجتهاد ولا يقدر على الاستبداد والنظر لنفسه، إلاّ أنه ادنت له أدلة الأحوال فهو الراجح منها من المرجوح.
- **الرابع:** علمي محقق.

وهكذا فإن إجابة السنوسي عكس من سبقه ويحال من خلالها أن يفرق بين العالم والجاهل، لأن بعض القضاة لم يكن لهم مستوى يخول لهم ذلك، وهـــو مـــا دفع بالسنوسي أن يقول: ‹‹ بأنه لا يمكن أن يكون في نفس الدرجة بين المجتهد والعامي المحض، الذي يتولى القضاء››، وهذه الظاهرة انتشرت فـــي عصر السنوسي وخاصة في القرن العاشر، السادس عشر الميلادي.

1- السنوسي من كبار علماء عصره، ألف في مجموعة من الفنون، وعلى الخصوص التوحيد، فالعقيدة الصغرى و الوسطى والكبرى، والبراهين، درست في أغلب المراكز الثقافية في كل المغرب الإسلامي، لمزيد من المعلومات عن هذا، انظر: الباب الرابع.

يضاف إلى هذه النازلة، فتوى تتعلق بثبوت شرف الأم والسؤال كان كالتالي: ‹‹جوابكم أبقاكم الله وسددكم في مسألة، رجل ثبت أن أمه والتي ولدت شريفة النسب فهل تثبت لهذا الرجل شرف النسب من جهة الأم ويحترم بحرمة الشرفاء بينهم[1]››.

اخترنا النازلة لأهمية الأشراف في عصر الدولة الزيانية، وعلى الخصوص في المرحلة الأخيرة من حياتها، حيث لاحظنا وجود مجموعة من الأسر ذات النسب البربري ادعت الانتساب إلى آل الرسول(ص)، ومن هؤلاء بني زيان الذين ينسبون لبني عبد الوادي.

كما أن الذين ينسبون لآل الرسول(ص) كانوا محترمين من قبل أمراء الدولة الزيانية من جهة، وشيوخ القبائل في الريف من جهة أخرى، ولعل هذا كان من بين العوامل التي أدت إلى النازلة.

ومن أبرز الإجابات التي رجعنا لها أو التي اعتمدناها، إجابة أبو عبد الله الشريف، لأنه يعتبر من أشراف الدولة الزيانية من جهة، ومن كبار علمائها في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، يقول:‹‹ فكتب له بذلك شرف الرسم وهو دون شرف النسب وإن ثبت شرف الرحم جاز أن يدعى له››.

ومن بين الذين أفتوا في ذلك سعيد العقباني، خطيب تلمسان وقاضي الجماعة بها، وكان ذلك في عهد السلطان أبي حمو موسى الأول، لأن تاريخ

1- أن أصل الأشراف في المغرب الإسلامي يرجعون إلى بداية تأسيس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى واستقرار مجموعة من الأسر العلوية بالمغرب الأوسط وتكوين إمارات لهم به، لمزيد من المعلومات عن هذا، انظر: ابن أبي زرع روض القرطاس.
اليعقوبي، البلدان، ص: 12-14، انظر أيضا: لقبال، دور قبيلة كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية، الجزائر، ص 209.

إجابته على الفتوى كان في ربيع الثاني 770هـ- 372م[1].

كما أجاب على ذلك أيضا أحد كبار علماء تلمسان، وهو الفقيه أبو محمد عبد الله بن الفقيه المدرس المفسر المفتي المحقق، العالم أبي عبد الله محمد الحسيني، وكان ذلك سنة 783هـ-1381م.

وكذلك الفقيه، المدرس الأصوني المفتي القاضي أبو عثمان سعيد العقباني[2]، سنة783هـ-1381م وهذا بحضور يوسف بن محمد المغراوي، وعبد الواحد بن موسى المديوني.

إضافة إلى هؤلاء العلماء التلمسانيين الذين شاركوا في الإجابة، على هذه الفتوى، أبو الحسن علي بن محمد بن منصور الأشهب[3]، المدرّس المفتي، وكذلك أبو يحي بن عبد الله[4] الشريف، الذي قال: " أن ثبت الشريف المذكور والمرأة حق النسب، ثبت لوحدها بحق الولادة، وذلك شرف عظيم ومنزلة عاليا".

ومن بين الذين أجابوا على هذه الفتوى أيضا علماء بجاية، الذين اتفقوا على أن الشرف الثابت للأولاد، ليس هو شرف الرحم، بل شرف النسب.

يضاف إلى ما سبق أن هناك محاورات كانت تتم بين علماء الدولة الزيانية، من بينها المحاورة التي تمت بين العالمين الجليلين: محمد المقري[5]، وابراهيم بن الإمام، وموضوعها قول القاضي المقري رحمه الله، نظرت في قوله

1- ابن مريم: البستان، ص 48.
2- الونشريسي: المصدر السابق، ج12، ص 71.
3- عن منصور الأشهب، انظر: ابن مريم، المصدر السابق، ص69.
4- نفسه: ص 47.
5- نفسه: ص 46 المقري، المصدر السابق ج5، ص 334.

تعـالى: "وما منعنا أن نرسل بالآيات"، ومــع ما في الصحيــح من قولــه: "ما بعث من نبي قبلي، إلا أرقى ما مثله من عليه البشر.... "

هذا فيما يتعلق بالفترة التي سبقت القرن العاشر فإن تلمسان عرفت فراغا بهجرة علمائها إلى المغرب الأقصى، والمشرق الإسلامي، والواحات الصحراوية، لكن هؤلاء بقوا مرتبطين بتلمسان. ومن هؤلاء محمد شفــرون بن أحمد بن أبي جمعة[1] المغراوي، الوهراني، الذي كان له دور مشرف في الحركة الفكرية، خلال عهد الدولتين الوطاسية والسعدية، ونكتفي هنا بالتعرض لأحدى الرسائل، وهي عبارة عن فتوى صدرت منه، وجدت من قبل علماء تلمسان، وتتمثل في قوله: «سؤال وجه لي من قبل أحد الطلبة، فقال: " أرشدكم الله جوابكم، فمن يعرف الله ورسوله، ويفرق بينهما، ويعلم أن الله قديم، باق، وإنه يحيي، ويميت، ويغني، ويفقر، ولا يعرف في ذلك دليل، ولا برهان، هل إيمانه صحيح، وليس هو كافر أم لا[2] وهل يصح إمامته وشهادته، أم لا، وإن بعض الطلبة كفر عامة المسلمين بعدم معرفتهم، كذلك هل يصح قوله أم لا.

فهذا السؤال الذي يطرح على المغراوي، يعتبر من بين الأسئلة، التي لاتزال تطرح في المجتمعات الإسلامية، وخاصة من بعض العلماء، الذين يلجؤون إلى الفروع دون الرجوع إلى الأصول، فيما يتعلق بالقضايا الدينية.

وإن بعض العلماء وصفهم بقوله: «إن بعض من يدرس العلم ويدعيه، ويزعم أنه ممن يحفظه، ويعينه، ويتعرض في علم التوحيد، والتدريس، والفتوى، وغيره ويرى أنه ممن ينصح المسلمين للإسلام، ونصر دين مولانا محمد(ص)، أو أن علمه إلى الحكم بتكفير المسلمين ـ المؤدي إلى ما ظهر

1 – ابن عساكر: المصدر السابق، ص 127.
2 – هذه الرسالة مخطوطة بالمكتبة الوطنية تحمل رقم 23، ورقة 13.

لـــي في السؤال في تقريبهم ـــ ظنا منه أن كل ناعق له أتباع وأن الحقّ ليس له ناصر ولاداع.

قبل أن يرد المغراوي على هذا السؤال رجع إلى ما كتبه الإمام السنوسي الذي يعتبر من كبار العلماء في أواخر عهد الدولة الزيانية، الذين كتبوا في ميدان التوحيد، وإن مؤلفاته كانت تدرس في أغلب المراكز بالمغرب الإسلامي، وما يؤكده لك ما توصلنا إليه من خلال زيارتنا لمجموعة من الزوايا داخل الوطن حيث لا تكاد تخلو زاوية من كتب السنوسي وخاصة العقيدة الصغرى، والكبرى، لذا فالمغراوي جاء بنص السنوسي كمقدمة لنقد ما ورد في هذا السؤال، وفي هذا الصدد يقول: «قال السيد الإمام الحجة لموضع صاحب الحجة سيدي محمد السنوسي رضي الله عنه، يعني والله أعلم ما لم يظهر، وقد استدل على ذلك من خلال أقوال السنوسي، الذي قال يعني الله أعلم ما لم يظهر النظر في عقائدهم، كزماننا هذا، فيجب تقييده بالتلطف والمحاربة في تعليمهم الحق لما تبعه عقولهم، فقد فعل الله تعالى في الألفاظ والأدلة سعة. فكل يخاطب على قدر فهمه والله المستعان»[1] التبليغ لهم قد لا يحل له الخوض في شتى من ذلك معهم، أن لا يزيده إلا شبهة لا يقدر خروجها منهم القصوة»[2].

إن فتوى أبي جمعة محمد شفرون، فتاريخها أوائل رجب المبارك عام عشرين وسبعمائة. وكالعادة بالنسبة لعلماء الدولة الزيانية نجد الوجديجي[3]، يؤكد المغراوي في إجابته فيقول: « فاستدل على ذلك من قول الرسول(ص)

1- أبو جمعة المغراوي: المصدر السابق، ورقة 36.

2- نفسه: ورقة 35.

3- ابن مريم: المصدر السابق، ورقة 113.

من أحيا سنتي عند فساد أمتي، فله أجر مائة شهيد، فهذا من إحياء السنة، ومن إخماد البدعة، ومن أراد غير هذا فقد أخطأ».

وهكذا نجد الوجديجي يرى فإجابة المغراوي على النازلة ردا صريحا على الذين يريدون تشويه الإسلام، بنشر الأفكار التي تتنافى مع الشريعة الإسلامية وخاصة اتهام كل المسلمين بأنهم لا علاقة لهم بالإسلام ولذا يجب تكفيرهم جميعا، وهذه الأفكار لا تزال متداولة في عصرنا، وقد أدت إلى تدمير بعض المجتمعات الإسلامية، وجدت ذلك في عهد الدولة الزيانية، التي درسنا بها الضعف الاقتصادي، والانهيار الاجتماعي وضعف الميدان العقائدي، وفي هذا الصدد يقول: «إن النص على الأحكام الشرعية أن يظهر نفسه أخمده الله ونكسه»[1].

لم يتوقف الوجديجي عند هذا الحد بل يتهم كل من يجتمع بهؤلاء ويسمع لهم فهو مبتدع ملهم، تطبق عليه أحكام الشريعة الإسلامية، وفي هذا الصدد يقول: «فمن سمع لهذا المبتدع وركن إليه، وقاربه، فهو متبدع مثله، فلا يحل المقام معه كما لا تقبل شهادته ولاتجوز إمامته».

والسبب في ذلك يرجع في رأي الوجديجي أن هذا الشخص قد أحل دماء المسلمين، وأموالهم واتصف بصفات المبتدعين.

ومن بين الذين أبدعوا فتوى المغراوي من التلمسانيين محمد بن محمـــد بـــن عيسى، وصف المغراوي بقوله: « بأنه صحيح جاري على القواعد العلمية والقوانين الحكيمة مبنية عن رسوخ قدمه، في العلم، وحيازته قطب السبق، ونصحه للمسلمين وشفعته لهم، وأدام فعله وأنابه على علمه.

وأما الإجابة الثالثة فكانت للعالم الجليل ابن ملوكة[2].

1- أبو جمعة المغراوي: المصدر السابق، ورقة 36.

2- ابن مريم: البستان، ص 267.

المصادر والمراجع

* <u>المخطوطــات</u>

- التنسي: نظم الدر والعقبان في شرف بني زيان مخطوط بالخزانــة العامــة بالرباط تحت رقم444

- أبوسعيد العقباني: تحفة الناظر وغنية الذكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر.

- مؤلف مجهول: زهر البستان مخطوط بمانشستر ببريطانيا

- مؤلف مجهول: غزوات عروج وخير الدين مخطوط بالمكتبة الوطنية.

- المازوني: الدرر المكنونة في نوازل مازونة مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم1335/ 1336

- الياكوتي: تلخيص الأثار وعجائب المسالك والأمصار مخطــوط ومــصور على ميكروا فيلم بمعهد المخطوطات القاهرة.

* <u>المصــادر</u>

- ابن آدم أبوعبيد قاسم: الخراج تحقيق محمد شاكر الطبعة الثانيــة القــاهرة 1384.

- ابن الابار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ت سنة658: كتاب الحلة السيراء ط1 تحقيق حسن مؤنس الشركة العربية للطباعة والنـ القاهرة1963.

كتاب التكملة لكتاب الصلة تحقيق محمد بن أبي شنب والفريــد بــل المطبعــة الشرقية الجزائر.

- ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ت630: الكامل في التاريخ8 اجزاء نشر دار الكتاب العربي بيروت1967/1387

- ابن بشكوال ابي القاسم خلف بن عبد الملك: كتاب الصلة مراجعة عزت العطار الحسيني مكتبة المثنى بغداد1955/1374

- ابن بطوطة شمس الدين ابو عبد الله بن ابراهيم ت703: رحلة ابن بطوطة دار صادر بيروت للطباعة والنشر بيروت1964/1384

- ابن حزم ابو محمد بن سعيد456: جمهرة انساب العرب نشر ليفي بروفنسال القاهرة1948

- ابن حوقل ابو القاسم ابن حوقل النصيبي ت367: كتاب صورة الارض ط2 مطبعة بريل ليدن1938

- ابن خردادبة ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله في حدود300هـ: المسالك والممالك بريل ليدن1889

- ابن الخطيب لسان الدين بن عبد الله ت776: أعمال الاعمال فيمن بويع قبل الاحتلام تحقيق احمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني دار الكتاب الدار البيضاء 1964.

الاحاطة في اخبار غرناطة نشر محمد عنان رقم الحلل في نظم الدول تونس1899/1316.

نفاضة الجراب تحقيق محمد العبادي بدون تاريخ

اللمحة البدرية في الدولة الناصرية القاهرة1947

معيار الاختبار في ذكر المعاهد والاثار الرسالة الثالثة من مشاهدة لسان الدين ابن الخطيب ببلاد المغرب جامعة الاسكندرية1958

– ابن خلدون عبد الرحمان ت808: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت1968
المقدمة دار الكتاب اللبناني1968
التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا تحقيق ابن تاويت القاهرة لجنة التأليف والنشر 1951
– ابن خلدون يحيى: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد نشر الفريد بل مع ترجمة الى الفرنسية جزءان ج1/1904 والثاني في قسمين1913 وقد حقق الدكتور حاجيات الجزء الاول سنة1980
– ابن خلكان ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد ت681: وفيات الاعيان وانباء أبناء أهل الزمان تحقيق احسان عباس دار الثقافة بيروت1971
– ابن ابي زرع ابو الحسن علي بن عبد الله الفاسي ت ق8هـ: الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس
– ابن ابي دينار ابو عبد الله محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني ت 1681/1092: المؤنس في اخبار افريقية وتونس تحقيق محمد شمام طبع المكتبة العتيقة ط 3 تونس 1967 ونشر مطبعة النهضة تونس 1950
– ابن صاحب الصلاة المن بالامامة تحقيق ممد التازي الدار البيضاء
ابن ابي الضياف احمد ت1291/1874؛1875
اتحاف أهل الزمان باخبار تونس وعهد الامان ج 1 ط تونس 1963
– ابن سعيد علي بن موسى المغربي: كتاب الجغرافيا ط2 تحقيق العربي اسماعيل ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982
– ابن الصغير حي في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري

تاريخ أئمة الرستميين 1908
- ابن عبد الحكم عبد الرحمان بن عبد الله ت 257: فتوح افريقية والانـدلس تحقيق انيس الطباع مكتبة دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت 19
- ابن عذارى المراكشي ابو عبد الله محمد ت في القرن السابع الهجري البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب نحقيق ج ؛ س؛ كولان وليفي
- بروفنسال دار الثقافة بيروت1384/1965
ابن فرحون ابو الفداء ابراهيم علي بن محمد توفي799/1397
الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب ط 1 دار السعادة القاهرة1329
- ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية
الوافيات نحقيق عادل نويهض.
- ابن منظور محمد بن مكرم بن علي الانـصاري ت711: لـسان العـرب المحيط اعداد يوسف الخياط دار لسان العرب بيروت1970.
ابن مريم ابو عبد الله محمد بن احمد الشريف المليتي المديوني التلمساني البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان تحقيق محمد بن ابي شنب الطبعـة الثعالبية الجزائر 1326/1908.
- ابو الفداء عماد الدين بن اسماعيل بن محمد بن عمر ت732: تقويم البلـدان تصحيح رينود ديسلان باريس1840
المختصر فياخبار البشر جزءان المطبعة الحسينية القاهرة
- البغدادي ابن عبد المؤمن ت839/1438: مراصد الاطـلاع علـى اسـماء الاماكن والبقاع طبعة حديثة في 3 اجزاء

- البكري ابو عبد الله ت487: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك مكتبة المثنى بغداد ومطبعة الحكومة الجزائرية 1857
- التيجاني ابو محمد عبد الله بن محمد التيجاني كان حيا سنة 13/702 رحلة التيجاني المطبعة الرسمية تونس 1958
- التنسي ابومحمد عبد الجليل التنسي: نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان حقق جزء منه محمود بو عياد 1977
التمبكتي ابو العباس احمد بابا بن احمد الصنهاجي السوداني 963 / 1555 نيل الابتهاج بتطريز الديباج وهو على هامش المذهب لابن فرحون ط 1 القاهرة 1329
- الدباغ ابو زيد عبد الرحمان الانصاري ت696: معالم الايمان في معرفة أهل القيروان ط2 اكمله وعلق عليه ابو الفضل القاسم بن عيسى بن يحيى التنوخي ت839 تحقيق محمد الاحمدي ابو الانوار واخرون مكتبة الخانجي 1968
- الدرجيني ابو العباس احمد بن سعيد ت670: كتاب طبقات المشائخ بالمغرب تحقيق ابراهيم طلاي مطبعة البعث قسنطينة 1974/1394.
- الزركلي خير الدين: الاعلام 11 جزء ط 3 بيروت 196
الزاركشي تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية تحقيق محمد ماضور تونس المكتبة العتيقة 1966
- الزهري: كتاب الجغرافيا نشر محمد الحاج صادق مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي دمشق 1967 ؛1968

- الضبي ت 459: بغية الملتمس في تاريخ اخبار الاندلس علمائها وامرائها وشعرائها ودوي النباة ومن دخل اليها واخرج منها ط مجريد1884.
- الشيرازي عبد الرحمان بن ناصر بن عبد الله الشافعي ت1193/589.
نهاية الرتبة في طلب الحسبة تحقيق ونشر باز العريني القاهرة1946.
- العمري ابن فضل الله ت1349/749: مسالك الابصار في ممالك الامصار نشر وتحقيق احمد زاكي القاهرة1924.
- العبدري ابو محمد عبد الله بن محمد العبدري القرن8 : رحلة العبدري المسماة بالرحلة المغربية تحقيق محمد الفاسي الرباط.

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الباب الثاني الأحوال الثقافية

الفصل الأول

الفصـــل الثـــاني

Achevé d'imprimer sur les presses
de l'imprimerie HASNAOUI M.
09, Rue Med BOUCHAKOUR. Alger. - Tél. : 021 74 70 83
Juin 2009

هذا الكتاب

دراسة تارخية، سياسية، اقتصادية، ثقافية واجتماعية..

تعد مرآة صادقة لأحوال الدولة الزيانية، التي تعتبر من أهم الدول التي نشأت على أرض الجزائر، حيث استمرت أكثر من ثلاثة قرون..

وقد مرّت الدولة الزيانية بجميع المراحل التي ورد ذكرها في مقدمة ابن خلدون حيث كان شاهدا هو وأخوه يحى بن خلدون على أهم مراحل هذه الدولة.

منشورات الحضارة

ص.ب 04 بئرالتوتة -الجزائر
هاتف فاكس: 021.44.34.41

الإيداع القانوني 759-2009
ردمك 978-9961-767-67-2

صدرهذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة